سيجموند فرويد

اليهودية في ضوء التحليل النفسي

موسى والتوحيد

ترجمة: دكتور عبد المنعم الحفني

مقدمة

ما من أحد من المثقفين إلا ويعرف سيجموند فرويد ، وما من مقال في النقد السينمائي أو الأدبي أو التشكيلي إلا ويحاول أن يستعين ببعض نظريات التحليل النفسي ؛ وبالاختصار فإن فرويد صار بديهية ثقافية ، أو صار أفكاراً عامة يعرفها ويتقنها عامة المثقفين .

وأنا — كغيري من بقية المثقفين — عشقت التحليل النفسي يوما ، إلا أنني عثرت خلال رحلتي الطويلة فيه بأشياء صدمتني بشدة ، كما لو كانت نوراً باهراً غمر بصري مرة واحدة ، ودعاني إلى التفكير في معنى هذه الظواهر المتعاقبة . من ذلك مثلا أن الغالبية العظمى من المشتغلين بالتحليل النفسي من اليهود ، وأن دور النشر التي تنشر لهم ، وتروج لأفكارهم يهودية وتملأ أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص .

ومنها أن هؤلاء المحللين والمشتغلين بعلوم النفس اليهود ، وأن

غيرهم من الروائيين والكتاب والشعراء اليهود ، يجاهرون بالإلحاد عنــدما تكون القضية قضية مناقشة الاعتقاد الدينى عامة ، وهم يهود غلاة متعصبون عندما تكون القضية مفهوم اليهودية على مستواها الدينى أو الأنثروبولوجى أو الاجتماعى أو الاقتصادى ! !

وإن المرء ليدهش إزاء هذا التجمع اليهودى الضخم داخل مدرسة التحليل النفسى ، وإننا لنقرأ قائمة طويلة بأسماء المشتركين فى جمعيات ومؤتمرات التحليل النفسى ، ولا نجد إلا عدداً قليلا لا تحصيه أصابع اليد الواحدة من العلماء المسيحيين . . فهناك أسماء : فرويد ، وإبراهام ، وأدلر ، وستكل ، وفيرينزى ، وريكلين ، وبلولر ، وفوريل ، وأساجيولى ، وكرابيلين ، وإيتنجتون ، وجانيه ، ورانك ، وساخس . . ويكتب إرنست جونز معلقاً على هؤلاء جميعاً بأن إحساسهم بيهوديتهم كان إحساساً حاداً ، وكان إيتنجتون مثلا أشدهم إحساساً بها ، لدرجة أنه آثر الهجرة صراحة إلى فلسطين (١) ، ويمضى جونز فيقول : إنه كان المسيحى الوحيد فى المجموعة كلها ، وإنه من طول معاشرته لهؤلاء المحللين اليهود حفظ عنهم قصصاً يهودية وأمثالا ونكاتا ، وصار منهم

---

(١) The life and work of Freud, page 451.

ومعهم قلباً وقالباً ، وقد لمس جونز بنفســه إحساسهم المرهف بيهوديتهم ، وإحساس فرويد بهـا بنوع خاص .

وهـذا الإحساس الحار بيهودية فرويد كان يلون اتجـاهاته السياسية فتراه يكره الاشتراكية لأنها لا تفرق بين الناس بناء على معتقداتهم الجنسية أو أصولهم السلالية ، ولا تقر الامتياز العنصرى ، وكان فرويد من غـلاة المؤمنين بالتفوق العنصرى ، حتى أنهم عند ما عابوا عليه الأخذ بنظريات إتـكنسون وروبرتسون سميث الاجتماعيين ، لتخلفها عن الركب العلمى والمستحدثات الاجتماعية ، أعلن أنه يأخذ بها لأنها تناسب نظرته للأمور ، حتى ولو كانت متخلفة علمياً .

ويقول فرويد فى كتابه هـذا الذى أقدمه اليوم للقراء : « إن لليهود فـكرة عالية عن أنفسهم ، وهم يعتقدون أنهم أنبل من غيرهم وعلى مستوى أعلى وأكثر تقدما من الآخرين . . » . ويمضى فيقول : إن سبب هذا الاعتزاز أنهم يصدقون فى الواقع ما يقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار (ص ١٣٢)

ويصف جونز ميول فرويد السياسية أنها ليبراليـة ، وأنه كان يصوت مع الحزب الليبرالى . كان فرويد ليبراليا لأن الليبرالية هى

أنسب المعتقدات السياسية لاتجاهاته الذهنية ، لأنه لم يكن يجد فى الاتجاهات السياسية فى زمانه ما يمكن أن يوافق ميوله العنصرية اليهودية ، هـذه الميول التى تتضح بشكل سافر عندما تقرأ عن دائرة رفاقه وزواره وحوارييه فى لنـدن ، وبعد هربه من أوروبا النازية ، فلقـد كان هناك يهودا المؤرخ البريطانى اليهودى المشهور ، وستيفان زفايج الكاتب اليهودى ، ومالينوفسكى عالم الأنثروبولوجيا اليهـودى ، وحاييم وايزمان الزعـيم الصـيهونى وأول رئيس لإسرائيل . وكان فرويد يباهى بيهوديته ، وهو يكتب إلى المعهد العلمى اليهودى فى لندن يقول : « إنى أعتز بيهوديتى بفخر » (ص ٦٥٠ جونز) .

وهـذا الاعتزاز اليهودى هو نفسه الذى جعله ينضم إلى جمعية بناى بريث ، وهى من أكبر الجمعيات اليهودية انتشارا فى العالم ، وأشدها غلوا فى الصيهونية ، وقد التحق فرويد بالجمعية سنة ١٨٩٥ ، وظل عضوا بها إلى آخر يوم فى حياته . وكانت الجمعية معروفة بميولها الصهيونية ومعاداتها الأممية ، وكانت تمارس نشاطاتها اليهودية الاجتماعية بطريقة علنية ونشاطاتها السياسية سراً .

وفى مارس سنة ١٩٣٨ قبض عليه النازى واستجوبوه لعضويته السابقة ، وكانوا قد أحرقوا كتبه كلها فى برلين فى مايوسنة ١٩٣٣ ،

وسارع إيتنجتون زميله فى بناى بريث وفى جماعة التحليل النفسى إلى فلسطين فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣ ليمهد للإقامة هناك ، وبعدها بشهرين سافر إلى هناك للأبد ، بعد أن حاول جهده أن يدعو فرويد لصحبته، وأسس هناك جمعية للتحليل النفسى .

وإذا جاز لنا أن نستخدم نفس طرق التحليل النفسى على فرويد ، ونستعيد نظريته فى المكبوت ، وعودته بفعل الظروف المستحدثة ، وما يمكن أن يدلنا عليه هذا المكبوت من عوامل ومشاعر خبيثة تفصح من مضمون فرويد واتجاهاته العنصرية القوية ، فإن لنا أن نستشهد بهذه الحادثة التى جرت وقائعها عام ١٩٣٨ ؛ فنى ١٣ مارس من تلك السنة عقدت الجمعية اجتماعاً عاجلا ، وقرر الأعضاء الفرار أمام النازية ، وأعلنوا أن المقر الجديد سيكون حيثما يكون فرويد ، وفوراً ارتفع صوت فرويد هادراً ودون تلعثم ، وكأنما كان يتكلم من بطن التاريخ أو من اللاشعور أو الهو ، على حد تعبير أصحاب التحليل النفسى : « إنه بعد تحطيم المعبد فى أورشليم على يد تيتوس ،طلب الحاخام يوحنان بن سكاى الإذن بفتح مدرسة فى يابنيه لدراسة التوراة ، ونحن سنفعل نفس الشىء ؛ إننا جميعاً معتادون على الاضطهاد ، بحكم تاريخنا وتراثنا ، وبعضنا

بحكم تجاربنا الشخصية »[1] . . فنرى هنا أن فرويد يعتبر التحليل النفسى كالتوراة تراثاً يهودياً ، فإن كانوا قد أغلقوا معبده فى فيينا ، مثلما فعلوا من قبل مع معبد اليهود فى أورشليم ، فسيفتح مدرسة لتعليمه فى مكان آخر ! !

وإذا كان قوله هذا قد صدر منه مثلما تصدر النكات والكلمات التلقائية من صاحبها ، وتدل على مكنوناته النفسية فى لحظات غير واعيــة ، فإن كتابه « موسى والتوحيد » ، والذى رأيت أن أترجمه « اليهودية فى ضوء التحليل النفسى » ، لأنه أبعد شىء عن تناول موسى والبحث فى التوحيد ، وأقرب إلى الدعاية اليهودية والترويج لعظمة اليهود وعبقرية شعبهم وشموخ معتقداتهم ... كل ذلك باستخدام وسائل التحليل النفسى ومصطلحاته لتبريره وتعزيزه ، بحيث نستطيع أن نعطى الكتاب عنوان : « التحليل النفسى فى خدمة القضية اليهودية » . . . هذا الكتاب هو عطاء فرويد الواعى للقضية الصهيونية ، ولقد استخدم فيه منهجاً وتكتيكا يعد أرقى المناهج والتكتيكات للوصول إلى هذا الغرض ، عن طريق لوى الحقائق التاريخية والسير بها إلى نتائج يهودية محضة . وحتى اسم الكتاب نفسه كان اسماً عالمياً ، فموسى ورسالة التوحيد مسألتان

(١) جونز ص ٦٣٨

تهمان المسيحى والمسلم ، ناهيك عن اليهودى ، لكن المحتوى كان دعاية محضة لليهودية . وهو يقول إن اسم موسى كان اسماً مصرياً ، لأن ابنة فرعون التى انتشلته من الماء لم تكن تعرف العبرية ، ويثبت ذلك بالدلائل اللغوية ، ولكن هل تعنى مصرية الاسم أن موسى لم يكن عبريا ؟ ؟ . .

ويستطرد فرويد ذاكراً التشابه بين ديانة أخناتون وبين الديانة الموسوية ، ويعدد هذا التشابه فى ظواهر الختان ، وتحريم التماثيل والصور ، وأكل لحم الخنزير ، وأهم من ذلك كله فى التوحيد . ولكن هذا التشابه فى بعض الظواهر السلوكية لا يعنى أن الجوهر واحد . ولا يمكن أن يكون التوحيد الأخناتونى هو نفسه التوحيد اليهودى ، مثلما لا يمكن أن يكون التوحيد العربى فى الجاهلية هو نفسه التوحيد الإسلامى ، فعرب الجاهلية كانوا يعبدون الله الأحد ، وأما الأصنام فهم زلفى إلى الله . . ومع ذلك فشتان بين التوحيدين !!

مع ذلك ، كما ذكرت ، لم يكن الفصل الأول من الكتاب — وهو الذى تناول أشتاتاً من البحوث حول موسى — هو بيت القصيد من الكتاب ، إنما الفصلان الثانى والثالث هما المهمان وفيهما يهاجم فرويد المسيحية هجوماً عارماً ، ويعقد مقارنات بينها وبين الطقوس الوثنية فى الديانات الطوطمية ، معدداً طقوس التناول

ومفاهيم التثليث . . وحاول فرويد أن يطعن الإسلام ، ويقول أنه نسخة يهودية ، ولكنه قبلها يعتذر عن جهله بهذا الموضوع ، رغم أنه يكتب فيه من بعد وكأنه يتحدث عن شيء يقيني ، ويظهر حقده العنصري بشكل سافر عندما يضفي على اليهودية أسباب العظمة والشموخ والسموق ، ثم يسلب الإسلام هذه الصفات ، مع أنه — كما يقول — يملك نفس الصفات السابقة ! !

وفرويد في تهجمه على الإســلام يردد ما سبق أن ردده مستشرقون آخرون ، ولقد سبق أن تناولهم جميعاً الأستاذ العقاد وحلل نواياهم وأبان عن مقاصدهم ، وليس التشابه بين الديانات المنزلة — إن كان هناك تشابه — إلا لأنها تصدر عن أصل واحد ، وهو الله . وتكتيك فرويد في إهانة الديانات الأخرى وإعلاء شأن ديانته ، وإضفاء المجد والخلود والعظمة على ديانته ، وتجريح الديانات المغايرة ، تكتيك — بكل وسائل التحليل النفسي ومناهجه — يدل على مراهقة فكرية وطفولة دينية من باب — لعبتي أحسن من لعبتك — التي يكثر ترديدها الأطفال . ولم أجد في الكتاب ما يجوز أن نسميه بقواعد لعلم يقارن الأديان ، أو شتاتاً من البحوث والنتائج التي يمكن استخلاصها بالنهج على منواله .

ومع ذلك تتبقى أهمية ترجمة الكتاب ، لأنه يعد وسيلة رديئة

لتطبيق مناهج علم النفس و نية سيئة — كما يقول الوجوديون — لما يهدف إليه من قصد عنصرى ، وسبة تاريخية ، لأنه إهانة للتاريخ وقواعده ، ثم هو كشف لعالم كثر الحديث عنه وفى مصر بالذات ، وبين المثقفين ، وفى أبهاء الجامعات العربية ، ولقد سبق أن طلب المعهد العلمى اليهودى فى لندن من فرويد عدم نشر الكتاب ، لأنه سيفضح النوايا اليهودية الصهيونية ، ولكنه رفض معللا ذلك بعلل فكرية ، وكأنما هو يعتز بكنز ثمين قد اختص به وحده ، ولقد رفض أن يترك الدنيا إلا والكتاب منشور ، وكأنما هو يرفض وداع الناس من مسيحيين ومسلمين، إلا بعد أن يعلن رأيه فيهم بكتابه هذا الذى يصفه لانز ساخس بأنه « وداع يستحق » (١) .

وكنت أحب أن استطرد فى ذكر أسماء اليهود من العلماء الكبار الذين تطفح صحافتنا بالإشادة بهم ، والذين أرسلوا إليه مهللين للكتاب ، لأنه باقة ورد وقصيدة مدح وأغنية حلوة تتغنى باليهودية وتشيد بها وتلهج بذكرها ، ولأنه طلقة تسدد إلى قلوب أعدائها ، المسيحيين على الخصوص (وإن كان قد مس الإسلام مساً فى خمسة سطور فقط) ، ولكنى أكتفى بواحد فقط هو أينشتين

---

(١) جونز ص ٦٥٤

عالم النسبية ، الذى طاف الولايات المتحدة ليجمع التبرعات لإسرائيل سنة ١٩٤٨ ، والذى ظل يتحدث فى إذاعات أمريكا وتلفزيوناتها مدة أربع سنوات ، داعيا إلى الفكرة الصهيونية ، مؤثرا فى سياستها الخارجية ، ضاغطاً على رؤسائها ، كى تظل وتونع إسرائيل ، حتى رأى قومه أن يعرضوا عليه رئاسة دولتها بعد وفاة حاييم وايزمان . وليس بمستغرب أن يعجب إينشتين بحجر الرحى فى فلسفة فرويد ، وهى نظريته فى الكبت والتى أرسل إليه متحدثاً عنها فى خطابه (١) فى إبريل سنة ١٩٣٦ ، ثم ليس بمستغرب أن يفصح فرويد ، مراراً وتكراراً ، عن لا شعوره الدينى وامتلائه بالدين اليهودى — رغم تهجمه على الديانات الأخرى ودعوته الظاهرية إلى الإلحاد — فى تشبيهه لنفسه بيوسف وبموسى عليهما السلام ، الأول لأنه اشتهر بتفسير الأحلام مقارناً بفرويد ، وأكبر كتبه هو كتاب تفسير الأحلام ، والثانى لأنه رسول اليهودية مقارناً بفرويد رسول العلاج النفسى ، وكان فرويد يرى فى يونج ما كان يراه موسى فى يشوع ، فموسى رأى الأرض الموعودة ، ولكنه لم يرتدها ، ويشوع هو الذى ارتادها ، ولذلك كان فرويد يطمع أن يكون يونج هو يشوع العلاج النفسى .

* * *

---

(١) جونز ص ٦٢٨

والحديث عن فرويد يجرنا حتما إلى قضايا كثيرة مشابهة ، منها قضية أرثر ميللر ، وتوماس مان ، وفرانز كافكا ، وألبرتو مورافيا ، وجيمس جويس .

* * *

كان الناس ينظرون إلى ميللر ككاتب يسارى : شأنه شأن بريخت ، ولم يعرف أحد أنه يهودى إلا عند ما تزوج مارلين مونرو الممثلة المعروفة ، وعندئذ سلطت عليه الأضواء ، وعندما أعيد زواجهما فى المعبد اليهودى عرف العالم أن ميللر يهودى ، وعندما استجوبوه أمام لجنة الكونجرس فى ٢١ يونيو سنة ١٩٥٦ أقر أنه لم يدرج اسمه قط ضمن أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى ، وأنه رفض محاولات الحزب استدراجه إلى صفوفه . . وعندها فقط أدرك خصومه وأصدقاؤه التاكتيك الذى اتبعه لينال الشهرة والحظوة . كان بين اليهود يهوديا ، وبين غير اليهود يساريا . وكانت اليهودية إنحيازاً ، بينما كانت آراؤه المعلنة يسارية أو ليبرالية على أقل تقدير ، وعندما وثق زواجه أمام الحاخام عرف انحيازه وبانت يهوديته وظهر تدينه .. ويصف دنيس ويلاند[1] وضع ميللر فيقول : « إن ماتيو أرنولد لو قدر له أن يفسر تعليمية كتابات

---

(١) Miller, page 11

ميللر ، لوصفها بأنها دليل على العبرانية أكثر منها سمة من سمات الهللينية » ، ولذلك فقد كرمتــه الجامعة العبرية فى أورشليم سنة ١٩٥٩ ومنحته وسامها .

ويجمع النقاد على أن مسرحيته « مشهد من الجسر » تحليل نفسى لحياته الخاصة ، وهو يريد أن يوفق بين اعتناقه الليبرالية وبين حياته فى مجتمــع رأسمالى أمريكى ، وبين يهوديته وبين المجتمع المسيحى الأمريكى ، وبين صهيونيته وبين ولائه لأمريكا ، ولذلك يقول إنه يدعو إلى أن يعيش العالم فى « Polis » ، وهى المدينة بالمعنى اليونانى القديم ، الذى كانت تعيش فيه كل مدينة مستقلة داخل المجتمع ، ومع ذلك فهى وحدة داخل الـكل ، والمدينة تنظيم قبلى قديم يعرف فيــه الأعضاء بعضهم البعض شخصياً ، لأنهم محدودون عدديا ، ويدرك فيها الأعضاء أنهم لن ينجحوا شخصياً إلا بنجاح المدينة كـكل . وفى سنة ١٩٥١ نشرت له قصة قصيرة بعنوان « It takes a thief » ، وهى عن صــديقين — أبيللو وبرنشتين — أمريكيين ، وفيها يبحث أبيللو عن أجداده الإيطاليين فى إيطاليا ، أو حتى عن قبورهم ، ولا يساعده برنشتين فى ذلك إلا لانبهاره بالمشروع لأنه يبحث عن أصوله . وفى إيطاليا يدلفان إلى مطعم ويقدم رجل عجوز ليجلس واضعاً أمامه لفافة هدوم ، وعندما

يهم مغادراً يصبح برنشتين اليهودى : « فينى . . . إنه يهودى » !

ويصف ميللر صوته فيقول : « وكانت هناك نغمة انتصار ، ونسمة جديدة من الثقة ، وتعالٍ فى وجهه وصوته ، كما لو كان هو الآن ، ولأول مرة ، الذى يقوم بهذه المهمة السرية ، وأنه قد صار فى موطنه .

واستدار فينى ناحية الرجل وسأل : لماذا ؟

وقال برنشتين : « الطريقة التى يلف بها اللفافة . إنها نفس الطريقة التى يلف بها أبى اللفافة ، وجدى ... لا أحد آخر يمكن أن يكون رقيقاً وحانياً على اللفائف . إنه يهودى يلف لفافته » .

إن أبيللو ، المهاجر الإيطالى ، يعثر على « مدينته » فى إيطاليا : يحس فيها الانتماء ، وبرنشتين يحس بمدينته كذلك ، ويحس الانتماء بغيره من اليهود ... إن إنتماءه يهودى ! . . .

وميللر فى « مشهد من الجسر » يحس أنه قد خان حتى الآن يهوديته ، ولذلك فهو يكتب من الآن عن أبطال يهود بمفهوم يهودى ، وهذا هو المفهوم الجديد عن الدراما الذى يحاول أن يروج له فى مقاله بعنوان « حول المسرحيات الاجتماعية » ، ليكتب عن خصوصيات يهودية دون أن يهاجم من قبل النقاد

ليهوديته ، بحجة أن اليهود واليهودية وحدات أو مدن تضمها الوحدات الأكبر ، وأنه لا تعارض فى خدمة السيدين : اليهود والمسيحيين ، أو إسرائيل وأمريكا ، فاليهود وحدة داخل المجتمع المسيحى ، وإسرائيل وحدة أو مدينة داخل الدولة الأمريكية .

* * *

وقضية فرانز كافكا مثل آخر على التضامن اليهودى والدعاية اليهودية ، وما يمكن أن تسنه للعالم من طرز أدبية . إن اليهودية العالمية هى كريستيان ديور الأدب العالمى . وما يروج له النقاد اليهود ودور النشر اليهودية وتمليه إملاء على العالم ، يأخذه العالم ببعض الرفض ، ولكنه رفض يسمح بدخول النمط الأدبى ساحة الأدب العالمى المعترف به .

وفى قضية « فرانز كافكا » نجد الناقد اليهودى « ماكس برود » يكتب عن كافكا حتى قبل أن تظهر لكافكا قصص فى الصحف اليومية ، ويختار كافكا كأحسن القصاصين ، حتى من قبل أن ينشر أحد له أو يسمع به أحد ، تماما كما حدث مع الشاعر الإسرائيلى عجنون ، الذى لم يسمع به أحد حتى فى إسرائيل نفسها ، ومع ذلك منحته لجنة نوبل جائزتها .

ويموت كافكا ، وتنشر له قصص غير كاملة ، يختلف الناشرون أيما اختلاف حول ترتيب أبوابها ، ومع ذلك تظل دور النشر اليهودية تروج

لها ، حتى يقع المثقفون فى أحابيلهم ويحتفون بها كأنماط أدبية عالمية .

ومن أغرب القضايا الأدبية التى روجت لها الدعاية اليهودية التفسيرات التى دارت حول كتب كافكا . وكافكا يهودى متعصب ليهوديته ، ومتدين لأقصى حدود التدين ، وظل بقية حياته يدرس اللغة العبرية ويؤم محاضرات حول التالمود (كتاب اليهود الثانى بعد التوراة) فى المدرسة اليهودية العليا فى براغ[١] ، ولم يكن يزامل أو يكتب أو يعاشر إلا اليهود . وكانت كتاباته التأملية ثانوية ، وقصصه التامة قصيرة وضعيفة التركيب وهشة البناء ، ومع ذلك نال شهرة واسعة بسبب الدعاية ، وبسبب أبطاله اليهود وموضوعاته اليهودية من التوراة . هكذا كانت قصته « وصف صراع » حول مفهوم الحكمة والاستقرار ، وقصته « الحكم » عن فقدان الإيمان بالدين ، وقصته « تحول » حلم مزعج عن الإنسانية شبيه بقصة أيوب النبى . وقصة القلعة . . . والمحاكمة . . . كلها قصص من التوراة ، وعن الدين والمفاهيم الدينية اليهودية ، ولا تفسير آخر لها سوى ذلك ، ومع ذلك فقد أرغى وأزبد النقاد حول معانيها إلا هذا المعنى الدينى اليهودى .

ولعل أستاذ الانتهازية اليهودية الذى لا يبارى هو « توماس

(١) Kafka : Charles Osborne Pag 13

مان » ، والحديث فى جدارة مان واستحقاقه لجائزة نوبل لا ينتهى ، وقصة عزفه على وترين ، الألمانى والأمريكى قصة مبتذلة ، وحكاية تأييده الأحزاب اليمينية ثم تخليه عنها ، ومهاجمته لأوروبا ثم ارتداده إليها ، ومقالاته عن الصهيونية وإسرائيل والتضامن اليهودى أمور يعرفها القاصى والدانى ، والأهم من ذلك كله ملكته الأدبية التى لم يستطع ناقد واحد أن يؤيدها تأييداً غير مشكوك فيه ، فقصصه مبتذلة ركيكة مهلهلة ، ومع ذلك ، ولأنه يهودى وانتهازى نشيط ، استطاع أن يفرض نمطه الأدبى على دنيا الأدب ، وبفضل دعاية الصحف والإذاعات اليهودية (١) .

ولعل صنو «مان» فى ذلك الكاتب المتفلسف هربرت ماركاس Herbert Marcus الذى أقام لنفسه مركزاً وسطا بين كل الفلسفات ينقدها جميعاً ، ويأخذ منها جميعاً ، ويكسب المال والشهرة ، ويدعو لنفسه ولإسرائيل ، ويحاول أن يغالط بموقف وسط بين العرب وإسرائيل ، ولكنه الوسط الذى يعطى إسرائيل ويضع العرب ضمن النفوذ الإسرائيلى .

* * *

وقضية مورافيا وكتبه ، كأنماط أدبية مشهورة ، شهرتها أكبر من قيمتها ، والسبب أن الكاتب يهودى ، وبحكم التضامن

---

(١) Thomas Mann : Andrew White page 82.

اليهودى ، لابد أن ينال الشهرة ويفرض فرضاً ، رغم أنه يكتب ميلو دراما ، ولا يحسن نسج قماش قصصه . ولا حبكة أطرافها .. وهو يمينى يغالى فى يمينيته ، ولا يعترف بالعمال إلا فى بعض قصص كتبها عندما أراد ركوب متن المد اليسارى فى إيطاليا ، وكتبه تبين عن ضآلة ثقافته ومحدوديتها والتزامه المسبق وميله إلى الموضوعات الصحفية وضحالة شخصياته . وعندما نتساءل : كيف إذن نال الشهرة ؟ لا نجد إلا جواباً واحداً هو : جواز المرور : يهوديته .

تلك اليهودية التى من أجلها أيضاً نالت قصة جيمس جويس « يوليسيس » شهرتها ومجدها بسبب شخصية بطلها « بلوم » اليهودى المجرى المهاجر إلى إيرلندة ، والمنفصل عن قومه ، والمنعزل عن أسرته . وفيه يضع « جويس » كل أزمة العصر كما يقولون . وابن جنسه دزرائيلى يقول إن الناس تنشأ فى المدن وليس بينها إلا السعى وراء الكسب . أنهم لا يتعاونون ، ولكنهم يعيشون جزراً معزولة عن بعضها البعض ، لايهمها إلا المال . .

وبلوم يعيش معزولا عزلة مضاعفة ، بل عزلة مضاعفة ثلاث مرات : مرة بالميلاد بعيداً عن إسرائيل الوطن الأم ، حيث اليهود قومه . . ومرة فى عزلة عن أسرته وبيته ، حيث هجرته زوجته وأحبت غيره ، وهربت ابنته ، ومات ابنه ، وانتحر أبوه .. ومرة

وهو يعيش حياته اليومية يُركل وتُساء معاملته ، لأنه يهودى ، وتُفرض عليه الوحدة . ومع ذلك فبلوم يمتلك فضائل أخلاقية تباعد بينه مرة أخرى وبين الناس ، فهو عطوف وحليم وشجاع وعادل ومتسامح ، وهو دائماً يلقى بحبال المودة إلى الناس ، إلى الجزر الأخرى ، ليصل ما بينه وبينهم . ولكنهم يقطعون حباله فيصرخ : « لا فائدة . القوة والكراهية هما التاريخ .. هذه ليست حياة تصلح للرجال والنساء . حياة ملؤها الإهانة والكراهية . وكل واحد يعرف أن الحياة الحقيقية ، هى العكس » . . وهو يدافع عن نفسه فيقول : « إن المسيح الذى تحبونه يهودى . . » وهو يقف هو نفسه كالمسيح مصلوباً يصرخ : « ايل ! . . ايل » . . ثم يرد على نفسه: « أبى ، أدوناى » ! وجويس . . يريد أن يقول إن مسيح القرن العشرين هو اليهودى : هو باوم ! !

من أجل ذلك عمد جويس ضمن اليهود وروجت له اليهودية ولاقت كتبه التأييد . وليس الإعجاب بيوليسيس من قبل مثقفينا إلا من قبيل ما يسمونه فى الإنجليزية «سنوبيزم» . . أو التقليد من جهل ! !

وبعد . . فقد كانت هذه عجالة أردت بها الخير . . . وكلمة أردت بها وجه الحق . . . والسلام ؟

الحفنى
١٩٧٢/٨/١٢

الجزء الأول

موسى[1] مصرى

إنه لعمل لا يمكن الاستخفاف به ، أن ننكر نسبة إنسان إلى شعب يثنى عليه ويعده أعظم أبنائه ، وخاصة إذا كان المتوفر على هذا العمل أحد أبناء هذا الشعب[2] . وعلى كل فلن أدع لأى

---

(١) موسى هو النبى موسى عليه السلام ، تقول التوراة اليهودية أنه وجد فى نحو القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح ، وتجمع كتب الدين اليهودية على أن اسم أبيه هو عمران واسم أمه يوشبيد ، وتقول الأسطورة أن ميلاده جاء فى وقت اضطهاد فرعون لأبناء اليهود بسبب النذير الذى حمله الكهنة إليه من أن نهايته ستجىء على يد أحد هؤلاء الأبناء ، ومن ثم تضعه أمه فى سلة من بوص وتلقيه فى النيل حيث تستحم إبنة فرعون التى تشفق عليه وتتبناه وتسميه موسى (الحفنى) .

(٢) يشير فرويد مؤلف الكتاب إلى نفسه كيهودى ، والواقع أن فرويد له أن يتحدث عن موسى ويرى فيه ما يراه ، ولنا أيضاً أن نرى فى موسى عليه السلام رأيا مخالفاً ، فكلانا له دينه ومعتقده ، ورأى فرويد هنا يهمنا لأنه رأى المثقفين =

اعتبار أن يؤثر علىّ فأنحّى الحقيقة جانباً ، إيثاراً لمصلحة قومية

= اليهود فى اليهودية وأصولها الفكرية ، ولسوف نرى أن موسى لا يهم فرويد بوصفه نبياً بقدر ما يهمه كداعية قومية ، فهو يرى فى موسى مثلما يرى الإيطاليون فى ما تزينى مثلا وغيره من دعاة القومية فى البلاد المختلفة .

وفرويد هو الذى أقام التحليل النفسى ، وجاء ميلاده من أبوين يهوديين يسكنان فريبرج بمورافيا فى ٦ مايو سنة ١٨٦٥ م وعاش من سن أربع سنوات إلى سن ٨٢ فى فينا ، وكان شديد الغرام بالفلسفة والتاريخ وهو طالب ، وأحب دارون وترجم إلى الألمانية أحد أجزاء المجلد الضخم الذى حوى كتابات المفكر الاقتصادى الاجتماعى الانجليزى الأشهر « جون ستيوارت ميل » . وأعجب بالكيمياء ولكنه لم يبرز فيها فتحول عنها إلى الفسيولوجيا والتشريح ، ولم يثره الجانب العلاجى للطب وفضل عليه جانبه العلمى النظرى ، واشتغل لعدد من السنين فى معمل الدكتور « فون بروك » ثم التحق بالمصحات النفسية وتتلمذ على « مينرت » أستاذ تشريح المخ ، وقرر الزواج ولم تسعفه ظروفه المالية على ذلك فترك البحث العلمى ومارس طب الأعصاب ، وقرأ أن أحد الفرنسيين ويدعى « جان شاركوه » (يهودى أيضاً) يقوم ببحوث رائعة على مرض الهستيريا ، فارتحل إلى باريس ، ولكنه لم يتأثر بشاركوه بقدر ما تأثر بجوزيف بروير Breuer الطبيب النمسوى الذى قص عليه تجربة مثيرة له فى علاج أعراض الهستيريا بالتنويم المغنطيسى حيث يتذكر المريض أسباب مرضه أثناء تنويمه ، ونشر فرويد وبروبر بحوثهما معاً سنة ١٨٩٥ وأطلقا على الكتاب « دراسات فى الهستيريا Studien uber Hysterie وكان هذا الكتاب هو نقطة البداية لما أسمى فيما بعد بعلم التحليل النفسى .

وطور فرويد العلاج بالتنويم فجعله علاجا يشترط صحو المريض التام ووعيه الكامل مستخدما « منهج التداعى الحر » وساعده ذلك على عزل ودراسة ظاهرة المقاومة التى يقاوم بها المريض فضح تجاربه المكبوتة ، وظاهرة تحول عواطف المريض إلى الطبيب نفسه ، وظل هذان العنصران منذ ذلك الوقت فكرتين مركزيتين تدور حولها مناهج العلاج بالتحليل النفسى ، ويعد التحول من العلاج =

مدعاة . وبالإضافة إلى ذلك فإن توضيح الحقائق المجردة للمشكلة قد يعمق بصيرتنا داخل الموقف الذى تتعلق به هذه الحقائق .

وينتمى الإنسان موسى ، محرر الشعب اليهودى ، والذى أعطاه دينه وشرائعه ، إلى عصر موغل فى البعد ، مما يجعلنا نتساءل أول

= بالتنويم إلى العلاج بالتداعى الحر تاريخاً حقيقياً للتحليل النفسى وبدأ فرويد منذ سنة ١٨٩٧ يجرى تجاربه على نفسه ويدرس عملياته العقلية اللاشعورية . وهذا المنهج الذى طبقه لا يمكن أن يمارسه أى إنسان ، بل هو منهج قاصر فى الواقع على قلة قليلة جداً ، ويسمى منهج التحليل الذاتى ، وهو المنهج الذى تطور فيما بعد ، وصار يقضى بأن يخضع كل محلل نفسى للتحليل من قبل محلل نفسى مجرب . وتترابط فى أعمال فرويد الجوانب الكلينيكية والنظرية والفنية ، وأدى ذلك إلى تقدم جذرى فى فهم العصاب والحصار والانحراف والعقل الطبيعى كذلك . وتتلخص كشوف فرويد فى هذه النقاط (١) الأثر الدينامى للعمليات اللاشعورية على الشعور والحركة . (٢) الدور المركزى للصراع العقلى فى علم الأمراض ، وكذلك فى التطور الطبيعى — وكان التعمق فى الوسائل الميكانيكية المختلفة التى يلجأ إليها الفرد والتى يستبعد عن طريقها الميول الغريزية من الشعور والحركة (كما فى الكبت) ، أو التى يعدل بها هذه الميول (كما فى التسامى) ، جزءاً من هذا الدور . (٣) جوانب بناء الشخصية . (٤) القوة العلية خلف الدوافع الغريزية (الجنس والعدوان) . (٥) وأخص هذه النقاط وجود وأهمية الجنسية الطفلية .

وأول كتاب كلاسيكى أسهم فى علم نفس الشخصيات السوية هو كتابه فى « تفسير الأحلام » سنة ١٩٠٠ ، وهو يعتبره أعظم كتبه قاطبة ، والجدير بالذكر أنه ترجم إلى العربية وتوفر على ترجمته دكتور فاضل هو الدكتور صفوان (دار المعارف) . ونفاه فرويد بدراسات فى شتى الميادين وفى الأدب والديانات ، ويعتبر هذا الكتاب الذى نقدمه هنا آخر كتبه فى تطبيق منهج التحليل =

ما نتساءل : هل هذه الشخصية شخصية تاريخية أم أنها شخصية أسطورية ؟ وإذا كان موسى قد عاش ، فقد كان الزمن الذى احتواه هو القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . وليس لدينا ما يتحدث عن موسى إلا ما ورد عنه فى التوراة وتراث اليهود المكتوب . ورغم أن القرار الذى يحسم هذه المسألة سينقضه اليقين التاريخى النهائى ، إلا أن الغالبية العظمى من المؤرخين قد أعلنوا

= النفسى . وتتسم أعمال فرويد بالجرأة الفريدة ، فهو قد طرق ميادين لم يدخلها أحد من قبله ، وظلت ذاكرته وقدرته الإبداعية كما هى ، حتى مرض السرطان الخبيث الذى اخترمه وهو فى السابعة والستين مما اضطره إلى استئصال زوره . ونلاحظ أنه كتب « موسى والتوحيد » وعمره ثمانون سنة ، واستخدم فى هذا الكتاب أستاذيته الكاملة فى منهج التحليل النفسى وثقافته الغزيرة بالأساطير لدى الشعوب ومعرفته العميقة بالتاريخ القديم .

ولقد ووجهت كشوف فرويد وخاصة فى الجنسية لدى الأطفال منذ أول لحظة . . . نة الشديدة وسوء الفهم والسخرية وسوء الاستخدام ، ولم تدهش تلك المعارضة فرويد لأنه عرك من العلاج بالتحليل النفسى مبدأ المقاومة . وكان الاعتراف بالتحليل النفسى بطيئا ، ورغم أن فرويد كان يحمل لقب أستاذ، إلا أن جامعة فينا لم تمنحه أبدا هذا اللقب ، ولم تنتشر أفكاره إلا فى السنوات الأخيرة من حياته ، وبتأثير انتقالها إلى الولايات المتحدة ، وفى سنة ١٩٣٠ منح جائزة جوته ؛ وانتخب سنة ١٩٣٦ عضواً بالجمعية الملكية .

واشتغل فرويد لمدة عشر سنوات وحده فى ميدان التحليل النفسى ، وفى نحو سنة ١٩٠٦ انضم إليه عدد من زملائه الذين قرروا الاجتماع سنة ١٩٠٨ فى أول مؤتمر للتحليل النفسى ، وبعدها بعامين تأسست الجمعية الدولية =

رأيهم بما يفيد أن موسى قد عاش فعلاً ، وأن الخروج من مصر الذى قاده قد وقع فعلا . وظل الاعتقاد السائد عن حق ، أن التاريخ الأخير لشعب إسرائيل لا يمكن فهمه إذا لم نصادق على أن موسى والخروج (من مصر) واقعتان تاريخيتان .

والعلم اليوم صار أكثر حذراً ، ولكنه يعامل التراث بتسامح أكثر مما كان فى الأيام المبكرة للبحث العلمى .

= للتحليل النفسى . وتزوج فرويد من اليهودية مارتا بيرنايز سنة ١٨٨٦ وأنجب ستة أطفال كان أصغرهم الطبيبة المشهورة « أنا فرويد » التى عرفت ببحوثها المستفيضة فى علم نفس الأطفال . وفى سنة ١٩٣٨ بعد قيام النازية فى ألمانيا وضمها للنمسا هرب فرويد إلى لندن خوفا من الاضطهاد ، ومات هناك فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بالسرطان . ولعل أعظم الكتب التى تناولت فرويد هو كتاب أرنست جونز "The Life and Work of Siogmund Freud" (فى ثلاث مجلدات سنة ١٩٥٣ — سنة ١٩٥٥) .

ولكن ما هو التحليل النفسى الذى يتردد هنا كثيراً فى هذا الكتاب ، والذى يدور حول كشوفه ؟

قلنا إن الطبيب النمسوى جوزيف بروير (١٨٤٢ — ١٩٢٥) اكتشف طريقة البحث عن أسباب الهستيريا خلال تنويم المريض مغنطيسيا . وكان ذلك قبل أن ينشر « شاركوه » « وبيير جانيه » الفرنسيان بحوثهما فى أصول الأعراض الهستيرية ، واستفاد فرويد من كل تلك البحوث وغير منهج التنويم بمنهج التداعى الحر وأطلق على العلم الجديد اسم « التحليل النفسى » ، وصار للاسم الجديد على مر الوقت معنيان : (١) أنه منهج خاص لعلاج الاضطرابات العصبية . (٢) أنه علم العمليات العقلية اللاشعورية ، أو هو « علم نفس الأعماق » ، =

وأول ما يلفت النظر فى شخص موسى هو اسمه . وهو يكتب فى العبرية موشيه «Mosche» . ولنا أن نتساءل من أين أتى الاسم ؟ وماذا يعنى ؟ وكما هو معروف أن قصة الاسم كما ترد فى الفصل الثانى من سفر الخروج تجيب على السؤال . ونعلم من القصة أن الأميرة المصرية التى أنقذت الطفل من ماء النيل أعطته اسمه : « فلأنى التقطته من الماء » يصير اسمه « موشيه » بمعنى لقيط الماء . وهذا هو التفسير اللغوى (للاسم) . لكن الواضح أن هذا التفسير غير مناسب . ويقول أحد الكتاب فى مجلة " Judisches Lexikon " founded by Herlitz and kirschner (By IV, Berlin : Judischer Verlag, 1930) .

= وثبت نجاح التحليل النفسى فى بعض الأمراض النفسية مثل الهستيريا والمخاوف والحصار، ويستلزم تطبيق المنهج درجة عالية من الخيال ، والعلاقة بين المحلل والمريض من أعقد العلاقات الإنسانية، وتتوقف نتائج العلاج على إحلال الأفعال العقلية الشعورية محل اللاشعورية ، ولكن خلال ذلك تعترض العملية مقاومات داخلية هائلة تتم فى عقل المريض . ويرى التحليل النفسى الحياة العقلية من ثلاثة جوانب : الدينامى والاقتصادى والطبوغرافى . ويستمد التحليل النفسى من الجانب الدينامى كل العمليات العقلية ، ويرجع أصولها إلى الغرائز التى تتكون من مجموعتين طبقاً لمنهج التحليل النفسى : الغرائز التى تسمى « غرائز الأنا » ، وتهدف إلى الحفاظ على الذات ، و « غرائز الموضوع » التى تعنى بالعالم الخارجى . وبتحليل هذين النوعين من الغرائز نجد أنهما يخفيان بدورهما غرائز أعمق هما : (١) غريزة الأيروس أو الحب . (٢) غريزة الساناتوس أو التدمير التى تؤدى إلى تحلل كل حى . وفى التحليل النفسى تسمى قوة الأيروس باسم الليبدو (الطاقة الشهوية) . =

« أن تفسير التوراة للاسم « هو الذى التقط من الماء » تفسير شعبي لغوى ، ولكن صيغة اسم الفاعل من الاسم (واسم موشيه لا يعنى على الأكثر إلا « الذى يلتقط ») لا تتفق مع هذا التفسير. ويمكن تأييد هذا الرأى بحجتين أخريين : الأولى بأنه من السخف أن ننسب إلى أميرة مصرية معرفة اللغة العبرية ، والثانية بأنه فى الغالب أن الماء الذى انتشل منه الطفل لم يكن هو ماء النيل.

= ويفترض التحليل النفسى من وجهة النظر الاقتصادية ، أن الغرائز لها كميات محدودة من الطاقة . وأن الجهاز العقلى من وظيفته منع استنزاف الطاقة والتقليل ما أمكن من التهيجات التى تستنزفها . وينظم هذه العملية بشكل أوتوماتيكى مبدأ يسمى « مبدأ اللذة — الألم » . والألم يحدث بزيادة التهيج وخفض اللذة . ومع الاستمرار فى الحياة فإن الفرد يطرأ عليه تطور ويتعدل مبدأ اللذة بفعل العالم الخارجى ويأخذ مكانه ما يسمى « مبدأ الواقع » ، حيث يتعلم الجهاز العقلى بفعل الاحتكاك بالعالم الخارجى أن يؤجل اشباع لذته . وأن يسمح أحياناً ولفترة بمشاعر الألم .

ومن الناحية الطبوغرافية ينظر التحليل النفسى إلى الجهاز العقلى على أنه جهاز معقد . وأحدث نظريات التحليل ترى أن الجهاز العقلى يتكون من « الهو id » ، وهو مخزن الدوافع الغريزية . والأنا ، وهو القشرة السطحية من الهو التى يصيبها التعديل بفعل العالم الخارجى ، والأنا الأعلى الذى ينمو من الهو ويسيطر على الأنا ويمثل النواهى والزواجر التى من شأنها كبت الغرائز . والعمليات النفسية فى الهو عمليات لاشعورية ، بينما الشعور هو وظيفة القشرة العليا من الأنا التى تختص بادراك العالم الخارجى .

وهنا ينبغى أن ننوه بملحوظتين : (١) أن هذه الأفكار العامة تماماً والافتراضات =

ومن ناحية أخرى ، فقد اقترح كثير من الناس من زمن طويل أن يكون اسم موسى اسماً مشتقاً من اللغة المصرية ، وبدلا من أن أسرد كل أسماء المؤلفين الذين أعربوا عن هذا الرأى ، سأقتبس فقرة من كتاب ظهر حديثاً للمؤرخ بريستيد »

(The Dawn of Concience, New York, Charles Scribner's Sons ; 1934, p. 35) وهو صاحب كتاب « تاريخ مصر «History of Egypt.) ويعد من الكتب التي يرجع إليها . يقول « بريستيد » :

= المسبقة لايقوم عليها التحليل النفسى ، ولكنها نتائج مستحدثة وقابلة للمراجعة . أما التحليل النفسى فينهض على ملاحظة وقائع الحياة العقلية ، ولهذا السبب نفسه فان بنيانه النظرى لا يزال غير كامل وعرضة للتغيير المستمر . (٢) أنه لا حاجة إلى العجب أن يتحول التحليل النفسى الذى كان أصلا محاولة لتفسير الظواهر العقلية المرضية إلى علم نفس للحياة العقلية السوية ، ولعل ما يبرر ذلك اكتشاف أن الأحلام وسقطات اللسان التي يتردد فيها الأسوياء من الناس تتبع نفس الوسائل الميكانيكية التي تتبعها الأعراض العصابية . ويقوم الجانب النظرى للتحليل النفسى على الإقرار بثلاث مسائل : (١) الاعتراف بالكبت . (٢) والاعتراف بأهمية الغرائز الجنسية . (٣) والاعتراف بالتحول .

وهناك قوة فى العقل تمارس عمل الرقيب وتستبعد وتكبت كل الرغبات التى بتحقيقها يحدث الألم ، وعندما يحاول المحلل النفسى رفعها إلى السطح وتذكرها من جديد فانه يثير مقاومة ، وهذه الرغبات لاتنجح دائماً عملية كبتها . وتظهر فى شكل محرف وتخرج إلى السطح عن طريق جانبى وتشكل فى هذه الحالة الأعراض العصابية .

ومنذ فرويد و[illegible] كشافه [illegible] ١٩٠٥ [illegible] أسست [illegible]
فى كل عواصم أوروبا وأمريكا وظهرت [illegible] التى [illegible]
هذا الكتاب ومجلة الجورنال الدولى للتحليل النفسى [illegible])

« من المهم الملاحظة أن اسمه موسى هو اسم مصرى ، وهو ليس إلا الكلمة المصرية « موسى Mose » ، والتى تعنى « طفلا » ، وهى اختصار للاسم المكون من شقين مثل « أمون موسى » ، أى « طفل أمون » ، أو « بتاح موسى » ، أى « طفل بتاح » ، وهذه الأشكال بدورها اختصارات للشكل الكامل الذى يعنى أن « أمون قد أنجب طفلا » ، أو أن « بتاح قد أنجب طفلا» . والاسم المختصر « موسى » أى طفل ، صار من وقت مبكر شكلا مريحاً سهلا للاسم المعوّق الكامل ، وليس اسم « موسى » بمعنى « طفل » ، اسما غير شائع فى الآثار المصرية ، ولاشك أن والد موسى أطلق على ابنه اسماً يسبقه ويضاف إليه ، وهو اسم أحد الآلهة المصرية مثل أمون أو بتاح . ولكن هذا الاسم الإلهى سقط تدريجياً مع الاستعمال ، حتى اقتصر اسم الولد على اسم « موسى » « Mose » . (أضيف الحرف الأخير S إلى الاسم فصار Moses عند ترجمة الاسم إلى اليونانية فى العهد القديم ، ولكن الحرف غير موجود فى الترجمة العبرية حيث تكتبه Mosheh (أى موشيه) .

وأنا أخذت هذه الفقرة حرفيا من كتاب بريستيد ، ومستعد تماما للإسهام فى تحمل مسئولية ما أوردته من تفاصيل ، ويدهشنى مع ذلك أن « بريستيد » وهو يسرد أسماء لها صلة ببعضها البعض قد مرّ مروراً فى قائمة أسماء الملوك المصريين على الأسماء التى تتشابه فى

مدلولاتها الدينية مثل «أح ـ موسى» (أحمس)، و «توت ـ موسى» (تحتمس)، و «رع ـ موسى» (رمسيس).

وكان المتوقع أن يستنتج واحد من المؤلفين الكثيرين الذين تبينوا أن اسم موسى هو اسم مصرى، أن من يحمل اسما مصريا كان مصريا هو نفسه، أو أن يقول على الأقل باحتمال ذلك. ونحن لا نحس فى العصر الحديث بأى ارتباك عندما نستخلص استنتاجا كهذا، مع أن الإنسان فى هذه الأيام يحمل اسمين وليس اسما واحدا، ومع أن تغيير الاسم أو اكتسابه فى ظروف جديدة شىء لا يمكن استبعاده.

وهذه الإحالة من الاسم إلى المنصر تكون أكثر رجحانا فيما يتعلق بالعصور المبكرة والبدائية، وهى فعلا قاطعة فى ذلك. ومع ذلك، وفى أغلب ظنى، فإنه لا يوجد مؤرخ واحد قد خلص إلى هذه النتيجة فيما يتعلق بحالة موسى، ولا حتى واحداً من هؤلاء، مثل بريستيد، الذين لهم الاستعداد على افتراض أن موسى «كان عالما بكل حكمة المصريين»[1].

ويمكن أن نخمن الأسباب التى منعتهم من التوصيل إلى هذا الاستنتاج، فلربما كانت للكتاب المقدس عندهم رهبة عظيمة،

---

(١) The Dawn of Conscience, P. 334

ولربما استعظموا أن يتخيلوا أن الإنسان موسى يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى أنه عبرانى . وعلى أى حال فإن ما حدث كان كالآتى : أن الإقرار بأن اسم موسى هو اسم مصرى لم يكن عاملا فى الحكم على أصل الإنسان موسى ، وأن أحداً لم يستنتج شيئاً أكثر من ذلك من هذا الإقرار . فإن كان السؤال عن قومية هذا الإنسان العظيم شيئاً له أهميته ، فإن من الواجب أن نرحب بأية مادة جديدة يمكن أن تفيد فى الإجابة عليه .

وهذا ما يحاوله بحثى الصغير ، وما يسهم به فى تطبيق التحليل النفسى فى هذا المجال ، ومن ثم فإن النتائج التى سأتوصل إليها هى نتائج تهم فقط أقلية من القراء الذين لهم دراية بالمنطق التحليلى ، ولديهم الاستعداد لتذوق نتائج هذا التحليل . وإنى لآمل أن يكون لهذا البحث عندهم بعض المعنى .

ويتناول موضوع كتاب أوتو رانك Otto Rank الذى وضعه سنة ١٩٠٩ ، وقت أن كان ما يزال تحت تأثير تعاليمى ، والمعنون « Der Mythus Von der geburt des helden » ، والذى نشره بوحى منى[1] ، واقعة « أن كل الشعوب المتحضرة الكبرى تقريبا قد نسجت

---

(١) Schriften zur angewandten seelenkunde. " Vienna : F. Deutick Heft 5.

ليس فى ذهنى التقليل من قيمة ما أسهم به رانك فى هذا الكتاب من أفكار تمت إليه وحده . (فرويد) .

فى وقت مبكر أساطير تدور حول ، وتعظم بالشعر ، أبطالها وملوكها وأمراءها ومؤسسى دياناتها وأسرها المالكة وأمبراطورياتها ومدنها الأسطورية — وبالاختصار أبطالها القوميين ، وخصت تاريخ ميلادهم وسنواتهم المبكرة بسمات خيالية ، وإن التشابه الذى يثير الدهشة ، بل والتماثل الحرفى لهذه القصص ، حتى لو كانت قصصاً لشعوب مختلفة ينعدم الارتباط بينها كلية ، وأحياناً ما تكون متباعدة جداً عن بعضها البعض جغرافياً ، أمر معروف جداً ، وأدهش الكثير من الباحثين ». وكما قال « رانك » ، وتتبعاً لخطوط منهج « جالتون » أستطيع أن أقول أن هناك أسطورة تجمع فى نفسها أهم خصائص كل الأساطير ، فهى أسطورة تتوسط كل الأساطير ، أو « أسطورة متوسطة » مؤداها :

« أن البطل هو ابن والدين لهما مكانة من أعلى المكانات ، وأنه كثيراً ما يكون ابن ملك »

« أن إنجابه اعترضته العوائق مثل الزهد أو العقم المؤقت ، أو أن والديه كانا يجتمعان سراً بسبب وجود موانع ، أو غير ذلك من العوائق الخارجية . وخلال حمل أمه فيه أو قبل ذلك يحذر أحد المتنبئين الأب أو يتلقى الأب تحذيره من حلم مؤداه أن ميلاد الطفل ستكون فيه خطورة على سلامة الأب » .

« ومن ثم فإن الأب (أو من يمثله) يأمر بقتل الطفل المولود حديثاً أو يتعرض لخطر خارجى ، وفى أغلب الحالات يوضع الطفل فى سلة ويسلم أمره للأمواج » .

« وحينئذ تنقذ الحيوانات الطفل ، أو ينقذه الناس الفقراء ، كالرعاة ، ويرضع الطفل من أنثى أحد الحيوانات أو ترضعه امرأة ذات نشأة متواضعة » .

« وعندما يبلغ الطفل يكتشف اسم والديه اللذين يمتان إلى النبلاء ، وذلك بعد أن يخوض مخاطر كثيرة وغريبة ، ويحقق الانتقام من أبيه ، ثم يعترف به شعبه فيحقق لنفسه الشهرة والعظمة » .

وتمد أسطورة سارجون الأجادى Sargon of Agade أبعد شخصية تاريخية تنطبق عليها أوصاف هذه الأسطورة المتوسطة . وترجع أسطورة مؤسس بابل إلى نحو سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد . ومن وجهة النظر التى تهمنا هنا قد يفيد أن ننقل الرواية كما يسوقها هو نفسه .

يقول سارجون :

« إننى سارجون الملك القوى ، ملك أجاد . كانت أمى رقيقاً ، أبى لم أعرفه ، بينما كان شقيق والدى يسكن فى الجبال . وفى المدينة التى نشأت فيها فى أزوبيرانى Azopirani — وتقع على شواطئ

الفرات ـــ حملت فىّ امى الرقيق . حملتنى سراً . ووضعتنى فى سلة من البردى ، واغلقت فوهة السلة بالقار ، وأدلتنى إلى الماء . ولم يغرقنى النهر ، ولـكن حملنى أبى « أكى Akki » السقاء الذى كان يسحب الماء ، وربانى كابنه . وجعلنى « أكى » ، ساحب الماء ، بستانيه . وعنـدما كنت بستانياً وقعت عشتار[1] فى حبى وصرت ملـكا ، وحكمت كذلك مدة خمس وأربعين سنة » .

وأشهر الأسماء المعروفة فى السلسلة التى بدأت بسارجون الأجادى ، هى أسماء موسى وقورش[2] ورومولوس[3] . ولـكن رانك جعل

---

(١) عشتار Astarte : إلهة سامية كان الفينيقيون يعبدونها ، وكانت صيدا مركزها . وتذكر التوراة أن الملك سليمان بنى لها هيكلا فى القدس ، وتدل الآثار والنقوش الموجودة بكثرة فى فلسطين على أن ديانتها كانت منتشرة بوصفها إلهة الخصب والتكاثر ، كما تدل صورها على أنها مصرية الأصل ، وذلك لأن الصور تقدمها حاملة فى يديها زهرة لوتس ، وقد زينت رأسها ضفيرتان طويلتان . وعبدت عشتار فى قبرص وصقلية وسردينيا وقرطاجنه ، وتـكاد تـكون الإلهة المصرية ايزيس والإلهة هاتور ، ثم ظهرت فى اليونان ولدى الرومان فى شكل أفروديتى وأرتميس وديانا وجونو . وكان الفينيقيون يقدمون لها الذبائح ، ولها آثار رائعة فى دير القلعة بلبنان . (الحفنى) .

(٢) قورش : هو قورش الأكبر مؤسس الإمبراطورية الفارسيه (نحو سنه ٥٥٨ إلى ٥٢٨ ق.م) ، وكان قد خلع أستياج ملك ميديا وألحق الهزيمة بكريسوس ملك ليديا ، واستولى على بابل ، وصار سيد كل آسيا الشرقية ، واستمرت الإمبراطورية التى أسسها لمدة قرنين من الزمان ، وقتل وهو يحارب وخلفه ابنه قمبيز الثانى . (الحفنى) .

(٣) رومولوس : المؤسس الأسطورى لروما ، والذى تستمد منه اسمها ، وأول ملك يتبوأ عرشها . ويقول الأسطورة أنه حكمها من سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧١٥ ق.م ==

إلى جوار هؤلاء عدداً آخر من الأبطال جمع أسماءهم من عالم الأسطورة أو الشعر ، وتنطبق عليهم القصة فى كليتها أو فى أهم أجزائها ، مثل أوديب [1] . وكارنا وباريس [2] وتيليفوس [3] وبيرسيوس [4]

= وكان يعشق القتال ويكره الأرستوقراطية ، وفى إحدى المرات قام بجولة تفتيشية على جنوده ، وهبت عاصفة هوجاء ، واختفى رومولوس وسطها ، ولم يظهر بعد ذلك . (الحفنى) .

(١) أوديب Oedipe : ولد لايوس ملك طيبة وجوكاستا ، وكان العراف قد حذر لايوس أن ابنه سيقتله ، ومن ثم أمر بأن يترك ابنه بعد ولادته ، على جبل سيترون . ولكن الرعاة يعثرون عليه ، ويأخذونه إلى بلاط ملك كورنثه الذى يربيه ، وعندما يكبر يذهب ليستعلم عن مستقبله من العراف الذى يقول له أنه سيقتل أباه ، وحيث أنه يعرف أن أباه هو ملك كورنثه ، فهو يهرب ، ويعثر فى طريقه على لايوس. أبيه الحقيقى.. ويتعاركان لأمر ما، ويقتله ، ويتولى كريون أمر طيبة بعد مقتل لايوس ، ولكن أبا الهول يحاصر طيبة ويقتل كل من يسير إليها أو يخرج منها . ويعد كريون أى إنسان ينقذ طيبة من شر أبى الهول أن يتولى عرشها ويتزوج ملكتها جوكاستا . . ويقتل أوديب أبا الهول ويتولى عرش طيبة ويتزوج من أمه جوكاستا . وعندما يعلم الحقيقة من بعد يفقأ عينيه بنفسه ويترك طيبة ، تقوده ابنته أنتيجون (الحفنى) .

(٢) باريس Paris أو الكسندر : هو الابن الثانى لبريام وهيكوبا ، وهو الذى اختطف هيلين المشهورة وتسبب فى حرب طروادة ، وتقول الأسطورة أنه اختير ليقول من الأجمل من الإلهات الثلاثة هيرا أو أثينا أو أفروديت ، فاختار أفروديت ، وبذلك استجلب حقد هيرا وأثينا على مدينة طروادة . (الحفنى) .

(٣) تيليفوس Telephos : أحد ملوك الإغريق ، جرحه أخيل بحربته ، ولكنه شفى بعمل لزقة من صدأ نفس الحربة . (الحفنى) .

(٤) بيرسيوس Perseus : بطل إغريقى ابن زيوس وديانا ، تطع رأس ميدوزا وتزوج أندروميدا ، وأصبح ملك تيرنثيا ، وأسس ميسينا . (الحفنى) .

وهيراقل[1] وجيلجاميش[2] وأمفيون[3] وزيتوس[4] وآخرين .

ونحن نعرف مصدر ومغزى أمثال هذه الأساطير من كتاب « رانك » ، ولن أشير إلا إلى النتائج التى خلص إليها ببضع ملاحظات : أن البطل إنسان يقف وقفة رجولية ضد أبيه ، ثم ينتصر عليه فى النهاية . والأسطورة موضع البحث تتابع هذا النضال إلى فجر حيـاة البطل ، بأن تجعل ميلاده شيئاً لم يكن الأب يريده ، ولـكنه ينقذ رغم نويا أبيه الشريرة تجاهه ، وتعريضه فى السلة هو رمز واضح يمثل عملية الميلاد ، فالسلة هى الرحم ، والنهر هو ماء الولادة . وفى عدد لا يحصى من الأحـلام تمثل العلاقة بين الطفل وأبويه بعملية جر الماء أو بالإنقاذ من الغرق فى الماء ، وعندما تلصق

---

(١) هيراقل Heracles : نصف إله إغريقى ، ابن زيوس وألـكيمين ، ويشبه هيراقل اللاتينى ، وكانت الإلهة هيرا قد غضبت منه ، فأرسلت إليه فى مهده حيتين لتقتلاه وتلتهمانه ، ولـكنه ، وهو طفل ، خنقهما بين ذراعيـه ، وكبر وصار ذا قوة خارقة . (الحفنى) .

(٢) جيلجاميش Gilgamesh : ملك فارسى عظيم ، وبطل ملحمة شهيرة من ملاحم الشرق القديمة . (الحفنى) .

(٣) أمفيون Amphion : ابن زيوس وأنتيوب . وهو شاعر وموسيقى . بنى حوائط طيبة ، وكانت الأحجار تأتى من تلقاء نفسها لتقيم الحوائط بفعل سحر صوت الناى الذى كان يعزف عليه . (الحفنى) .

(٤) زيتوس Zethos : ملك أسطورى من ملوك طيبة الإغريقية ، وهو ابن زيوس وأنتيوب ، وهو مشهور بمساعدته لأمفيون أخيـه على الانتقام من ديرسيه وبناء مدينة طيبة . (الحفنى) .

مخيلة شعب من الشعوب هـذه الأسطورة بشخصية مشهورة ، فإنما لتشير إلى أن الشعب قد اعترف به بطلا ، وإلى أن حياته قد تطابقت مع الصورة النمطية للبطل . والمصدر الباطنى للأسطورة هو ما يسمى « الرواية الأسرية » ، التى تدور حول استجابة الطفل ، فى علاقته الداخلية بوالديه ، وعلى الأخص بوالده ، للتحول ، حيث يسيطر الاحترام والتفخيم المبالغ فيه على الطفل فى سنواته الأولى ، ومن ثم يظهر الآباء دائماً فى الأحلام والقصص فى دور الملوك والملكات ، ولكن بعد ذلك ، وتحت تأثير التنافس وواقع الفشل ، يبدأ التحرر من سيطرة الوالدين ، ويبدأ الاتجاه إلى نقد الأب ، وعلى ذلك تكون الأسرتان فى الأسطورة ، النبيلة والمتواضعة ، هما صورتان للوالدين نفسيهما كما يبدوان للطفل فى مراحل الحياة المتتابعة .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما نسوقه من ملحوظات يفسر بشكل تام التشابه فى أساطير ميلاد الأبطال والتكرار الكثير لهذه الصورة . ولكن الشىء المثير أن أسطورة ميلاد موسى وطريقة عرضها ، تقفان بشكل منفرد ، حتى لتعارض الأسطورة الأساطير الأخرى المشابهة فى نقطة جوهرية واحدة .

ولنبدأ بالأسرتين اللتين تلقى الأسطورة بمصير الطفل بينهما ، ونحن نعرف أن التفسير التحليلى يصنع منهما أسرة واحدة ، وأن

التفريق بينهما مسألة دقيقة . والأسرة الأولى التى يولد فيها الطفل ، طبقاً للأسطورة النمطية ، أسرة نبيلة ، وغالباً ما تكون أسرة ملكية ، والأسرة الثانية التى ينشأ فيها الطفل أسرة متواضعة ، من الأسر الدنيا ، تتوافق فى ظروفها مع الظروف التى يحيل إليها التفسير. ولم يحدث أن شذ هذا التفريق إلا فى قصة الملك « أوديب » ، فالرضيع « أوديب » تلفظه أسرته الملكية لتنشئه أسرة ملكية أخرى . وليس من قبيل الصدفة أن توجد فى هذا المثل الوحيد فى الأسطورة نفسها ومضة من التشابه بين الأسرتين. فالتعارض الاجتماعى بين الأسرتين — ويقصد به كما نعرف ، أن تبرز الطبيعة البطولية لرجل عظيم — يعطى لأسطورتنا وظيفة ثانية ، حيث تحفل خصوصاً بالشخصيات التاريخية ، ومن ثم تمد بطلنا بأسرة نبيلة ينشأ بها وتدفعه إلى مكانة اجتماعية أعلى . وهكذا نجد أن «سيروس» مجرد قائد فاتح غريب عن الميديين ، ولكن الأسطورة تجعله حفيد ملكهم . ونفس الشيء يحدث فى أسطورة « رومولوس » ، فلو كان رجلا كهذا قد عاش ، فلابد أن يكون مغامراً مجهولا وغير معروف النسب ، ولكن الأسطورة تجعله سليل ووريث بيت « البالونجا » الملكى .

والأمر يختلف فى حالة موسى ، فالأسرة الأولى التى ولدته ، وهى أسرة عادة ما تكون فى الأسطورة أسرة مميزة ، هى هنا أسرة

متواضعة جداً من اليهود اللاويين[١] ، أما الأسرة الثانية التى ينشأ فيها الطفل البطل ، وهى أسرة ، كقاعدة عامة ، متواضعة ، يحل محلها هنا البيت الملكى المصرى ، فالأميرة تنشئه كابنها . وهذا الاختلاف عن النمط التقليدى للأسطورة بدا لكثير من الباحثين كشىء غريب ، لدرجة أن إدوارد ميير وآخرين غيره ، قالوا بأن الشكل الأصلى للأسطورة كان مختلفاً ، ففرعون حلم حلماً[٢] تلقى فيه التحذير بأن ابن ابنته سيكون خطراً عليه وعلى مملكته ، ولذلك كان من نتائجه أن الطفل أسلم إلى مياه النيل بعد ميلاده مباشرة ، ولكن الشعب اليهودى ينقذه ويربيه كابن من أبنائه . وبتعبير رانك فإن « الدوافع القوية »[٣] قد غيرت الأسطورة وجعلتها على

---

(١) اليهود اللاويون هم سلالة ليفى بن النبى يعقوب (إسرائيل) من زوجته الأولى « ليا » ، واحترفوا خدمة الهيكل ، بينما احترف أولاد هارون الكهانة فى الديانة العبرية ، وليس عامة اللاويين أكثر من خدم ، ومحظور عليهم الاقتراب من المذبح أو ممارسة أى من طقوس الكهانة . وتقول التوراة أن موسى وهارون من اللاويين . (الحفنى) .

(٢) ذكرته أيضاً رواية فلافيوس يوسيفوس ، وهو مؤرخ يهودى ولد فى أورشليم (٣٧ — ١٠٠ م) ، وشاهد خراب أورشليم على يد تيتوس ، وبسرعة انضم إلى الفريق المنتصر ، وعمل فى خدمة تيتوس ضد أهله من اليهود ، وكافأه تيتوس لخيانته فأعطاه مرتباً ثابتاً والجنسية الرومانية ، وتفرغ لكتابة التاريخ من وجهة نظر روما ، ولم يذكر المسيح فى كتبه إلا مرتين ، وقال عنه : « من يدعى المسيح » . ومن كتبه «تاريخ الحرب اليهودية» ، و « آثار اليهود» . (الحفنى) .

(٣) ص ٨٠ من كتاب رانك . (فرويد) .

الشكل الذى نعرفه بها اليوم .

ومع ذلك فإن المزيد من التفكير يقول لنا أنه لا يمكن أن توجد أسطورة أصلية لموسى ، أسطورة لا تختلف عن أساطير الميلاد الأخرى ، لأن الأسطورة هى إما من أصل مصرى ، أو من أصل يهودى ، وقد نستبعد الفرض الأول ، فليس عند المصريين من الأسباب ما يجعلهم يعظمون موسى ، وهو ليس بطلا عندهم ، ومن ثم فلابد أن تكون الأسطورة قد نشأت بين الشعب اليهودى ، أى أنها أسطورة ترتبط فى شكلها الأصلى بشخص زعيم الشعب اليهودى ، ولكنها لا تناسب إطلاقاً هذا الفرض ، فما هى جدوى أسطورة تجعل بطل شعب من الشعوب رجلا أجنبياً ؟

وأسطورة موسى ، كما نعرفها اليوم ، تتسكع للأسف وراء دوافعها السرية ، فلو أن موسى لم يكن من أصل ملكى ، لما كان من الممكن أن تخلق أسطورتنا منه بطلا ، ولو بقى كما هو يهوديا ، فالأسطورة لم تفعل شيئاً لترفع من مكانته ، ولا يبقى من كل الأسطورة إلا سمة صغيرة واحدة تظل لها فاعلية : التأكيد على أن الرضيع قد عاش برغم القوى الخارجية القوية التى كان من المفروض أن تحدث العكس . وتتكرر هذه السمة فى التاريخ المبكر ليسوع ، حيث يقوم الملك هيرود بدور فرعون . ولذلك فيحق لنا أن نفترض

أن الذى قام بتعديل الأسطورة ، فى وقت لاحق وبطريقة جافة ، رأى أن من المناسب أن يزود بطله موسى بسمات معينة ، هى السمات التقليدية للبطل ، ولكنها لا تناسب موسى بحكم الظروف الخاصة .

وبهذه النتيجة غير المرضية وغير المؤكدة كذلك ، يبلغ بحثنا نهايته دون أن يسهم أى إسهام فى الإجابة على السؤال الذى يتساءل ما إذا كان موسى مصريا ، ثم أليست هناك طريقة أخرى وربما كانت أكثر نجاحا فى دراسة الأسطورة نفسها .

ولنعد إلى الأسرتين اللتين فى الأسطورة ، وكما نعرف فإنهما متطابقتان بمقياس التفسير التحليلى ، ولكنهما مختلفتان بالمقياس الأسطورى ، فهما أسرتان إحداهما نبيلة والأخرى متواضعة . ولكن هنالك مقياساً ثالثاً يطبق فى حالة الشخصية التاريخية التى ترتبط بها أسطورة ، وهو مقياس الواقع ، فإحدى الأسرتين هى أسرته فى الواقع ، وهى الأسرة التى ولد ونشأ فيها الرجل العظيم . والأسرة الأخرى أسرة غير الواقع . إنها أسرة اخترعتها الأسطورة لتحقق بها أهدافها . وكقاعدة فإن الأسرة الواقعية تتوافق مع الأسرة المتواضعة ، والأسرة النبيلة مع الأسرة المخترعة ، ولكن فى حالة موسى يبدو هنالك شىء مختلف . وهنا تلقى وجهة النظر الجديدة بعض الضوء ، فالأسرة الأولى التى يتعرض فيها الرضيع للخطر هى

بكل مقاييس المقابلة الأسرة المخترعة ، والأسرة الثانية التى تدبنى البطل والتى ينشأ فيها هى أسرته الواقعية . فإذا كانت لنا الشجاعة بحيث نقبل هذا الاستنتاج لحقيقة عامة تخضع لها كذلك أسطورة موسى ، فإننا سنرى طريقنا واضحاً . إن موسى مصرى[1] ، ومن المحتمل أن يكون من أصل نبيل ، وتجعله الأسطورة يهوديا ، وهذه هى النتيجة التى نخلص إليها ! وتعريضه للماء كان فى محله ، فلكى تتحقق النتيجة الجديدة فإن النية يجب أن تتغير ، ولكن بلا عنف ، وهكذا تصبح وسيلة التخلص من الطفل وسيلة لتخليصه .

واختلاف أسطورة موسى عن كل الأساطير الأخرى من نوعها يمكن أن ترجعه إلى سمة خاصة فى قصة حياة موسى . فبينما يرق الطفل فى كل الحالات الأخرى فوق البدايات المتواضعة أثناء تقدمه فى الحياة ، فإن الحياة البطولية للإنسان مو[illegible] هبوطه من رفعته إلى مستوى أطفال شعب إسرائيل .

---

(١) يقول ا . ميير E. Meyer فى كتابه » Die Mosessagen und die Lewiten « فى Sitzungsberichte der königlich preussischen Akademie der Wissen schaften (Berlin 1905)
إن اسم موسى من المحتمل أن يكون هو اسم بنحاس Pinchas فى أسرة كهنة سيلو Silo . . . هو بلا شك اسم مصرى . ومع ذلك فان هذا لا يثبت أن هذه الأسرة كانت من أصل مصرى ، ولكنه يثبت أنها كانت لها علاقات بمصر (ص ٦٥١) ، ولنا أن نتساءل ما هو نوع هذه العلاقات التى يمكن أن نتخيلها . (فرويد) .

ولقد قمت بهذا البحث الصغير على أمل أن أفوز منه بحجة ثانية جديدة مدللا بها على ما أسوقه من فكرة أن موسى كان مصريا . ولقد رأينا أن الحجة الأولى التي تناولت اسمه لم تكن حجة حاسمة . وعلينا أن نستعد المناقشة الجديدة ، تحليل أسطورة التعريض ، دون أن تحقق شيئاً بعد ، ومن المحتمل أن تكون المعارضة التي توجه إلينا هي أن ظروف نشأة وتحول الأساطير هي ظروف غامضة لا تسمح بالتوصل إلى نتيجة كالتي توصلنا إليها آنفا . وأن كل الجهود لاستخلاص نواة الحقيقة التاريخية لابد أن تبوء بالفشل بالنظر إلى عدم الترابط وللمتناقضات التي تحيط بالشخص البطولي موسى وللعلامات التي لا تخطىء والتي تدل على وجود تشويه مقصود تراكم خلال قرون كثيرة ، وأنا نفسي لا أشارك هذا الاتجاه السلبي ، ولكني لست في موقف لأدحضه .

وإذا لم يكن هناك يقين خلاف هذا اليقين يمكن أن نتوصل إليه ، فلماذا عرضت هذا البحث على جمهور أكبر ؟ وإني لآسف أنه حتى تبريري ليس له إلا أن يقصر نفسه على مجرد التلميحات . ومع ذلك فإنه إذا كانت الحجتان اللتان سقناهما قد شدتنا إليهما ، حتى لنحاول أن ننظر بجد إلى النتيجة المستخلصة ، أو التي مؤداها أن موسى كان عظيما من عظماء المصريين ، فإن آفاقا رحبة ومهمة

جداً ستنفتح أمامنا إذ ذاك ، ويمكن أن نفهم إذن ، بمعاونة بعض الفروض المعينة ، الدوافع التى وجهت موسى فى مهمته غير العادية . ويرتبط بذلك بشكل وثيق أن نفهم الدافع المحتمل لسمات عديدة ولخواص التشريع والدين اللذين أعطاهما موسى للشعب اليهودى . إن هذا الدافع المحتمل يستثير أفكاراً تتعلق بأصل الديانة التوحيدية عموما ، ولكن مثل هذه الاعتبارات الهامة لا يمكن أن تقوم على احتمالات نفسية فقط ، وحتى إذا وافقنا عليها باعتبار أنها احتمالات تاريخية ، وأن موسى كان شخصية مصرية ، فإننا سنكون بحاجة إلى حسم ما لا يقل عن نقطة أخرى ، حتى نحمى الإمكانيات الأخرى الكثيرة التى تلوح ، نحميها من أن يوجه إليها النقد بأنها من نتاج الخيال ، وأنها تبعد كثيرا عن الواقع . وربما كان يكفى أن نسوق برهاناً موضوعياً يثبت وقوع الفترة التى جرت فيها حياة موسى ، والتى وقع خلالها الخروج من مصر ، ولكن ذلك ليس متيسرا ، ومن ثم فمن الأوفق أن نحجم عن استخلاص أية نتائج تستتبع الأخذ بما قلنا به من أن موسى كان مصريا .

●

الجزء الثانى

إذا كان موسى مصرياً . . .

حاولت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن أدعم بحجة جديدة فكرة أن الإنسان موسى ، محرر الشعب اليهودى ومانحه الشريعة الموسوية ، لم يكن يهوديا بل مصريا . وقد لوحظ من زمن بعيد أن اسمه « موسى » مشتق من اللغة المصرية ، ولو أنه شىء لم يستسغ . ولقد أضفت إلى هـذه الواقعة فكرة أخرى وهى أن أسطورة تعريضه للماء استلزمت أن نقول إن موسى كان مصرياً ، ولكن الشعب اليهودى كان فى حاجة إلى أن يجعل منه يهوديا . وفى نهاية بحثى قلت إن من الممكن استخلاص نتائج هامة وبعيدة المدى من فكرة أن موسى كان مصرياً ، ولكنى لم أكن مستعداً لإعلان هذه النتائج على الملأ ، ما دامت أنها نتائج تقوم على ممكنات نفسية ينقصها الدليل الموضوعى . وكلما زادت أهمية هـذه الممكنات

المستخلصة ، كلما زاد حذرى إزاء إعلانها على العالم وتعريضها للنقد دون أن يكون لها أساس مضمون — مثل النصب الذى يكون من الحديد ولكن أقدامه تكون من الطين . ولا يوجد ممكن مهما كان إغراؤه ، يمكن أن يحمينا من إتيان الخطأ ، حتى ولو كانت كل أجزاء المشكلة تبدو متلائمة مع بعضها كقطع لغز الصور المقطوعة . وينبغى أن نتذكر أن الممكن ليس من الضرورى أن يكون هو الحقيقة ، وأن الحقيقة ليس من الضرورى أن تكون دائماً ممكنة . وأخيراً فليس من المستحب أن أدرج ضمن المدرسيين والتالموديين[1] الذين يرضيهم أن يمارسوا براعتهم دون أن يعبأوا بمدى ماقد تكون عليه نتائجهم من بعد عن الحقيقة.

ورغم هذه الشكوك التى ترين على كاهلى اليوم ، كما كانت فى الماضى ، فإنه من بين صراعات دوافعى خرج قرارى بأن أتبع بحثى الأول بهذا البحث الجديد ، ولكنى أؤكد مرة أخرى أنه ليس إلا جزءاً من كل ، وأنه ليس أهم جزء .

* * *

---

(١) التالموديون : نسبة إلى التالمود ، وهو الكتاب الثانى فى الأهمية بالنسبة لليهود بعد التوراة . والتالمود كلمة عبرية معناها التعليم ، فهو كتاب التعليم ، وهو يضم التراث الذى وضعه أحبار اليهود الذين يسمون الربانيين تفسيراً لشريعة النبى موسى . وينقسم إلى قسمين : الميشنا ، وهو التشريع الذى يستقى من التراث الشفاعى ، والجمارا ، وهو التعليق على الميشنا . (المعرب) .

فإذا كان موسى ، إذاً ، مصرياً[١] فإن أول نتيجة نستخلصها ن هذه الفكرة هى بمثابة لغز جديد يصعب الإجابة عليه . وعندما يستعد شعب إحدى القبائل[٢] للقيام بعمل عظيم ، فمن المتوقع أن يجعل أحد أفراد هذا الشعب من نفسه زعيما له ، أو أن يختار لهذا الدور . ولكن ليس من السهل أن نتكهن بما يمكن أن يغرى مصرياً مرموقا ربما كان أميراً أو كاهناً أو موظفاً كبيراً ، إلى أن يضع نفسه على رأس حشد من المهاجرين منحطى الثقافة ، وإلى أن يترك بلاده بصحبتهم ، وإن ما هو معروف عن المصريين من احتقار للأغراب[٣] يجعل مثل هذا العمل من جانب موسى شيئاً

---

(١) يرد فرويد نفسه على ادعائه بمصرية موسى فيقدم هذا السؤال الذى يتضمن إجابة سلبية ، وهو نفسه لا يستطيع أن يجيب على السؤال ، ولكن تضمينه للسؤال هو تكتيك متبع ومألوف لاثارة الشك وبلبلة القراء ، والايهام باجابة معينة لا يستطيع القارىء غير الوعى إزائها إلا التسليم ببعض ما يثيره فرويد إن لم يكن كله . وهناك احتمال لا يورده فرويد نفسه وهو أن يكون اسم موسى اسما مألوفا بين يهود مصر وبين المصريين أنفسهم كما نعرف ذلك من تاريخ اليهود فى كل البلاد التى عاشوا فيها ، أو أن يكون الاسم نفسه اسما سامياً شائعاً مشتركا فى مصر القديمة وبين اليهود . (الحفنى) .

(٢) لا نعنى من ذلك أى تلميح لعدد اليهود الذين خرجوا من مصر . (فرويد) .

(٣) ملاحظة غريبة من فرويد لا أدرى من أين أتى بها ، إذ أن مصر كانت على مر التاريخ معبرا وملجأ لكل شعوب البحر الأبيض .

غير ممكن ، وإنى لأميل حقيقة إلى الظن بأن هذا هو السبب الذى حدا بالمؤرخين ، وحتى بهؤلاء الذين أقروا بأن اسم موسى هو اسم مصرى ، ونسبوا إليه كل حكمة مصر ، إلى عدم الترحيب بفكرة أن موسى كان مصريا ، حتى ولو كانت الفكرة ممكنة بشكل واضح .

وتتبع هذه العقبة الأولى عقبة ثانية ، فنحن لا ينبغى أن ننسى أن موسى لم يكن فقط الزعيم السياسى لليهود المقيمين فى مصر ، وإنما كان مشرعهم ومعلمهم والذى أجبرهم على اتخاذ ديانة جديدة مازالت تسمى حتى اليوم بالديانة الموسوية ، نسبة إليه . ولكن هل من الممكن لشخص بمفرده أن يخلق ديانة جديدة بهذه السهولة ؟ وعندما يرغب شخص ما فى التأثير على ديانة شخص آخر ، أليس أكثر الأشياء طبيعية هو دفعه إلى تغيير ديانته واتخاذ ديانة الشخص الأول ؟ وكان الشعب اليهودى فى مصر يؤمن يقينا بدين معين ، وإذا كان موسى الذى أعطاهم ديانة جديدة ، مصريا ، فالنتيجة المستخلصة من ذلك إذاً لا يمكن أن تكون مرفوضة ، وهى أن الديانة الجديدة كانت ديانة مصرية .

ويواجه هذا الاحتمال عقبة ، وهى التعارض الحاد بين الديانة اليهودية المنسوبة إلى موسى وبين الديانة المصرية ، فالديانة اليهودية ديانة متزمتة متباهية ، ولا يوجد بها إله واحد مفرد تام القدرة ،

لا يدانيه أحد ، ولا يقوى على اجتلاء وجهه أحد ، ولا ينبغى لأحد أن يخط له صورة ، أو حتى أن يلفظ اسمه . أما فى الديانة المصرية ، فهناك من ناحية أخرى عدد مذهل من المعبودات تختلف أهمياتها وأصالتها ، وبعضها تشخيص للقوى الطبيعية الكبرى ، مثل السماء والأرض والشمس والقمر ، ثم نجد تجريداً مثل « ماعت[1] Maat » (ويقصد به العدالة والحقيقة) ، أو مخلوقاً شائهاً مثل القزم Bes . ومعظم هذه الآلهة آلهه محلية من أيام تقسيم الأرض بين الأقاليم المختلفة ، ولها أشكال الحيوانات ، كما لو كانت لم تتغلب بعد على أصولها من أيام عبادة الحيوانات الطوطمية[2] . وليست هناك

---

(١) يقول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (كتاب أخناتون ص ٣٨) أن المصريين يقصدون من تعبير ماعت « الحقيقة ، الصدق ، العدالة » ، وأن أخناتون كان يقول إنه يعيش على الماعت ، ولذلك جعل اسمه « العائش على الماعت » ، وسمى عاصمته الجديدة « مقر الماعت . . . » . (الحفنى) .

(٢) الطوطمية : الطوطم هو حيوان أو نبات أو أى شىء آخر مقدس لدى جماعة أو قبيلة أو جنس من الشعوب البدائية ويرمز للجماعة ويحميها ، وتعامله بطرق مختلفة طبقاً للعادة والتراث ، وتدور حوله طقوسها الدينية وشرائعها ؛ والطوطمية هى نظام القانون والعادات التى تدور حول الطوطم بوصفها قوانين وشرائع اجتماعية ودينية . والطوطمية أقدم ديانة عرفها تاريخ الانسانية ، وهى ليست عبادة الحيوان أو النبات ، ولكن الطوطمية تختلف عن عبادة الحيوانات فى أن القبيلة التى تدين بالطوطمية ترى أنها والطوطم من أصل واحد ، فمثلا القبيلة التى تجعل طوطمها المقدس هو الذئب ، ترى أنها والذئب تنحدر من أب واحد . ومن أكبر الفلاسفة الذين كتبوا فى الطوطمية العلامة الفرنسى دوركايم . =

اختلافات فيما بينها ، وتتميز عن بعضها البعض تميزاً طفيفاً بالوظائف الخاصة التى تنسب إلى بعضها . وتحكى الأناشيد التى تتلى فى مدح هذه الآلهة نفس الشيء عن كل منها ، وتماثل بين بعضها البعض دون أن يثير ذلك أية شكوك حولها ، وبطريقة تبلبلنا بشكل يائس وتترابط أسماء المعبودات ببعضها البعض لدرجة أن بعضها يدنو فى الدرجة ، فيكنى باسم آخر ، ولذلك نجد أنه فى أحسن فترة من حكم « الامبراطورية الجديدة »[1] سمى الإله الأكبر لمدينـــة طيبة

= والاسم نفسه Totemism شائع فى اللغات الأوروبية كلها ، ونجده فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأول من استخدمه مؤلف إنجليزى مغمور إسمه جون لونج Long ، وكان يعمل ترجمانا فى شركة الهند ، فى كتاب له بعنوان « أسفار ورحلات لترجمان هنـدى Voyages and Travels of an Indian interpreter » سنة ١٧٩١ ، وبعده توالت الكتب التى تستخدم هذا التعبير الذى أخذه فرويد ووضع عنه وعن مدلولاته كتابه « الطوطم والمحرم Totem and Taboo . والجدير بالذكر أن أستاذنا الدكتور على عبد الواحد وافى يرى أن الترجمة الشائعة فى العربية للكلمة تكتب « الطوطمية » ، مع أنها يجب أن تكتب « التوتمية » ، كما يترجم الأستاذ الدكتور « التابو » بأنه نظام المحارم ، أو نظام اللامساس الذى يحظر فيه على الأفراد قربان أو لمس أشياء معينة إلا فى ظروف خاصة وبطقوس مرسومة ، وبعـد اتخاذ كثير من وسائل الحيطة والحذر : (كتاب الطوطمية ، سلسلة إقرأ — دار المعارف العدد ١٩٤) . (الحفنى) .

(١) الإمبراطورية الجديدة بدأها الملك تحوتمس الثالث حوالى سنة ١٤٧٠ ق.م. بعدد من الحملات فى آسيا ، وكان هدف هذه الحملات موجهاً إلى مدينة قادش على نهر العاصى ، وهى التى كانت تتزعم المعارضة على المصريين ، وذلك أن المصريين بعد طرد الهكسوس من مصر وجدوا أن من واجبهم مطاردتهم مطاردة يغليها حب الانتقام الذى ظل ينمو فى نفوسهم لأكثر من قرن من الزمان. وكان لقادش =

« أمون — رع »[1] ، وهذا اسم تركيبي ، الجزء الأول منه يعنى إله المدينة الذى له رأس كبش ، أما اسم رع فهو إله الشمس الذى عبدته مدينة أون وله رأس صقر . وكانت التعاويذ والصيغ السحرية والطقوس تسيطر على صلوات هذه الآلهة ، مثلما كانت تسيطر على الحياة اليومية للمصريين .

= معنى خاص لديهم ، لأن على مقربة منها كان تل سفينة نوح وفيه معسكر الهكسوس ، وعلى بعد ٣٥ ميلا فقط كانت توجد مدينة قطنا وفيها أكبر تلك المعسكرات جميعاً . ولا يعنى ذلك أن مصر لم يكن لها إمبراطوريات من قبل ، فقبل تحوتمس كان لمصر إمبراطورية إفريقية امتدت إلى النوبة والسودان والحبشة أو بلاد كوش . (عن جون ولسون — الحضارة المصرية) . (الحفنى) .

(١) أمون رع أحد آلهة مصر القديمة ، وسيد الكرنك ، ومنافس أتون ، وظهر كإله فى مصر بظهور الأسرة الطيبية ، ومعنى أمون « المختفى » ، وهو إله الهواء الذى لا يرى والذى يستطيع أن يكون فى كل مكان ، ولهذا سهل على هذا الاله أن يكون إلهاً للامبراطورية الجديدة ، وكان إلهاً عالميا عندما ذهب إلى الخارج عند اتساع الامبراطورية ، وتشامخ معبده إلى جانب قصر فرعون ، وتنافس كبير كهنته على السلطة مع قائد الجيش والوزير ، وفى الختام مع الملك نفسه . وأمون رع هو إله من آلهة الشمس ، ومصر عرفت عبادة الشمس منذ الأزل ، وكان للشمس مظاهر متعددة كان كل منها إلهاً مستقلا ، وأصبح رع إله هليوبوليس هو إله الشمس الذى غطى على ما عداه ، فاستحوذ على السلطة فى هليوبوليس من أتوم الاله الخالق الذى وجد نفسه مع الاله الجديد وصار يسمى « رع أتوم » ، وظل كل من أمون ورع إلهاً مستقلا ، أحدهما للهواء والآخر للشمس ، بالرغم من أنهما اتحدا تحت اسم أمون رع الذى أصبح الاله الأعظم للأمومة ، ولم ينافسه على السلطة إلا ديانة أتون التوحيدية ، وليلاحظ أن أمون كان إلهاً توحيدياً كذلك ، ففى البردية المعروفة باسم بردية بولاق ١٧ التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرة ١٨ يذكر اسم أمون بأنه « الواحد المنفرد الذى لا كفء له » . (الحفنى) .

وربما كانت بعض هـذه الاختلافات نابعة من التعارض فى المبدأ بين الوحدانية الصارمة وبين تعدد الآلهة تعدداً لا نهائياً ، وبعضها الآخر نتائج لاختلاف فى المستوى الفكرى ، فديانة تقرب جداً من الديانات البدائية ، وديانة أخرى تحلق فى سوامق التجريد المتسامى . وربما كانت هاتان السمتان هما اللتان تعطيان أحياناً الإحساس بأن التعارض بين الديانة الموسوية وبين الديانة المصرية هو تعارض مقصود واستُهدف إبرازه ؛ مثلاً عندما تنهى الموسوية عن إتيان أى نوع من أعمال السحر والشعوذة ، فذلك لأن الديانة المصرية تبيحها ويروج فيها السحر رواجاً عظيما ؛ أو عندما يقابل الرغبة النهمة لدى المصرى فى أن يصنع تماثيل لآلهته من الصلصال والحجر والمعادن ، هذه الرغبة التى تدين لها متاحفنا كثيراً ، يقابلها فى الموسوية النهى نهيا مطلقا عن تصوير أى كائن حى أو متخيل .

ويتبقى اختلاف آخر بين الديانتين لم تمسسه التفسيرات التى تقدمت ، فلم يوجد شعب آخر من الشعوب القديمة ، كالشعب المصرى ، بذل كثيراً لينكر الموت ، وأعد أيما إعداد لحياة بعد الحياة ، واتفاقا مع هذا فإن إله الموت « أوزيريس[1] » ، حاكم هذا العالم الآخر ،

---

(١) أوزيريس : كانت فى مصر القديمة نظريتان دينيتان ، إحداهما عبادة إله الشمس والديانات الأخرى المتفرعة منها ، والثانية عبادة أوزيريس ، وكان هناك =

كان أكثر الآلهة المصرية جميعها شعبية[1] وأصالة لا جدال فيهما .

= نزاع بين النظريتين ، ومن المحتمل أن هذا النزاع بدأ من أقدم العصور وظل مستمراً فيما بعد ، ونرى أثر هذا النزاع فى التصادم بين الديانتين ، بخصوص المتوفى ، فالأولى تختص بعلاقة المتوفى بالشمس التى تغرب لتستريح ثم تشرق فى بهائها صبيحة اليوم التالى ، والثانية هى علاقة المتوفى بالاله أوزيريس وهو إله للموتى لا نعرف حقيقة أصله . وسواء أكان أوزيريس فى الأصل ملكا عاش وحكم بين الناس ، ثم مات وأصبح ملكا للموتى وإلهاً للأرض التى كان الموتى يدفنون فيها ، أو أنه كان إلهاً للنيل ومات ثم ارتد إلى الحياة ، فان ذلك أمر لا يمكننا أن نعرفه على وجه اليقين . ولكن الذى نعرفه تماماً أنه عند بدء الأسرات أصبح هو الإله الذى كان قد مات ثم رد إلى الحياة ليكون الحاكم الميت والحاكم على الأموات . وعلى ذلك أصبح هو الملك المتوفى أوزيريس ، كما أصبح ابنه الذى جلس على العرش الملك « حورس » ، وهو الابن الذى يقوم بما يجب عليه نحو أبيه ، والذى قام بعمل ما يلزم ليظل أبوه حياً فى الحياة الأخرى . وعلى مر الأيام ازداد شأن ديانة أوزيريس وغطت على العقيدة القائلة بأن المتوفى يذهب ضحية الشمس ، (جون ويلسون — الحضارة المصرية) . (الحفنى) .

(١) يرى البعض أن النزاع بين الاله رع وبين الاله أوزيريس هو نزاع اجتماعى اقتصادى بين الطبقات ، فالاله رع هو إله الملك والطبقة المالكة ، والاله أوزيريس هو إله الشعب الفقير ، والنزاع الطبقى فى مصر القديمة يصوره هذا بين إلهى كل جانب . ومع ذلك فان ديانة أوزيريس ظهرت فى الأصل كديانة للملك ، ولكن التطور فى مصر نحو الديموقراطية أكسب ديانة أوزيريس محبة فى نفوس الشعب ، لأنها ضمنت السعادة المستقبلة لأكبر عدد من الشعب ، والانتقال إلى الحياة الأخرى ، ليصبح الناس فى صحبة الاله أوزيريس . أما ديانة رع فلم تكن تقول بالخلود إلا للملك وحده ، فالملك هو الوحيد الذى له الحق فى الخلود فى الحياة =

أما الديانة اليهودية المبكرة فإنها عكس ذلك لم تتحدث عن الخلود إطلاقا ، ولم يذكر فيها فى أى مكان إمكان وجود حياة بعد الموت ، وهو أمر تزيد أهميته لأن التجربة التى تلت ذلك (أى الديانات الأخرى اللاحقة) قد أثبتت أن الاعتقاد فى وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يمكن أن يتوافق جداً مع الديانة التوحيدية .

وكنت آمل أن تبرهن الفكرة التى تقول بأن موسى كان مصريا ، أنها فكرة من شأنها أن تكشف وتنبه من نواح مختلفة كثيرة ، ولكن أول ما استخلصناه من هذه الفكرة — وهو أن الديانة الجديدة التى أعطاها موسى لليهود كانت ديانته هو ، أى الديانة المصرية — قد تعثر فوق الاختلاف ، بل التعارض البارز بين الديانتين .

* * *

تثير واقعة غريبة فى تاريخ الديانة المصرية - وهى واقعة اعترفوا بها وامتدحوها فى وقت متأخر نوعاً ما - وجهة نظر أخرى ما تزال ممكنة ، وهى أن الديانة التى أعطاها موسى إلى الشعب اليهودى

= الأخرى ومصاحبة الاله رع (الشمس) فى غدواته وروحاته . وفى الوقت الذى اتجهت فيه الأوزيريسية إلى الشعب ، نرى الملكية ما تزال تفسرها نفس التفسير ، فتقول أن الملك هو نفسه الوحيد الذى من حقه أن يصبح أوزيريس بعد الموت . (المحقق) .

هى ديانتـه ، ديانة من ديانات المصريين ، ولـكنها ليست ديانة مصرية[1].

ففى الأسرة الثامنة عشرة[2] المجيدة ، عندما صارت مصر لأول مرة دولة عالمية ، ارتقى العرش فرعون شاب نحو سنة ١٣٧٥ ق . م ، أسمى نفسه فى أول الأمر أمنحوتب الرابع مثل أبيه (أمنحوتب

(١) نلاحظ أن فرويد دائم الخلط ، فهو لا يتصور أن تـكون مصدر الديانات كلها هو الله ، مع أن هناك مدرستين إحداهما ترجع الدين لله والرسل وسطاء بينه وبين البشر ، والأخرى وهى مدرسة إلحادية تعد الدين مظهر أفـكر بالوجدان وتفكير الأمم ، ولـكن ينبغى أن نذكر دائماً أن ظاهرة الدين والتدين التى تفصح عن نفسها بهذا التـكرار فى تاريخ البشرية ، هى خير دليل على وجود مصدر خارج الإنسان هو الموحى بالدين ، ومصدر داخل الإنسان هو متلقى الوحى به ، وليس تعاقب الديانات وظهورها بين شعوب شتى إلا لاختلاف عصور التبشير بها ، ثم بحسب الدرجة الحضارية التى بلغها الشعب المبشر بالدين . (الحفنى)

(٢) الأسرة الثامنة عشرة من ١٥٧٠ إلى ١٣٠٥ ق . م . ، وملوكها هم أحمس الأول (أحموسى) من ١٥٧٠ إلى ١٥٤٥ ، وأمنحوتب الأول من ١٥٤٥ إلى ١٥٢٥ ، وتحوتمس الأول (تحوتموسى) من ١٥٢٥ إلى ١٤٩٥ ، وتحوتمس الثانى من ١٤٩٥ إلى ١٤٩٠ ، وتحوتمس الثالث من ١٤٩٠ إلى ١٤٣٦ ، وحتشبسوت من ١٤٨٦ إلى ١٤٦٨ ، ومن ملوكها كذلك ملوك عصر الامبراطورية ، وهم أمنحوتب الثانى ١٤٣٩ — ١٤٠٦ ، وتحوتمس الرابع ١٤٠٦ — ١٣٩٨ ، وأمنحوتب الثالث ١٣٩٨ — ١٣٦١ ، وأمنحوتب الرابع (أخناتون) ١٣٦٩ — ١٣٥٣ ، وسمنخكارع ١٣٥٥ — ١٣٥٢ ، وتوت عنخ أتون (توت عنخ أمون) ١٣٥٢ — ١٣٤٤ ، وآيى ١٣٤٤ — ١٣٤٢ ، وحور محب ١٣٤٢ — ١٣٠٣ .

الثالث)[1]، ولكنه غير اسمه فيما بعد ـ وغير أشياء أخرى كذلك. وآل هذا الملك على نفسه أن يفرض على رعاياه ديانة جديدة تناقض تقاليدهم القديمة وكل ما اعتادوه. وكانت ديانة توحيدية صارمة، وأول محاولة من نوعها فى تاريخ العالم على قدر ما نعلم. وولد بالتبعية مع الإيمان بإله واحد. التسامح الدينى الذى كان غريباً على العالم القديم قبل مجىء هذه الديانة التوحيدية، واستمر بعد مجيئها لزمن طويل. ولكن حكم أمنحوتب الرابع دام لسبع عشرة سنة فقط، وبعد وفاته سنة ١٣٥٨ ق. م مباشرة، زالت الديانة الجديدة وصودرت ذكرى الملك الكافر. ونحن نستمد المعرفة القليلة التى نملكها عنه من آثار عاصمته الجديدة التى بناها ووهبها لإلهه، ومن الكتابات المحفورة على صخور مقابرها. وكل ما يمكن أن نعلمه

---

(١) أمنحوتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع من زوجته الأجنبية ابنة ارتاتاما ملك ميتانى، وكان هو وأبوه من المحاربين الفاتحين، وتزوج أمنحوتب الثالث زوجة مصرية من عامة الشعب وأنجب أمنحوتب الرابع، وتزوج أمنحوتب الرابع من أخته الرشيقة نفرتيتى وأشركه أبوه معه فى الحكم، وأنجب أمنحوتب الرابع ونفرتيتى ست بنات، واعتنق ديانة أتون، واحتفل وهو فى سنه الثلاثين بعيد ميلاده وميلاد ديانة أتون، الأمر الذى يدل على أن هذه الديانة كان عمرها وقتذاك ثلاثين سنة، وغير اسمه بعد وفاة أبيه من أمنحوتب، ويعنى أمون راضى (عن هذا الشخص) إلى اسم أخناتون ومعناه إما «المفيد لأتون» أو «ليسعد أتون»، وقد اختفى أخناتون من مسرح الحكم بطريقة مشبوهة لا نعرف تفاصيلها، وبعد خلاف حاد مع زوجته، وخلفه على الحكم أخوه الأصغر سمنخكارع.

عن هذا الشخص العظيم والفريد حقيقة لجدير بأعظم الأهمية[1] .

إن كل شيء جديد لابد أن تكون له جذور فيما كان من قبل . ويمكن ببعض اليقين تتبع نشأة التوحيد المصرى إلى زمن بعيد بعض الشيء[2] . وفى مدرسة الكهنة فى معبد الشمس فى أون (هليو بوليس) كان الاتجاه لبعض الوقت يطور فكرة إله عالمى ويبرز نواحيه الأخلاقية . وكانت ماعت[3] Maat إلهة الحق والنظام والعدالة ، ابنة إله الشمس رع . وكانت عبادة إله الشمس فى صعود منذ أمنحتب الثالث الذى جاء قبل أمنحتب الرابع وكان والده . ومن المحتمل أنها كانت تعارض عبادة آمون إله طيبة الذى أصبحت ديانته هى الديانة السائدة . واكتشف الملك من جديد أن إله

---

(١) أسماه بريستيد « أول فرد فى التاريخ البشرى » . (فرويد) .

(٢) إن ما أذكره هنا يترسم خطى كتابى بريستيد « تاريخ مصر » (١٩٠٦) و « فجر الضمير » (١٩٣٤) ، والفصول المقابلة من المجلد الثانى من « التاريخ القديم » نشرة كمبردج . (فرويد) .

(٣) ماعت ، أو الدعوة إلى ماعت ، أى الحق ، هى دعوة تختص بها ثورة العمارنة ، وكان أخناتون صاحب الدعوة وإلهه أتون يعيشان على الحق ، وكان شعار الدعوة إلى الثورة هو كلمة ماعت التى يجب أن نترجمها هنا إلى الحقيقة ، بدلا من كلمة العدل أو الحق ، فقد كانت الصراحة فى الحياة العائلية ، واتباع الأسلوب الطبيعى فى الفن وصبغ اللغة بالصبغة العامية كانت كلها تطبيقا للحقيقة . ونعت أخناتون نفسه فى أسمائه الرسمية بأنه « الذى يعيش على الحقيقة » ، كأنما هى الطعام الذى يمده بالحياة ، وأصبح اسم إلهه أتون الرسمى هو « الراضى بالحقيقة » . (الحفنى) .

الشمس كان له اسم قديم هو أتون[1] أو أتوم ، ووجد الملك الشاب في ديانة أتون حركة لم يكن هناك ثمة حاجة لخلقها ، ولكنها كانت موجودة ويمكن أن ينضم إليها .

وكانت الظروف السياسية في مصر نحو ذاك الوقت قد بدأت تفرض لنفسها نفوذاً دائماً على الديانة المصرية . وكانت مصر عن طريق سيف الفاتح العظيم تحتمس الثالث[2] قد صارت دولة عالمية ،

(١) ديانة أتون أو أتوم وتعنى كلمة أتون قرص الشمس ، ولم يكن القرص ذاته إلهاً ، ولكن المصريين آلهوه قبل أخناتون . وكان أمنمحوتب الثالث والملكة تي يركبان سفينة في بحيرة النزهة اسمها «أتون يضيء» ، ويرجع تأليه أتون إلى عصر تحوتمس الرابع . وكان لأتون معبد في طيبة ، وكان الاله أتون على علاقة ودية في أول الأمر بالاله أمون ، ثم بدأ النزاع بين كهنتيهما . وتوجد مفارقة لطيفة بين أمون وأتون ، فمعنى اسم أمون المختبيء الذى لايرى والقوة الشاملة لكل شيء بالرغم من أن اسمه المعروف كان على شكل إنسان ، ويقع محرابه في آخر المعبد وفي أكثر أشكاله ظلمة ، وكان لا يمكن الوصول إليه إلا بعد طقوس محددة . أما أتون فقد كان قرص الشمس ذاته الواضح للعيان الذى لا يمكن حجبه عن أى إنسان . وكانت معابده مفتوحة للسماء حتى يمكن عبادته في صراحة ووضوح . وكل صلة له بالشكل الانسانى انحصرت في أن الأشعة التي تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيدى تقدم العلامة الهيروغليفية للحياة إلى الملك وعائلته . ولا تذكر نصوص العمارنة اسم أى إله آخر سوى الاله أتون ، فالأتونية أول ديانة توحيدية في العالم . (الحفنى)

(٢) تحوتمس الثالث كان صغيراً جداً عندما ولى الحكم بعد أبيه وأمضى السنوات الاحدى والعشرين من حكمه مغموراً ، لأن عمته وزوجة أبيه حتشبسوت كانت امرأة قديرة فاغتصبت الحكم منه ، ولكنه ظهر فجأة ولا أحد يدرى ما إذا كان قد دبر اغتيالها ، وتولى الحكم حوالى أول فبراير سنة ١٤٦٨ ق . م . وبعد ٧٥ يوما فقط جمع الجيش وسار نحو بلاد زاهى (فلسطين — سوريا) =

وأضيفت إلى الأمبراطورية المصرية النوبة فى الجنوب ، وفلسطين وسوريا وجزء من بلاد ما بين النهرين فى الشمال . وانعكست هذه الإمبريالية فى الديانة بحيث صارت ديانة عالمية توحيدية . وما دام نفوذ فرعون قد تجاوز الآن مصر إلى النوبة وسوريا فإن الفكرة الإلهية كان عليها ان تتخلى عن تحـددها القومى ، وكان على إله المصريين الجديد أن يصبح كفرعون ـ السيد الفريد غير المحدود ـ سيد العالم المعروف لدى المصريين . وعلاوة على ذلك ، فإنه كان من الطبيعى ، أنه كما أن الحدود قد اتسعت ، فإن مصر كان يجب أن تتقبـل النفوذ الأجنبى ، وكانت بعض زوجات الملك أميرات أسيويات ، وحتى من المحتمل أن يكون التشجيع على التوحيدية قد ت.ئل من سوريا .

ولم ينكر أمنحوتب تبعيته لديانة الشمس فى آون . وهو يمتدح فى النشيدين الموجهين لآتون ، واللذين حفظا حتى عهدنا من خلال نقوش القبور الصخرية ، واللذين من المحتمل أن يكونا من نظمه يمتدح الشمس بوصفها الإله الخالق والحافظ لكل الأحياء داخـل وخارج مصر ، ويمتدحها بحمية كالتى تتكرر فقط بعد ذلك بقرون

= وهزم ملك قادش وأمير مجدو وأمير الميتانى ، وبنى أسطولا ، وعبر الفرات ، وطارد أمير الميتانى ، وفرض الجزية على بلاد أشور .

كثيرة فى المزامير التى تنشد امتداحاً للاله اليهودى يهوا[1] . ولكنه لم يتوقف عند هذا السبق المدهش للمعرفة العلمية عن أثر ضوء الشمس ، ولاشك أنه ذهب أبعد من ذلك : وأنه عبد الشمس ليس بوصفها موضوعا ماديا ، ولكن كرمز لكائن إلهى تتكشف طاقته فى

---

(١) كتب كثير من المؤرخين مؤكدين الصلة بين الأتونية وبين الديانة اليهودية نتيجة لعناصر كثيرة منها مثلا التشابه القريب فى التفكير والتكوين بين نشيد أخناتون للاله أتون وبين المزمور ١٠٤ من مزامير داود ، وقد اختار بريستيد ثلاث فقرات لتوضيح هذا التشابه الكبير ، وقال بعض الباحثين أن هذه التعبيرات المتشابهة تدل على الاشتقاق وأن واضع المزامير العبرى كان يعرف نشيد الشمس :

نشيد أتون	المزمور ١٠٤
وعندما تغرب فى الأفق الغربى	تجعله ظلمة فيصير ليلا
وتظلم الأرض كالموت . . .	. . . .
ويخرج كل أسد من عرينه	فيه يدب كل حيوان الوعر
وكل ما يزحف ولدغ .	الأشبال تزمجر لتخطف
وعندما يطلع النهار ، وتشرق فى الأفق . . .	تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربص
تسوق الظلام بعيداً	الإنسان يخرج الى عمله ،
يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم	والى شغله فى المساء
جميع من فى الكون يعملون عملهم	ما أعظم أعمالك يا رب ،
ما أكثر أعمالك !	كلها بحكمة صنعت ،
إنها تخفى عن نظر الإنسان	ملآنة الأرض من غناك
أيها الإله الأوحد ، الذى لا مثيل له	
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك	

(الحضارة المصرية ترجمة الدكتور أحمد فخرى)

(الحفنى)

شعاعاتها[1] . ولكننا لا نوفى الملك حقه إذا رأينا فيه أنه مجرد المؤمن بديانة أتون وحاميها ، وهى الديانة التى كانت موجودة قبله . إن أمنحوتب كان أكثر من ذلك ، فهو قد أضاف شيئاً جديداً حول مذهب الإله العالمى إلى ديانة توحيدية : أى أنه أضاف صفة استبعادية ، استبعدت كل الآلهة الأخرى . وتتأكد هذه الصفة فى كلمات كثيرة فى أحد أناشيده : « أنت أيها الإله الواحد ، لا إله إلا أنت[2] » . ولا يجب أن ننسى أنه لامتداح المذهب الجديد لا يكفى معرفة محتواه الإيجابى فقط ، فجانبه السلبى على نفس الأهمية تقريبا : أهمية أن نعرف ما ينبذه .

ومن الخطأ كذلك الافتراض أن الديانة الجديدة ظهرت إلى الحياة مستعدة ومعدة تماماً ، كما ظهرت أثينا من جبهة الإله زيوس .

---

(١) بريستيد « تاريخ مصر » ص ٣٦٠، (ولكن مهما قد يكون من الواضح أن الديانة الجديدة للدولة أصلها من هليوبوليس ، فانها لم تكن مجرد عبادة للشمس ، فكلمة أتون استخدمت فى محل الكلمة القديمة « نوتر Nuter » ، وتعنى الإله ، وواضح أن الإله ليس هو الشمس المادية) . « ومن الواضح أن ما كان الملك يؤلهه هو القوة التى جعلت بها الشمس نفسها محسوسة على الأرض » ، (فجر الضمير ص ٢٧٩) . ويرى إيرمان فى صيغة تمجيد الإله رأياً مشابهاً (ا . إيرمان : عن الديانة المصرية A. Erman Die Aegyptische Religion سنة ١٩٠٥) : « هناك . . كلمات يقصد منها التعبير فى شكل مجرد عن واقعة أن الكوكب نفسه لم يكن محل عبادة ، ولكنه الكائن الذى يظهر ذاته فى الكوكب » . (فرويد) .

(٢) بريستيد : تاريخ مصر ، ص ٣٧٤ . (فرويد) .

ويبدو أن كل شيء يشير بالأحرى إلى أن الديانة الجديدة قد تقوت خلال حكم أمنمحوتب لكى تحقق لنفسها وضوحاً ومتانة وعتواً وتسامياً . وقد يكون هذا التطور قد وقع تحت تأثير المعارضة العنيفة بين كهنة آمون التى رفعت رأسها ضد إصلاحات الملك . وفى السنة السادسة من حكم أمنمحوتب نما هذا العداء لدرجة أن الملك غير اسمه ، وصار الآن اسم الإله آمون الحامى جزءاً منه . وبدلا من أمنمحوتب أسمى نفسه أخناتون[1] . ولم يحذف الملك من اسمه فقط اسم الإله المكروه ، ولكن من كل النقوش ، وحتى من حيثما وجده فى اسم أبيه أمنمحوتب الثالث . وبعد تغيير اسمه مباشرة غادر أخناتون طيبة التى كانت تحت حكم أمون وبنى عاصمة جديدة أسفل النهر ، وأسماها أخيتاتون (أفق أتون) . وتسمى آثارها الآن باسم تل العمارنة[2] .

(١) إنى أكتب اسم أخناتون كما يكتبه بريستيد Ikhnaton ،(ويكتب أحيانا أخيناتون Akhenaton ويعنى الاسم الجديد للملك نفس المعنى تقريبا للاسم السابق : « لقد رضى الله » . قارن بذلك اسم جودفرى Godfrey الانجليزى وجوتولد Ghotthold الألمانى . (فرويد) .

(٢) فى هذا المكان عثر سنة ١٨٨٧ على المراسلات بين الملوك المصريين وأصدقائهم وأتباعهم فى آسيا ، وهى مراسلات ثبتت أهميتها الكبرى لمعرفتنا بالتاريخ . (فرويد) .

وكان اضطهاد الملك موجه أساسا إلى آمون ، ولكن ليس ضده وحده ، ففى كل أنحاء الامبراطورية أغلقت المعابد ومنعت الصلوات وصودرت المتلكات الخاصة بعبادة آمون . والواقع أن حماس الملك قد ذهب إلى أبعد من ذلك ، حتى أنه أمر بالبحث فى النقوش فوق الآثار القديمة حتى يزال اسم الإله كلما جرى استخدامه فى صورة الجمع[1] . فلا عجب والحال هذا أن تثير هذه الأوامر رد فعل تعصبياً انتقامياً بين الكهنة الذين أقصوا وبين الشعب الغاضب ، وهو رد الفعل الذى استطاع أن ينفس عن نفسه بعد وفاة الملك ، فديانة أتون لم تجد لها صدى بين الشعب ، وربما كانت قد تحددت داخل نطاق دائرة صغيرة حول شخص الملك ، ويحيط الغموض بنهاية حياته ، ونحن نعلم عن خلفاء له عددهم قليل وعمرهم قصير من أسرته ، واضطر بسرعة زوج ابنته المسمى توتانخاتون[2] إلى العودة

---

(١) تاريخ مصر : بريستيد ، ص ٣٦٣ . (فرويد) .

(٢) هو توت — عنخ — أتون الابن الأصغر للملك العظيم أمنحوتب الثالث وشقيق الملكة نفرتيتى والملك أخناتون ، ولكنه أخ غير شقيق ، وعندما بدأ الملك أخناتون ينتهج طريقاً تصالح به كهنة أمون تمردت عليه نفرتيتى وسكنت قصراً بعيداً وظلت على مبادىء الثورة وأخذت معها أخاها توت — عنخ — أمون . ولم يقو أخناتون وأخوه سمنخكارع على تيار الثورة المضادة واختفيا من المسرح وتولى الملك توت — عنخ — أتون الشاب الصغير وتزوج من بنت أخيه الثالثة الأميرة عنخس — ان — با — أتون ، وسرعان ما خضع للتيار الرجعى وغير اسمه إلى توت عنخ أمون واسم زوجته إلى عنخس — ان — با — =

إلى طيبة وإحلال اسم الإله أمون محل اسم أتون ، وأعقب ذلك فترة من الفوضى حتى نجح القائد حور محب سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد فى استعادة النظام ، وانطفأت الأسرة الثامنة عشرة المجيدة ، وضاعت فى نفس الوقت فتوحاتها فى النوبة وآسيا . وفى تلك الفترة المحزنة التى أعقبت موت أخناتون عادت ديانات مصر القديمة إلى الظهور ، وكانت ديانة أتون فى نهايتها ، ودمرت وسلبت عاصمة أخناتون ، واحتقرت ذكراه كإنسان خبيث شرير .

ولو لاحظنا الآن بعض السمات السلبية لديانة أتون فإن ذلك يخدم غرضاً لنا معيناً ، ففى المقام الأول نلاحظ أن ديانة أتون تستبعد منها كل أنواع الأساطير والسحر والشعوذة[1]

= أمون وترك العمارنة عائداً إلى طيبة وانتهت الثورة الأخناتونية بالفشل ، ولكن لوثة الالحاد لم تعج من البلاد ، وقضى الملك الجديد ثمانى سنوات فى منتهى البذخ ، ومقبرته مشهورة فى الآثار المصرية بالبذخ المسرف ، وسرعان ما حدث انقلاب وتولى قائد الجيش حور محب الملك فأعلن رسميا أن أفراد عائلة العمارنة ملحدون ، واعتبره كهنة أمون أول ملك شرعى منذ وفاة الملك أمنمحوتب الثالث ، وبذلك ضعفت الثورة تماماً وانتصرت الرجعية ومحت كل أثر لعقيدة أتون وحرمت ذكرى الفراعنة الملحدين أخناتون وسمنخكارع وتوت عنخ أمون وأيى ، وبعد أن تم انتصار الرجعية أعادت سلطان الاله أمون — رع واستمر ذلك أربعة قرون . (فرويد) .

(١) يقول أرثر ويجال (حياة وعصر اخناتون Arthur weigell : the life and timesof Akhnaton سنة ١٩٢٣ ص ١٢١) إن أخناتون لم يعترف بوجود جحيم يجد الانسان نفسه إزاء أهواله مضطراً إلى اللجوء إلى تعاويذ =

ثم هناك الطريقة التى مُثل بها إله الشمس : ليس كالطريقة التى كانت سائدة فى الأزمان المبكرة ، بواسطة هرم صغير وصقر ، ولكن – وهذا شىء يكاد يكون معقولا – بواسطة قرص مستدير تخرج منه شعاعات تنتهى بأيد بشرية . وبرغم كل الحب للفن فى فترة العمارنة ، لم يوجد تمثيل شخصى واحد لإله الشمس أتون ، أو أننا نستطيع أن نقول عن ثقة ، أنه لن يوجد[1] .

وأخيراً فهناك صمت تام حول أوزيريس إله الموت ومملكة الموتى . ولا تعرف الأناشيد ولا النقوش على المقابر أى شىء عما كان ربما أقرب شىء إلى قلب المصرى . ولا يمكن التعبير عن معارضة ديانة أتون للديانة الشعبية بأوضح من ذلك[2] .

* * *

= سحرية لا عدد لها : « إن أخناتون ألقى بكل هذه الصيغ فى النار ، وكنس الجن والأرواح الخبيثة والأرواح الطيبة والمسوخ وانصاف الآلهة وأوزيريس نفسه بكل بلاطة ، وكنسهم ملقيا بهم فى اللهب حتى تحولوا إلى رماد » . (فرويد) .

(١) ويجال ، المرجع السابق ص ١٠٣ « لم يسمح أخناتون بصنع أى صورة محفورة لأتون . وقال الملك إن الإله الجديد لا شكل له ، وظل على هذا الرأى طوال حياته » . (فرويد) .

(٢) إيرمان ، المرجع السابق ص ٩٠ « لم يسمع المزيد عن أوزيريس ومملكة الموتى » . ويقول بريستيد فى « فجر الضمير » (ص ٢٩١) : تجوهل أوزيريس تماما ، ولم يعد يذكر في أى سجل لأخناتون أو على أى من قبور العمارنة » . (فرويد) .

— ٣ —

إنى لأجازف الآن باستخراج النتيجة الآتية : إذا كان موسى مصريا ، وإذا كان قد نقل إلى اليهود ديانته هو نفسه ، إذاً فقد كانت تلك الديانة هى ديانة أخناتون ، ديانة أتون .

لقد قارنت فى الفصول المتقدمة الديانة اليهودية بديانة الشعب المصرى ، ونبهت إلى أنهما مختلفتان عن بعضهما . والآن سنقارن الديانة اليهودية بديانة أتون ، وينبغى أن نتوقع أن نجد أنهما متشابهتان أصلا . ونعرف أن هذه المهمة ليست بالمهمة السهلة . وقد لا نعرف الكثير عن ديانة آتون ، والفضل فى ذلك يرجع إلى الروح الانتقامية لكهنة آمون . ولم نعرف الديانة الموسوية إلا فى شكلها النهائى كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفى ، أى بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة . فإذا كنا سنجد ، رغم هذه المادة غير المبشرة ، بعض الإشارات التى تتوافق مع افتراضنا ، فإن لنا أن نقيمها حقاً تقييما عالياً .

وهناك طريق قصير لإثبات ما افترضناه من أن الديانة الموسوية ليست سوى ديانة آتون ، ولكنى أخشى أن يقال لى أن مثل هذا الطريق متعذر ، فالعقيدة اليهودية ، كما هو معروف جيداً ، تقول : « Schema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod » . فإذا لم

يكن الشبه بين اسم آتون المصرى (أو أتوم) وبين الكلمة العبرية أدوناى Adonai وبين الاسم الإلهى السورى أدونيس[1] Adonis مجرد صدفة ، ولكنه نتيجة وحدة بدائية فى اللغة والمعنى ، فإننا نستطيع أن نترجم الصيغة اليهودية : « اسمع يا إسرائيل ، إن إلهنا آتون (أدوناى) هو الإله الوحيد » . وإنى للأسف غير أهل كلية لأن أجيب على هذا السؤال ، وكان فى مقدورى أن أعثر على أقل القليل من الإجابة عليه فى الكتب المعنية[2] ، ولكن ربما كان من الأوفق لنا ألا نيسر الأمور هكذا . وعلاوة على ذلك سنضطر إلى العودة إلى مشاكل الاسم الإلهى .

ومن السهل أن تتبين نقاط التشابه ، وكذلك نقاط الاختلاف بين الديانتين ، ولكنها لا تنير نا كثيراً ، فكلاهما أشكال لتوحيد مدقق ، وسنميل إلى أن نُرجع إلى هذه السمة الأساسية ماهو متشابه فى كل منهما . ولكن التوحيد اليهودى فى بعض نقاطه لا يقل تزمتاً

---

(١) أدونيس : المعبود الفينيقى فتى بيبلوس الجميل ، جرحه خنزير برى ، ومسخته عشتروت زهرة . (الحفنى) .

(٢) فقرات قليلة فقط فى كتاب ويجال السابق الذكر ص ١٢ ، ١٩ حيث يقول : «وربما كان الإله أتوم الذى وصف ر ع بأنه الشمس الغاربة ، من نفس أصل أتون الذى كان يقدس عموما فى شمالى سوريا ، وربما لذلك كانت إحدى الملكات الأجنبيات ، وكذلك حاشيتها ، قد جُلبت الى هليوبوليس وليس الى طيبة » . (فرويد)

عن التوحيد المصرى ـ مثلا عندما يمنع كل تصوير مرئى للاله . على أن أهم الاختلافات الجوهرية ـ بصرف النظر عن الاختلاف فى اسم الإله ـ هو أن الديانة اليهودية تمسك تماماً عن عبادة الشمس ، التى استمرت الديانة المصرية فى مشايعتها . ولقد أحسسنا عند مقارنة الديانة اليهودية بالديانة الشعبية المصرية ، أنه إلى جانب التعارض فى المبدأ ، فإن هناك فى الاختلاف بين الديانتين عنصراً من التناقض المقصود . ويبدو أن إحساسنا ذاك له ما يبرره عندما نستبدل فى مقارنتنا الديانة اليهودية بديانة آتون التى طورها أخناتون ، كما نعرف ، فى عداء متعمد للديانة الشائعة . وأدهشنا ـ وعن حق ـ أن الديانة اليهودية لم تتحدث عن أى شىء بعد القبر ، ومذهب هذا شأنه هو مذهب ينحو إلى التزام أدق أشكال التوحيد . ويختفى هذا الاندهاش إذا عدنا من الديانة اليهودية إلى ديانة آتون وتصورنا أن هذه السمة قد نقلت من الديانة الأخيرة ، حيث كانت ضرورة من الضروريات بالنسبة لأخناتون فى محاربة الديانة الشائعة ، التى كان إله الموت أوزيريس يلعب فيها ربما دوراً أكبر من أى إله آخر من آلهة العوالم العليا . واتفاق الديانة اليهودية مع ديانة آتون فى هذه النقطة الهامة هو الحجة القوية الأولى المؤيدة لافتراضنا ، وسنرى أنها ليست الحجة الوحيدة .

لم يعط موسى اليهود ديناً جديداً فقط ، إنما من المؤكد كذلك أنه أدخل عادة الختان . ولهذه النقطة أهمية حاسمة فى مشكلتنا ، ولم يحدث أن ناقشها أحد . والواقع أن التوراة ينقض هذه النقطة كثيراً، فهو من ناحية يرجع تاريخ عادة الختان إلى أيام زعماء القبائل ، كعلامة للعهد بين الرب وبين أبراهام ، ومن ناحية أخرى يذكر النص فى فقرة غامضة بشكل خاص أن الرب غضب من موسى لأنه أهمل هـذا العرف المقدس ، واقترح أن يذبحه كعقاب . ولكن زوجة موسى ، وهى من أهل مديان ، أنقذت زوجها من غضب الرب ، بأن أجرت العملية بسرعة . وعلى أى حال فهذه تحريفات لا ينبغى أن تضل سبيلنا ، وسنكتشف دوافعها حالا . ويبقى فى الواقع أن السؤال المتعلق بأصل الختان له إجابة واحدة : أن مصدره مصر . ويقص عليناهيرودوت[1]، أبو التاريخ ، أن عادة الختان كانت تمارس من زمن فى مصر ، وتأيد قوله بفحص المومياوات ، وكذلك بالرسومات على جدران المقابر . ولم يتبع شعب آخر من شعوب شرقى البحر الأبيض ، كما يصل إليه علمنا ، هـذه العادة . ونستطيع

(١) هيرودوت : مؤرخ إغريقى يطلق عليه اسم « أبو التاريخ » ، ولد فى هاليكارناس نحو سنة ٤٨٤ ومات نحو سنة ٤٢٠ ق . م . ، وعرف بأسفاره الكثيرة ، وقص علينا فى كتبه كل الأحداث والأساطير التى من شأنها أن أبرزت العالم القديم الذى كان يختلف عن عالم اليونان، والذى كان يطلق عليه العالم المتبربر، وبحيطه مصر وميديا وفارس ، وهو القائل « مصر هبة النيل » . (الحفنى) .

أن نقول عن يقين أن الساميين[1] والبابليين[2] والسومريين[3] لم يكونوا يختتنون . والتوراة نفسه يقول مثل ذلك فيما يذكره من تواريخ عن سكان كنعان[4] ؛ وهو ما نفترضه فى قصة المغامرة التى وقعت بين ابنة يعقوب وأمير سيشيم[5]. واحتمال أن اليهود فى مصر

---

(١) الساميون : نسبة إلى سام بن نوح ، ويطلق على القبائل البدوية التى كانت تسكن فلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والأردن . واشتهر التعبير فى التاريخ المعاصر نسبة إلى العداء للسامية ، على أن تعبير العداء للسامية كان يقصد به أصلا العداء لليهود . (الحفنى) .

(٢) البابليون : نسبة إلى بابل، وهى مدينة تمت إلى الدنيا القديمة، وما تزال آثارها موجودة فى العراق على نهر الفرات على بعد ١٦٠ كيلو مترا من العاصمة بغداد ، بناها حورابى العظيم مؤسس إمبراطورية بابل . ومن ملوك بابل نبوخذ ناصر الثانى الذى استولى على أورشليم سنة ٥٨٧ ق. م. وأسر اليهود وساقهم أمامه فى أعداد عظيمة إلى بابل .

(٣) السومريون: سكان سومر ، إحدى الامبراطوريات القديمة، فى الشرق الأوسط، وكانت لها حضارة ولغة ، ولكنها درست باستيلاء بابل عليها سنة ٢١٠٥ ق . م .

(٤) الكنعانيون : سكان فلسطين الأصليون، وهم قبائل سامية ظهرت أولا على ساحل الخليج العربى، ثم ارتحلت إلى سوريا وفلسطين ، وهم أعدى أعداء اليهود .

(٥) عندما أستخدم رواية التوراة بمثل هذه الطريقة الاستبدادية والتعسفية وأقيس عليها لأثبت ما أقول كلما تراءى لى ذلك، وأرفض شهادتها دون أية شبهة عندما تتعارض مع نتائجى ، أعرف جيداً أنى أعرض نفسى بهذا إلى النقد العنيف فيما يتعلق بمنهجى ، وإنى أضعف قوة براهينى . ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن أعامل بها مادة قد أتلف الوثوق بها — كما نعرف جيداً — بفعل نفوذ الاتجاهات المشبوهة . ونأمل أن يأتى التبرير فيما بعد عندما نكون قد كشفنا عن تلك الدوافع السرية وليس إلى اليقين فى أية قضية من سبيل ، وعلاوة على ذلك، قد نقول أن كل المؤلفين الآخرين قد فعلوا مثلنا . (فرويد) .

قد اختاروا استخدام الختان فى أى أمر آخر سوى فيما يتعلق بالديانة التى أعطاهم إياها موسى ، أمر يمكن رفضه كشىء لا يذاد عنه . والآن ليكن فى بالنا أن الختان كان يمارسه الشعب فى مصر بوصفه عادة عامة ، ولنوافق للحظة على الافتراض المعتـــاد الذى يقول بأن موسى كان يهوديا يريد أن يحرر بنى جنسه من استعباد سيد أعلى مصرى ، وأن يسير بهم إلى خارج البلد ، ليطوروا لأنفسهم وجوداً مستقلا تملأه الثقة بأنفسهم ـــ وهو مطلب حققه فعلا . فأى مغزى يمكن أن يكون فى أن يفرض عليهم فى نفس الوقت ممارسة عادة ثقيلة حولتهم افتراضاً إلى مصريين ، وكان من شأنها أن تبقى تذكرهم لمصر يقظة فيهم ، بينما ما كان من الممكن أن يكون هدفه إلا شيئاً آخر : وهو أن يحس شعبه بأنه قد صار غريباً على البلد الذى عرف عبوديته ، وأن يتغلب على حنينـه إلى « قدور لحم مصر » ؟ لا مغزى هناك ، ومن ثم فالواقعة التى بدأت منها ، والاقتراح الذى أضفته عليها ، كلاهما متعارض مع الآخر بشدة ، حتى أنى لأجرؤ على أن أخلص إلى النتيجة الآتية : إذا كان موسى قد أعطى اليهود ، ليس فقط ديناً جديداً ، ولـكنه أعطاهم كذلك شرعة الختان ، فموسى ليس يهودياً ، ولـكنه مصرى ، وإذن تكون الديانة الموسوية احتمالا ديانة مصرية : هى ديانة آتون ـــ بسبب معارضتها للديانة الشائعة ـــ والتى تتفق معها الديانة اليهودية فى بعض نقاطها البارزة .

وكما لاحظت سابقاً ، يخلق افتراض أن موسى لم يكن يهودياً بل مصرياً لغزاً جديداً . إن ما فعله - يمكن فهمه بسهولة إذا كان يهوديا - يصبح غير مفهوم من مصرى - لكن إذا وضعنا موسى فى عهد أخناتون وضممناه إلى هذا الفرعون ، لحل اللغز ، ولبرز دافع محتمل يجيب على كل أسئلتنا . فلنفترض أن موسى كان نبيلا مرموقاً ، وربما كان حقاً من أعضاء البيت المالك كما تقول الأسطورة ، ولابد أنه كان على وعى بإمكانياته العظيمة ، وكان طموحاً وجم النشاط ، وربما رأى نفسه فى مستقبل مظلم كزعيم لشعبه وحاكم من حكام الامبراطورية ، وأنه كان من المؤمنين المتبعين للديانة الجديدة ، بحكم صلته الوثيقة بفرعون ، وأنه كان يفهم فهماً كاملا مبادئها الأساسية وجعلها مبادئه . وبموت الملك وما أعقب ذلك من رد فعل ، رأى كل آماله ومشاريعه تدمر . فإذا لم يكن فى وسعه أن يتنكر لمعتقداته العزيزة عليه الأثيرة عنده ، فإن مصر إذن لن يكون لديها ما يمكن أن تمنحه إياه أكثر من ذلك . لقد فقد بلده الأم . وفى ساعة اليأس هذه عثر على حل غير عادى . إن أخناتون الحالم جعل نفسه غريباً عن شعبه ، وترك عالم إمبراطوريته يتهاوى . ووضعت طبيعة موسى الإيجابية خطة لتأسيس إمبراطورية جديدة ، والعثور على شعب جديد يمكن أن يعطيه الديانة التى احتقرتها مصر . وكما نرى

فهى محاولة بطولية أن يناضل ضد قدره ، وأن يعثر فى اتجاهين على ما يعوضه عن الخسائر التى منى بها من خلال كارثة إخناتون . وربما كان فى ذلك الوقت حاكما لإقليم الحدود ذاك (المسمى جوسينا Gosen)[1] الذى — ربما فى « عهد الهكسوس »[2] استقرت به بعض القبائل السامية . وهؤلاء اختارهم ليكونوا شعبه الجديد . وكان ذلك قراراً تاريخياً[3] !

---

(١) فى لغة مصر القديمة « جوشن » وفى التوراة « جاسان » . (الحفنى) .

(٢) الهكسوس ، أو الملوك الرعاة مشتق من كلمتى هيكا وكاس ومعناها الحاكم الأجنبى ، والكلمة مصرية قديمة ، والاسم ورد فى البردية المعروفة باسم بردية تورين ، وهم بدو أسيويون استعمروا منطقة الشرقية من مصر وهدموا المعابد والمدن واستعبدوا الأهالى وحكموا من منف وكونوا الأسرة الخامسة عشرة ، وملكوها سنة . ويدعى المؤرخ اليهودى المخادع يوسيفوس أن الهكسوس هم العبرانيون . ولكن نقوش الملكة حتشبسوت تقول غير ذلك ، وتحكى أن مصر حكمها فى يوم من الأيام أجانب من آسيا لم يكونوا يعبدون رع ، ولكن كانوا يعبدون الإله ست وعاصمتهم أفاديس ، ولكن « كاموس » المصرى ثار عليهم وحرر مصر منهم وطاردهم أحمس حتى فلسطين ، ومن بعدها لم تقم لهم قائمة بعد أن استمروا يحكمون مصر ١٠٨ سنة . (الحفنى) .

(٣) إذا كان موسى موظفا من الموظفين المصريين الكبار فبوسعنا أن نفهم أنه مناسب لدور الزعيم الذى لعبه مع اليهود ؛ وإذا كان كاهنا فإن فكرة إعطاء شعبه ديناً جديداً لابد كانت فكرة قريبة من قلبه ، وفى كلا الحالتين كان موسى سيستمر فى مهنته السابقة ، ولكن أميراً من أصل ملكى يمكن أن يكون الاثنين معا بسهولة : الحاكم والكاهن . وفى تقرير فلافيوس يوسيفوس (الآثار اليهودية) الذى يقبل أسطورة تعريضه للماء ، ولكن يبدو أنه يعرف روايات أخرى خلاف رواية التوراة ، يظهر موسى كقائد مصرى يقود حملة منتصرة فى أثيوبيا . (فرويد) .

وأقام علاقات معهم ووضع نفسه على رأسهم وقاد الخروج «بقوة الذراع» ، ويمكن افتراض أن هذا الخروج قد تم بطريقة مخالفة تماماً لرواية التوراة فى سلام ودون أن يكون هناك من تبعه فيه . وجعلت سلطة موسى الخروج ممكنا ، ولم تكن هناك قوة مركزية يمكن أن تمنعه .

وطبقاً لنظريتنا فإن الخروج من مصر قد تم بين سنتى ١٣٥٨ و ١٣٥٠ ق.م ، أى بعد موت أخناتون ، وقبل استعادة حارمحب[(١)] لسلطة الدولة . ولا يمكن أن يكون هدف الترحال إلا أرض

---

(١) ومعنى ذلك تاريخاً مبكراً بنحو قرن عما يفترضه معظم المؤرخين ، الذين يفترضون أن ذلك حدث فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد مارنبتاح ، أو ربما أقل من ذلك بقليل ، لأنه يبدو أن السجلات الرسمية تشتمل على فترة حكم حارمحب التى تخللت اعتلاء ملكين للعرش . (فرويد) .

حارمحب : أو حورمحب ، قائد جيش مصر فى الفترة التى أعقبت الثورة على الملك أخناتون ، وقد أعاد الأمن إلى ربوع البلاد بقوة السلاح ، وبه تتأكد قوة الرجعية وانتصارها على الجديد الذى أتى به أخناتون ، وقد أعلن فى بداية حكمه أن أعضاء أسرة العمارنة ملحدون ، واعتبر أول ملك شرعى بعد موت أمنحوتب الثالث ، وهو الملك الذى محا كل أثر لعقيدة آتون ، وحرم ذكرى الفراعنة الملحدين . (الحفنى) .

مرنبتاح : هو الابن الثالث عشر لرمسيس الثانى ، وتغنى شعراء مصر أيامه بانتصاراته ، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل فى نص مصرى فى اللوح الذى اكتشف وأطلق عليه اسمه والذى يشيد بتخريب جيوش الملك لإسرائيل . (الحفنى) .

كنعان ، فبعد انهيار سيادة مصر اجتاحت البلد جحافل الأراميين ، يُخضعون وينهبون ، وهكذا أوضحوا من أين يمكن لشعب أوتى القدرة أن يستولى على أراض جديدة . ونعرف هؤلاء المحاربين من الرسائل التى وجدت سنة ١٨٨٧ فى أرشيف أطلال مدينة العمارنة ، ويطلق عليهم فيها اسم عابيرو Habiru ، وانتقل الاسم ـ ولا أحد يعرف كيف ـ إلى الغزاة اليهود ، العبرانيين (Hebrews) الذين وفدوا فيما بعد ، ولم يكن من الممكن أن يشار إليهم فى رسائل العمارنة .

وكانت القبائل ، التى كانت أقرب القبائل تقريباً إلى اليهود النازحين عن مصر وقتها ، تعيش كذلك جنوبى فلسطين — فى أرض كنعان .

والدافع الذى تصورناه كسبب للخروج عموماً ينسحب كذلك على الأخذ بالختان . ونعرف بأية طريقة تنفعل الكائنات الإنسانية ـ كل من الشعوب والأفراد ـ تجاه هذه العادة القديمة ، التى لم تعد مفهومة تقريباً . ومن لا يمارسونها ينظرون إليها كعادة غريبة جداً ويجدونها منفرة نوعا ؛ ولكن أولئك الذين اختاروا الختان يفخرون به إنهم يحسون بأنفسهم أسمى من غيرهم ، وأنهم شُرفوا ، وينظرون باحتقار إلى الآخرين ، الذين يبدون لهم غير مطهرين . وحتى اليوم

يسب المسلم المسيحي ويناديه : « كلب لم يختن »[1] . والمصدق أن موسى ، وكان هو نفسه مختونا بوصفه مصريا ، كان له نفس الرأى . وكان على اليهود الذين برفقتهم غادر موسى بلده ، أن يكونوا بديلا أحسن من المصريين الذين خلفهم وراءه وما كان يجب أن يكونوا أدنى منهم في أى ظرف من الظروف ، وكان يتمنى أن يجعل منهم « أمة مقدسة » — فهكذا قيل تحديداً في نص التوراة — وكعلامة لتقيدهم بالنذر فقد أخذهم بالعادة التى جعلتهم على الأقل مساوين للمصريين . وأكثر من ذلك أنه كان يحب لهم لو أن مثل هذه العادة عزلتهم ومنعتهم من الاختلاط بالشعوب الأجنبية الأخرى التى سيلتقون بها خلال ترحالهم ، مثلما ابتعد المصريون عن كل الأجانب[2] .

---

(١) هذا ما يقوله فرويد ، ولكننا فى بلاد إسلامية ، ولم يحدث أن قلنا ذلك لأحد من المسيحيين، وإخواننا المسيحيون أنفسهم شهود على ذلك ، ولعل القارىء يلحظ أن كثيراً مما يكتبه فرويد من مثل هذه الملحوظات المتعسفة لا سند لها من واقع . ولست أدرى من أين يأتى بهذا الكلام الغريب، فطوال عمرى ، وكمسلم لم أسمع نفسى ولا أحداً من شعبى ولا من الشعوب العربية ، على قدر ما سافرت ، يقول مثل هذا الكلام . (الحفنى) .

(٢) يذكر هيرودوت الذى زار مصر نحو سنة ٤٥٠ ق.م فى وصفه لأسفاره سمة للمصريين تظهر تشابها مذهلا مع الملامح المعروفة عن الشعب اليهودى الأكثر حداثة . « إنهم فى كل النواحى أكثر تدينا من غيرهم من الشعوب . ويتميزون كذلك عنهم بكثير من عاداتهم ، مثل الختان ، الذى أخذوا به قبل غيرهم لأسباب =

ومع ذلك فقد سارت الرواية اليهودية فيما بعد كما لو كانت قد ضايقتها نتيجة الأفكار التى انتهينا إلى الكشف عنها توا ، فالموافقة على أن الختان عادة مصرية أدخلها موسى يعنى تقريباً

= تتعلق بالنظافة ؛ ثم باشمئزازهم من الخنازير، ولاشك أن ذلك راجع إلى اعتقادهم أن ست قد أصاب حورس عندما كان متخفياً فى شكل خنزير أسود ؛ وأخيراً وبتميز أكثر بتقديسهم للبقر ، الذى لا يأكلونه أبداً أو يضحون به ، لأنهم بذلك سيغضبون إيزيس ذات القرون . ومن ثم فإن المصرى سواء كان رجلا أو امرأة ، لا يجرؤ على تقبيل اليونانى ، أو على استخدام سكينته أو سيخه أو وعائه للطبخ ، أو على تناول لحم ثور نظيف لو كان قد استخدم فى قطع هذا اللحم سكيناً يملكه يونانى . . . . وفى ضيق مترفع نظروا إلى الشعوب الأخرى التى كانت غير نظيفة ، والتى لم تكن قريبة قربهم من الآلهة » . (عن إيرمان : « عن الديانة المصرية ص ١٨١ (Erman : Die Aegyptische Religion ؛ ولا ننسى هنا طبعا ما يشابه ذلك فى حياة الهند . ونتساءل استطراداً فى الكلام ، ما الذى أعطى الشاعر اليهودى هاينى Heine فى القرن التاسع عشر فكرة الشكوى من ديانته بوصفها « الوباء القادم من وادى النيل ، والمعتقدات المريضة لقدماء المصريين » ؟ (فرويد) .

حورس : إله مصرى ، ابن الإله أوزيريس من الالهة إيزيس ، وكان ست أخو أوزيريس قد قتله ، ومن ثم خرج حورس ليتسلم عرش أبيه ويدافع عنه من ست ، وانتصرت إيزيس لابنها ، وظل الصراع حاداً بين حورس الطفل الالهى وبين ست ، وتحول كل منهما إلى فرس نهرى ، وتدخلت إيزيس وانتصرت الآلهة لحورس وأعطوه وظيفة أبيه ملكا فى طيبة ، أما ست فانضم إلى مجمع الآلهة باختياره . وقصة الصراع بين ست وحورس مدونة على بردية تسمى بردية شستر بيتى . (الحفنى) .

هاينى : هنرى هاين، شاعر ألمانى يهودى، ولد فى دسلدورف ومات فى باريس (١٧٩٧ — ١٨٥٦) ، عرف بشعره الساخر المتشائم ، وله قصائد وله لوحات حول سفرياته كتبها بالفرنسية وبالألمانية . (الحفنى) .

الاعتراف بأن الديانة التى نقلها إليهم موسى كانت مصرية كذلك . ولكن لليهود حججاً قوية يدحضون بها هذه الواقعة ، ولذلك فإن الحقيقة حول الختان كان لابد من نقضها كذلك .

— ٤ —

وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بنيت نظريتى - التى تضع موسى المصرى فى عهد أخناتون ، واستمددت من الوضع السياسى للبلد الذى كان فيه فى ذاك الوقت قراره بحماية الشعب اليهودى ، وسلمت بأن ديانة أتون هى الديانة التى أعطاها لشعبه ، أو أنها الديانة التى أثقلهم بها ، والتى كانت قد أبطلت من مصر نفسها توا ــ وعند هذه النقطة أتوقع أن أسمع عتاباً بأنى قد بنيت هذا الصرح من التخمينات بيقين عظيم ، لا توجد أسس كافية فى المادة نفسها تبرهن عليه . وأظن أن هذا العتاب لن يكون له ما يبرره ، فلقد سبق لى فى المقدمة أن أكدت عنصر الشك ، ووضعت علامة استفهام أمام الأقواس ، كما تراءى لى ، ويمكن لذلك أن أجنب نفسى مشقة تكراره عند كل نقطة داخل الأقواس .

وقد تواصل بعض من ملحوظاتى النقدية المناقشة ، فجوهر بحثنا ، وهو اعتماد التوحيد اليهودى على حادثة التوحيد فى التاريخ المصرى ، قد خمنها وألمح إليها عــدد من الباحثين . ولست فى حاجة إلى

الاستشهاد بأقوالهم هنا ، حيث أنه لم يحدث أن استطاع أحدهم أن يقول لنا عن الوسائل التى تبدى بها هذا النظام . وحتى إذا ارتبط هذا النفوذ بفردية موسى ، كما ارتئى ، فلابد لنا أن نزن الاحتمالات الأخرى ولا نقتصر على الاحتمال الذى اخترناه هنا . ولا يجب أن نفترض أن انهزام ديانة أتون قد أنهى تماماً الاتجاه التوحيدى من مصر ، فلقد تحملت الكارثة مدرسة الكهنة فى أون ، وهى المدرسة التى قامت على ذاك الاتجاه ، وربما كانت قد شدت أجيالاً بأكملها بعد أخناتون إلى مدار فكرها الدينى . ومن الجائز جداً لذلك ، فكريا ، أن يكون موسى قد أتم العمل ، حتى ولو لم يكن قد عاش فى زمن أخناتون ولم يقع تحت نفوذه الشخصى ، حتى ولو كان مجرد تابع لمدرسة أون أو مجرد عضو فيها . ويؤخر هذا التخمين تاريخ الخروج ويقربه إلى الزمن المفترض عادة ، وهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وإلا فليس هناك ما يزكيه ، وعلينا أن ننبذ الفراسة التى اكتسبناها ونحن ننفذ داخل أهداف موسى ، وأن نلقى بعيداً بفكرة أن الخروج قد سهلته الفوضى التى سادت مصر ، فقد حكمت البلد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين جاءوا بعد أخناتون ، وحكموها بيد قوية . ولا تتوافق كل الظروف ، الداخلية والخارجية ، التى يسرت الخروج منها فى الفترة التى أعقبت مباشرة موت الملك الضال .

ولليهود أدب دينى غنى إضافى علاوة على التوراة ، توجد به الأساطير والخرافات التى نسجت عبر القرون حول صورة زعيمهم الأول الضخمة ومؤسس دياناتهم ، والتى توجت ذاته وجعلتها غامضة فى نفس الوقت . وقد توجد مبعثرة فى تلك المادة بعض النتف المأثورة شرعاً ، والتى لم تجد مكانا فى أسفار موسى الخمسة . وتصف إحدى هذه الأساطير بطريقة جذابة كيف أبان طموح الانسان موسى عن نفسه فى طفولته ، فعندما أخذه فرعون بين ذراعيه ورفعه مداعباً إلى أعلى ، خطف الطفل ابن الثلاث سنوات التاج من فوق رأس فرعون ، ووضعه على رأسه هو . وانزعج الملك لذاك النذير،وحرص على استشارة أهل الحكمة عنده[1] . . . ثم يقال لنا مرة أخرى عن بطولات منتصرة خاضها بوصفه ضابطا مصرياً فى الحبشة ، وأنه ، فى نفس الارتباط ، هرب من البلد ، لأنه كانت له أسبابه للخوف من حسد نفر من رجال البلاط ، أو من فرعون نفسه . وتضفى قصة التوراة نفسها سمات معينة على موسى ، يميل الواحد إلى تصديقها . وهى تصفه كإنسان غضوب حاد الطبع — مثلما فى حمأته يقتل ملاحظ العمال الفظ الذى أساء معاملة عامل يهودى ، أو مثلما ، فى استيائه من مروق شعبه ، يحطم الألواح التى أعطاها له الله فوق جبل سيناء . والواقع أن الله عاقبه أخيراً لعمل ارتكبه عن غير

---

(١) توجد نفس الحكاية مع تغيير طفيف لدى يوسيفوس . (فرويد) .

صبر — ولم يُقل لنا ماذا كان. وطالما أن سمة كتلك ليست من السمات الممجدة، فقد تكون فعلا حقيقة تاريخية. ولسنا نرفض بالمثل أن كثيراً من سمات اليهود التى أدمجت فى تصورهم المبكر للإله، عندما جعلوه غيورا ومتجهما ولا يسهل إرضاؤه، قد استمدوها أصلاً من ذكراهم لموسى، لأنه فى الحقيقة لم يكن هو الإله غير المرئى الذى قادهم خارج مصر، بل كان الانسان موسى.

وتستحق سمة أخرى تنسب إليه اهتماما خاصا، فيقال أن موسى كان «بطيئا فى الكلام[1]» — وهذا يعنى أنه كان مصاباً بمعوق فى النطق أو مانع منه — ولذلك اضطر أن يستعين بهارون (الذى يسمى أخوه) ليعاونه فى مناقشاته المفروضة مع فرعون. وتلك أيضاً قد تكون حقيقة تاريخية، ويمكن أن نضيفها عن رضى إلى محاولة جعل صورة هذا الإنسان العظيم حية. وربما كان لها مع ذلك معنى آخر وأكثر أهمية. وقد تستحضر القصة واقعة أن موسى تحدث لغة أخرى، ولم يكن يستطيع أن يتفاهم مع مصرييه الجدد الساميين دون مساعدة مترجم — على الأقل ليس فى بداية اتصالها. ومن ثم يكون التأكيد الجديد لافتراض: أن موسى كان مصرياً.

---

(١) يقول القرآن: «واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى»، سورة طه، الآية ٢٨. ويقول سفر الخروج: «بل أنا ثقيل الفم واللسان»، الإصحاح الرابع. (الحفنى).

وبيدو الآن كما لو كان قطار الفكر قد بلغ منتهاه ، على الأقل الآن . ومن افتراض أن موسى كان مصرياً ، سواء أثبت ذلك أم لم يثبت ، لا يمكن استخلاص شيء أكثر من ذلك الان . وليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التى يرويها التوراة عن موسى والخروج ، بأكثر من أنها أسطورة دينية ، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها . ولسنا نعرف ما الذى كانت عليه الرواية الأصلية . أما ما كانت عليه الاتجاهات التى أعملت الانحراف فى الرواية ، فهذا ما نحب أن نخمنه ، ولكننا نُستبقى فى الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية . ولن يضلنا أن النظرية التى نحاول بها إعادة بناء الرواية لا تترك مكاناً للكثير جداً من سمات النص الإنجيلى المتنوع المشاهد — الأوبئة العشرة ، المرور عبر البحر الأحمر ، والتنزيل المقدس على جبل سيناء . ولكننا لا نستطيع أن نبقى بغير اكتراث عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا .

وهؤلاء المؤرخون الحديثون الذين يمثلهم خير تمثيل إدوارد ميير[1] يتبعون نص التوراة فى نقطة واحدة حاسمة ، فهم يسلمون

---

(١) (Eduard Meyer) : Die Jsraéliten und ihre Nachbarsteame (1906).

بأن القبائل اليهودية التى أصبحت فيما بعد شعب إسرائيل ، قد قبلت فى وقت معين دينا جديداً ، ولـكن هـذه الحادثة لم تقع فى مصر ، وليس كذلك عند قدم جبل فى شبه جزيرة سيناء ، ولـكن عند مكان يدعى « مِرْبَـة قادش Meribat--Qades » ، وهو واحة تتميز بوفرة ينابيعها وآبارها ، فى البلاد الواقعة جنوبى فلسطين ، بين الطرف الشرقى لشبه جزيرة سيناء والطرف الغـربى لشبه الجزيرة العربية ، وهناك اعتنقت هذه القبائل عبادة الإله يهوه Jahue ، وربما كان ذلك عن القبيلة العربية « المديانيين » الذين كانوا يعيشون فى الجوار ، ونحسب أن القبائل الأخرى المجاورة كانت هى الأخرى من أتباع ذلك الإله .

ومن المؤكد أن يهوه كان إلها بركانياً ، وكما نعرف فإن مصر تخلو من البراكين ، ولم يحدث أن كانت جبال شبه جزيرة سيناء بركانية ، ولـكن البراكين ، من ناحية أخرى ، التى ربما كانت ما تزال حية حتى مرحلة متأخرة ، توجد على طول الطرف الغربى لشبه الجزيرة العربية . ولا بد أن أحد هذه الجبال هو جبل حوريب سيناء Sinai Horeb الذى يعتقد أنه مقر يهوه[١] . وبرغم كل التغييرات التى طرأت على نص التوراة ، نستطيع أن نعيد — تبعاً

---

(١) يستبقى نص التوراة فقرات معينة تقول لنـا أن يهوه هبط من سيناء إلى مِرْبَـة قادش . (فرويد) .

لمير — بناء الشخصية الأصلية للإله : إنه مارد مهلك متعطش للدماء يسير بالليل ويتجنب ضوء النهار[1] .

وكان الوسيط بين الشعب والإله عند هذا الميلاد لديانة جديدة يسمى موسى ، وكان زوج ابنة كاهن من أهل مدين اسمه يثرون ، وكان يرعى قطعانه عندما تلقى الدعوة . وزاره يثرون فى قادش ليعطيه تعليمات .

ويقول إدوارد مير أنه فعلا لم يشك أبداً فى وجود نواة من الحقيقة التاريخية فى قصة الأسر فى مصر ، والكارثة التى وقعت للمصريين[2] ، ولكنه صراحة لا يعرف المكان الذى جرت فيه تلك الواقعة المعترف بها ، ولا يعرف ما الذى يفعله بها . وهو لا يريد أن يستمد شيئا من المصريين إلا عادة الختان ، وهو يثرى بحثنا المبكر بفكرتين هامتين . الأولى أن يشوع طلب من الشعب أن يقبل الختان « ليدحرج عار مصر »[3] ، والثانية بما ردده عن هيرودوت من أن الفينيقيين (الذين ربما هم اليهود) والسوريين فى فلسطين اعترفوا أنفسهم بأنهم تعلموا عادة الختان من المصريين[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .
(٣) يضع فرويد النص السابق بين قوسين ، ولكنه يرد فى سفر يشوع – الإصحاح الخامس الفقرة الثانية هكذا « قد دحرجت عنكم عار مصر » . (الحفنى) .
(٤) المرجع السابق ص ٤٤٩ .

ولـكن ميير لا يهضم فـكرة وجود موسى مصرى ، وهو يقول « إن موسى الذى نعرفه هو جد كهنة قادش ، ومن ثم فهو بالنسبة إلى العقيدة صورة لأسطورة النسب وليس شخصا تاريخياً » . ولذلك لم ينجح واحد من أولئك الذين عاملوه كشخص تاريخى (فيما عدا أولئك الذين يقبلون التراث برمته كحقيقة تاريخية) فى ملأ هـذا الشكل الفارغ بأى مضمون ، وفى وصفه كفردية متجسمة ؛ ولم يكن لديهم شىء يقولونه لنا عما حققه أو عن رسالته فى التاريخ[١] .

ومن ناحية أخرى يظل ميير يردد علينا دون ملل علاقة موسى بقادش ومديان « صورة موسى المرتبطة ارتباطا وثيقا بمـديان والأماكن المقدسة فى الصحراء . . .[٢] . إن هـذه الصورة لموسى ترتبط ارتباطا متلازماً بقادش (ماسّة ومربة) ؛ وتـكتمل الصورة بعلاقة المصاهرة بالـكاهن المديانى . ومن ناحية أخرى فإن الارتباط بالخروج ، وقصة شبابه فى جملتها ، ثانويتان كلية ، ومجرد نتيجتين لضرورة أن يتلاءم موسى فى قصة متصلة الأجزاء مترابطة »[٣] . وهو يلاحظ أيضاً أن كل السمات التى تتضمنها قصة شباب موسى قد حذفت فيما بعد . « إن موسى فى مدين لم يعد مصريا ، وحفيداً

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٢ .

لفرعون ، ولـكـنه راع يتبدى يهوا له » . وفى قصة الأوبئة العشرة ، ينتهى ذكر علاقاته السابقة ، رغم أنه كان من الممكن استخدامها استخداما مؤثراً ، وينسى تماما الأمر الصادر بقتل الطفل الإسرائيلى المولود الأول . ولادور لموسى إطلاقا فى الخروج وفى هلاك المصريين ، بل لا يرد ذكر له . وتغيب كلية فى موسى الأكثر تأخراً سمات البطل التى سبق افتراضها فى الطفولة ؛ إنه ليس سوى رجل الله ، صاحب المعجزات ، الذى زوده يهوا بالقوى الخارقة[1] .

ولا يسعنا أن نهرب من الإحساس بأن موسى قادش ومديان هذا ، الذى يمكن للرواية أن تنسب إليه كذلك انتصاب حية فظة كإله بارىء ، هو شخص مختلف تماماً عن المصرى الجليـــل الذى استقرأناه ، الذى كشف لشعبه ديناً حرم فيه السحر والشعوذة كل التحريم . وربما لم يكن اختلاف مصريّنا موسى عن موسى المدينى بأقل من اختلاف الإله العالى أتون عن المارد يهوا على جبله الربانى . وإذ سلمنا بأى نصيب من الصحة للمعلومة التى يقول بها المؤرخون الحديثون ، فعلينا أن نسلم كذلك بأن الخيط الذى تمنينا أن نسحبه من افتراض أن موسى كان مصريا قد انقطع للمرة الثانية ؛ وأنه انقطع هذه المرة ، كما يبدو ، دون أى أمل فى ربطه من جديد .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

ولكن مخرجاً من هذه المشكلة كذلك يعن على غير المتوقع ، فلقد استمرت الجهود التي كانت ترى في موسى صورة تتجاوز كاهن قادش وتؤكد الشهرة التي أكسبته إياها الرواية ، وقام بها جريسمان Gressmann وآخرون . وفي سنة ١٩٢٢ اكتشف إرنست سيلان[1] اكتشافاً له أهمية حاسمة ، فلقد وجد في سفر النبي هُوشع Hosea (في النصف الثاني من القرن الثامن) آثاراً لا تخطىء لرواية تفيد أن مؤسس ديانتهم موسى قد صادف نهاية عنيفة في تمرد شعبه العنيد الشاكس ، لأنهم كانوا قد هجروا في ذلك الوقت الديانة التي أقامها[2] . وليس هوشع وحده الذي يقول هذه الرواية ، فهي تتكرر في كتابات معظم الأنبياء اللاحقين ، وطبقاً لسيلاين فإنها في الواقع كانت الأساس لكل التوقعات اللاحقة للمسيح . وحوالي نهاية النفي في بابل دب الأمل بين الشعب اليهودي في عودة الرجل الذي قتلوه بغلظة من مملكة الموتى ليقود شعبه النادم —

(١) Ernst Sellin : Mose und Seine Bedeutung für die israelitisch Religionsgeschichte (1922) .

(٢) يشير فرويد إلى النص الوارد في سفر هوشع الاصحاح الثاني عشر الآية ١٢ «وهرب يعقوب إلى صحراء أرام وخدم إسرائيل لأجل امرأة ، ولأجل امرأة رعى . وبنبيٍ أصعد الرب إسرائيل من مصر وبنبيٍ حُفظ . أغاظه إسرائيل بمرارة فيترك دماءه عليه ويرد سيدُه عاره عليه » . (الحفنى) .

وربما ليس شعبه وحده — إلى عالم السعادة الأبدية . ولا توجد فى مجالنا الحاضر الارتباطات المحسوسة بمصير مؤسس ديانة لاحقة .

ولست طبعاً فى موقف يسمح لى بتقرير ما إذا كان سيللين قد فسر تفسيراً صحيحاً الفقرات المعنية فى أسفار الأنبياء . فإذا كان مصيباً مع ذلك فربما جاز لنا أن نصدق من الناحية التاريخية الرواية التى أقرها هو ، لأن مثل هذه الأمور لا تخترع بسهولة ، ولا يوجد دافع واضح يدفع صاحبها إلى اختراعها . وإذا كانت هذه الأمور قد حدثت فعلا ، فإن الرغبة فى تناسيها رغبة نفهمها بسهولة ، ولا حاجة بنا إلى أن نتقبل كل تفاصيل الرواية ، ويظن سيللين أن أرض شيتيم Shittim شرقى الأردن هى الأرض التى يشار إليها بوصفها مسرح هذا الفعل العنيف . وسنرى رغم ذلك أن اختيار هذا الموضع لا يتفق مع نظريتنا .

ولنتبن رأى سيللين ، ولنفترض معه أن موسى المصرى قد قتله اليهود ، وأن الديانة التى اشترعها قد هجرت ، فهذا يسمح لنا بأن نغزل خيوطنا أبعد دون أن نتعارض مع النتائج المأمونة للبحث التاريخى . ولكننا نغامر بأن نستقل عن المؤرخين فى النواحى الأخرى ونشعل الدرب الذى نسير عليه وحدنا بنور متوهج . ولكن الخروج من مصر يظل هو نقطة بدايتنا ، ولابد أن عدد

اليهود الذين رحلوا عن البلد مع موسى كان عدداً كبيراً ، وما كان لذلك الرجل الطموح بمشاريعه الضخمة أن يحفل بجماعة صغيرة . ومن المحتمل أن المهاجرين كانوا فى البلد وقتاً يكفى تكاثرهم إلى شعب عديد . ولن نضل يقيناً مع ذلك إذا افترضنا مع غالبية الباحثين أن جزءاً فقط من أولئك الذين صاروا فيما بعد الشعب اليهودى قد خضعوا لمصير العبودية فى مصر ، وبمعنى آخر فإن القبيلة العائدة من مصر انضمت فيما بعد فى البلد الواقعة بين مصر وكنعان إلى القبائل الأخرى المتآصرة والتى كانت تقيم هناك لبعض الوقت . وهذا الاتحاد ، الذى ولد منه شعب إسرائيل ، عبر عن نفسه فى اعتناق دين جديد ، عام بالنسبة لكل القبائل ، هو دين يهوا . وطبقاً لما يقوله مبير فإن ذلك حدث فى قادش تحت نفوذ المديانيين . وبعد ذلك أحس الشعب بأنه قوى حتى ليمكنه أن يقوم بغزو كنعان . ولا يتلاءم مع مجرى الحوادث هذا أن تقع تلك الكارثة التى حلت بموسى وديانته على الأرض شرقى الأردن — وإنما لابد أنها وقعت فى زمن يسبق الاتحاد بوقت طويل .

ولا شك أن عناصر كثيرة متنوعة للغاية أسهمت فى تكوين الشعب اليهودى ، ولكن أعظم الخلافات بين هذا الشعب قد اعتمدت حتما على ما إذا كان شعب اليهود قد عاش فعلا الاغتراب

فى مصر وما جرى بعده ، أم لا ؟ ومن وجهة النظر هـذه قد نقول إن الأمة قد صنعها اتحاد عنصرين ، وهو أمر يتوافق مع هـذه الواقعة : وهى أنه بعد فترة قصيرة من الاتحاد السياسى ، انفلق الاتحاد إلى جزئين — مملكة إسرائيل ، ومملكة يهودا . والتاريخ يحب أمثال هذه التجديدات التى يستعيد فيها نفسه ، والتى يفصم فيها من جديد عرى الاندماجات السابقة ، وتتضح فيها من جديد الانقسامات التى كانت موجودة من قبل . ولعل أبرز مثل على ذلك — وهو مثل معروف جداً — هو حركة الإصلاح ، عندما دفعت إلى الضوء من جديد ، وبعد فترة تزيد على الألف عام ، بالحدود بين جرمانيا التى كانت ضمن الدولة الرومانية ، وبين الجزء الذى ظل دائماً مستقلا . ومع الشعب اليهودى لا يسعنا أن نتحقق من أن الوضع السابق للأمور قد بعث من جديد بحذافيره . ومعلوماتنا عن تلك العصور ليست مؤكدة كلية ، بحيث يسعنا أن نفترض أن المملكة الشمالية قد استوعبت اليهود الذين كانوا يقيمون أصلا فيها ، بينما سكن المملكة الجنوبية اليهود العائدون من مصر ؛ ولكن الانقسام اللاحق فى هذه الحالة كذلك ، لا يمكن فصله عن الاتحاد الذى حدث فى الفترة الأولى . والمحتمل أن اليهود المصريين كانوا أقل عدداً من اليهود الآخرين ، ولكنهم دللوا على أنهم كانوا على مستوى ثقافى أعلى ،

وكان لهم تأثير أهم على التطور اللاحق للشعب ، لأنهم استحضروا معهم تراثاً كان ينقص الآخرين .

وربما قد استجلبوا شيئاً آخر ، شيئاً أكثر اتضاحاً من مجرد التراث ، فمن بين الألغاز الكبرى فى عصور ماقبل التاريخ اليهودية ، الألغاز المتعلقة بأسلاف اللاويين ، حيث يقال إن أصلهم إحدى قبائل إسرائيل الإثنى عشرة ، قبيلة لاوى . ولكنه لم يحدث أن كانت لإحدى الروايات الجرأة لأن تعلن فى أى مكان سكنت تلك القبيلة أصلا ، أو ماهو الجزء من أرض كنعان الذى غزوه قد خصص لها ، فقد احتلوا الأماكن التى لها الأهمية الأكثر بالنسبة للكهنة ، ومع ذلك كانوا متميزين عن الكهنة ، فاللاوى ليس بالضرورة كاهنا ، وليست اللاوية اسما لطبقة . ويقدم اقتراحنا عن شخص موسى تفسيرا ، فليس من المصدق أن إنسانا عظيما مثل موسى المصرى كان من الممكن أن يقترب من شعب غريب عليه بدون أن تكون له بطانة . فلابد أنه قد استجلب معه حاشيته ، أتباعه المقربين ، كتبته ، وخدمه . وهؤلاء كانوا اللاويين الأصليين ، وتتمسك الرواية بأن موسى كان لاويا ، ويبدو أن ذلك تشويه شفاف لواقع الأمور . فاللاويون كانوا شعب موسى ، وهذا الحل يؤيده ماذكرته فى مقال سابق : أنه فى العصور اللاحقة نجد أسماء مصرية فقط بين

اللاويين[١] . ومن الجائز أن نفترض أن عدداً لا بأس به من ذاك الشعب الموسوى قد أفلت من المصير الذى حاق به وبديانته . وتكاثروا فى الأجيال التالية واختلطوا بالشعب الذى عاشوا بينه ، ولكنهم ظلوا على وفائهم لسيدهم ، يجلون ذكراه ، ويحفظون تقاليد تعاليمه . وفى زمن الاتحاد مع أتباع يهوه شكلوا أقلية لها نفوذها ، أعلى ثقافياً من الباقين .

وأقترح — وهو ليس إلا اقتراحاً حتى الآن — أنه بين سقوط موسى وتأسيس ديانة فى قادش ولد جيلان واختفيا ، وأنه ربما انصرم كذلك قرن . ولست أتبين طريقى حتى يمكننى أن أستيقن مما إذا كان المصريون الجدد ، كما أوثر أن أسمى أولئك الذين عادوا من مصر تمييزاً لهم عن اليهود الآخرين ، قد التقوا بأقاربهم فى الدم بعد أن كان أولئك قد ارتضوا ديانة يهوا أو قبل أن يحدث ذلك . ربما كان القول الأخير هو الأكثر احتمالا . وهو لا يحدث أى اختلاف بالنسبة للنتيجة النهائية ، فإن ما حدث فى قادش هو التقاء بين الطرفين ، والدور الذى لعبته فيه قبيلة موسى غير قابل للتخطئة .

---

(١) يتوافق جداً هذا الافتراض مع ما يقوله يهودا Yahuda عن التأثير المصرى على الكتابات اليهودية المبكرة . أنظر ا . س . يهودا : Die Sprache des Pentateuch in ihren Bezichungen.Zum Agyptisehen (١٩٢٩) . (فرويد) .

وهنا يجوز لنا أن نعود إلى عادة الختـان التى أمدتنا مراراً بخدمات هامة . ولقد صارت هذه العادة كذلك قانوناً عن قوانين ديانة يهوه ، وحيث أنها ترتبط بعصر ارتباطا وثيقا ، فإن الأخذ بها لابد أن يعنى إذعانا لشعب موسى ، وما كان لذلك الشعب — أوللاويين الذين يتزعمونه — أن يطرحوا جانباً تلك العلامة التى تدل على تكريسهم . وكانوا يريدون أن ينقذوا الكثير من ديانتهم القديمة ، وكثمن لذلك كانوا يرضون بالاعتراف بالمعبود الجديد وبكل ما كان يقوله الكهنة المديانيون عنه . ومن المحتمل أنهم حاولوا الحصول على المزيد من التنازلات . ولقد ذكرت آنفا أن الطقوس اليهودية تفرض اقتصاداً معيناً فى استخدام اسم الله ، وبدلا من يهوه كان عليهم أن يقولوا أدوناى Adonai . ومن المغرى أن نضمن هذه الوصية فى مناقشتنا ، ولكنها مجرد فرض ، وكما هو معروف فإن النهى عن النطق باسم الله هو من المحرمات البدائية ، وليس من الواضح تماماً السبب بالضبط الذى يحدد به فى الوصايا اليهودية ، وإنه لأمر محل نقاش أن يحدث هذا تحت تأثير دافع جديد. ولا سبب يدعو إلى افتراض أن هذه الوصية طبقت بشكل حاسم ، فلقد استخدمت كلمة يهوه فى تشكيل أسماء شخصية ذات مدلولات دينية — أى استخدمت فى تركيبات مثل يشوع وياهو ويوحنان .

ومع ذلك فهناك شىء غريب فى هذا الاسم ، فمن المعروف أن علم تفسير التوراة يقر مصدرين للأسفار الستة ، ويسميان «ى» و « أ » ، لأن أحدهما يستخدم اسم يهوا المقدس ، والثانى يستخدم اسم إلوهيم Elohim ؛ والواقع أنه إلوهيم وليس أدوناى . ولربما جاز لنا هنا أن نردد ملحوظة أحد المؤلفين : « إن الأسماء المختلفة دليل واضح على آلهة مختلفة أصلا »(١) .

ولقد سلمنا بأن الأخذ بعادة الختان كدليل على أنه فى وقت أسيس الدين الجديد فى قادش حدث التقاء ، ونحن نعلم أن الالتقاء كان بين كل من «ى» و « أ » ، والقصتان تتفقان ، ولذلك ينبغى أن نرجعهما إلى مصدر مشترك ، إما أنه مصدر مكتوب أو رواية شفاهية . وكان الهدف المقصود هو إثبات عظمة وقوة الإله الجديد يهوه . وحيث أن شعب موسى كان يعلق مثل هذه الأهمية الكبيرة على تجربة خروجه من مصر ، فكان لابد أن ينسب تحريره إلى يهوه ، وكان لابد من تزويق هذا العمل بسمات تثبت العظمة المخيفة لهذا الإله البركانى ، مثل عمود الدخان الذى تحول إلى عمود من نار فى الليل ، أو العاصفة التى قسمت الماء حتى أغرقت فيضانات الماء الراجعة المطاردين .

---

(١) Hugo Gressmann : Mose und Seine Zeit (Göttingen, 1913) P. 54 . (فرويد) .

ومن ثم أقرن الخروج بتأسيس الديانة الجديدة ، وأنكرت الفترة الطويلة التى بينهما ، وقيل إن تنزيل الوصايا العشرة كذلك جرى ليس فى قادش ولكن عند قدم الجبل المقدس وسط مظاهر انفجارات بركانية . وألحق هذا الوصف مع ذلك ضرراً بليغاً بذكرى موسى الإنسان ؛ فلقد كان موسى وليس الإله البركانى ، هو الذى حرر شعبه من مصر . ومن ثم كان لابد من تعويضه ، ولقد عوض بنقله إلى قادش أو إلى جبل حوريب سيناء ، وبوضعه فى مكان الكاهن المديانى . ولسوف نناقش فيما بعد كيف أرضى هذا الحل ميلا عاجلا آخر لا يقاوم ، فعن طريقه تحقق نوع من التوازن ، واستطاع يهوه أن يبسط سلطانه من جبله فى ميديان ، بينما نقل وجود ونشاط موسى إلى قادش والبلد الواقع شرقى الأردن . وكانت هذه هى الطريقة التى صار بها واحداً مع الشخص الذى أقام فيما بعد الديانة الموسوية ، وهو زوج ابنة يثرون المديانى ، الرجل الذى أعاره اسمه موسى . ونحن لا نعرف مع ذلك شيئاً شخصياً عن هذا الموسى الآخر — فموسى الأول ، موسى المصرى ، يحجبه تماماً ، إلا احتمالا فيما يبدو من دلالات تظهرها التناقضات الموجودة فى التوراة فى وصف موسى ، فهو يوصف كثيراً بأنه متسيد حامى الطبع ، وعنيف ، ورغم ذلك يقال عنه أيضاً أنه كان أكثر الناس حلماً «ووداعة» ، ومن الواضح أن الصفات الأخيرة ما كان لها نفع

لموسى المصرى الذى خطط لشعبه مثل تلك المشروعات العظيمة والصعبة ، وربما كانت تخص الآخر ، المديانى . وأظن أن لى ما يبرر فصل الشخصين عن بعضهما البعض ، وتصور أن موسى المصرى لم يحدث أن كان فى قادش أبدا ، وأنه لم يسمع أبدا باسم يهوه ، بينما لم يضع موسى المديانى قدما فى مصر ، ولم يعرف شيئاً عن أتون . ولكى توحد بين الشعبين فى شعب واحد ، كان لزاماً على الرواية أو الأسطورة أن تحضر موسى المصرى إلى مديان ، ورأينا أن أكثر من تفسير واحد قد أعطى لها .

* * *

— ٦ —

إننى على استعداد تام لأن أسمع من جديد العتاب بأنى قد صغت بنائى المعاد للتاريخ المبكر لقبيلة إسرائيل بيقين غير لائق وليس له ما يبرره . ولن أحس أن هذا النقد قاس جدا طالما أنه يجد صدى فى حكمى أنا ، وأعرف أنا نفسى أن هذا البناء المعاد له مواضعه الضعيفة ، ولكن له كذلك مواضعه القوية . وعلى العموم فإن الحجج المؤيدة لاستمرار هذا العمل فى نفس الاتجاه تنتصر . ويحتوى سجل التوراة الذى أمامنا على شواهد تاريخية قيمة — بل على شواهد لا تقدر لها قيمة ، ولكنها شوهت بتأثيرات مغرضة ،

واستكملتها نتاجات الاختراع الشاعرى . وفى عملنا استطعنا من قبل أن نتنبأ بواحد من هذه النزعات المشوهة . وسيهدينا هذا الاكتشاف فى طريقنا . إنه لحة لكشف الغطاء عن النزعات المشوهة المماثلة . وإذا وجدنا أسباباً للإقرار بالتشويهات التى أنتجتها ، فلسوف نستطيع أن ندفع إلى الضوء بالمزيد من المجرى الحقيقى للأحداث .

ولنبدأ بأن نتبين ما يقوله البحث النقدى للتوراة عن كيفية كتابة الأسفار الستة[1] — كتب موسى الخمسة وكتاب يشوع ، لأنها وحدها التى تهمنا هنا . ويعتبر أقدم المصادر المصدر المسمى « ى » ، أو المصدر الذى يتناول يهوه والذى يظن أحدث الباحثين أنهم يتعرفون فى مؤلفه على الكاهن أبياثار Ebjatar [2] أحد المعاصرين للملك داود[3] . وبعد ذلك بقليل ، ولا يعرف لم كان

---

(١) أنظر مقالة الانجيل Bible فى الطبعة الحادية عشرة من Encyclopaedia Britannica (دائرة المعارف البريطانية لسنة ١٩١٠) . (فرويد) .

(٢) سفر صموئيل الثانى الاصحاح الخامس عشر . وقد اختلف ابنا الملك داود ، وهما أدونيا وسليمان على من يخلفه ، وانتصر أبياثار لأدونيا على سليمان ، وعندما مات داود وتولى سليمان الملك من أبياثار وطرده من الكهانة . (سفر الملوك الأول الاصحاح الثانى) . (الحفنى) .

(٣) أنظر : Auerbach : Wüste und Gelobtes Land (1932) (فرويد) الملك داود بن اشعيا من سبط يهوذا ، تولى الملك وهو بعد صبى ويعتبر من مؤسسى ما يسمى بمملكة يهوذا ، وخلفه على الملك سليمان ابنه . (الحفنى) .

ذلك القليل ، يأتى المصدر المسمى الإيلوهيمى والذى ينتمى إلى المملكة الشمالية[1] . وبعد دمار هذه المملكة سنة ٧٢٢ ق . م . ضم أحد الكهنة اليهود أجزاء من «ى» إلى أجزاء من «أ» ، وأضاف إليهما إسهامات من عنده ، وأطلق على مجموعته اسم « ى أ » . وفى القرن السابع أضيف السفر الخامس «التثنية» ، وقيل أنه قد عثر عليه حديثاً بأكمله فى المعبد . وفى الزمن الذى تلا تدمير المعبد ، فى سنة ٥٨٦ ق.م ، خلال النفى وبعد العودة ، وضع مايسمى بالتشريع الكهنوتى وأعيدت كتابته ، ورأى القرن الخامس عشر مراجعة محددة لمادة التوراة[2] ، ومنذ ذلك الوقت لم يتناول التغيير هذه المادة .

(١) كان استروك سنة ١٧٥٣ أول من ميز بين المصدر الذى ينتسب الى يهوا والمصدر الذى ينتسب إلى إيلوهيم . (فرويد) .

المملكة الشمالية : يقال إن الدولة اليهودية كانت ثلاث دول ، مملكة فى الشمال عاصمتها سامريا ، ومملكة يهوديا فى الجنوب ، ومملكة الجليلى فى الوسط ، وليس هناك من الآثار ما يدل على ذلك سوى ما يقوله التوراة اليهودى وهو من تدبيج كهنة اليهود وخاصة عزرا الذى يسميه القرآن الكريم « عُزَيْر » . (الحفنى) .

(٢) من المؤكد تاريخيا أن النموذج اليهودى تحدد نهائيا كنتيجة لإصلاحات عزرا ونحميا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد النفى وخلال حكم ملوك فارس الذين كانوا أصدقاء لإسرائيل . وطبقاً لحسابنا فإن ٩٠٠ سنة تقريباً مرت منذ ظهور موسى . وعن طريق هذه الإصلاحات أخذ الشعب التنظيمات التى تهدف إلى تقديس الشعب المختار مأخذ الجد : وطبق الانفصال عن القبائل الأخرى بالقوة بمنع الزواج المختلط وأقر البنتاتيوخ (الأسفار الخمسة) ، وهو التجميع الأصلى للشريعة ، فى صورته المجددة ، وتم إعادة كتابة ما يسمى باسم التشريع الكهنونى . ويبدو يقينا مع ذلك أن الإصلاح لم يأخذ بأية اتجاهات جديدة ، ولكنه حقق ببساطة الاقتراحات السابقة ودعمها . (فرويد) .

ومن المحتمل أن تاريخ الملك داود وتاريخ عصره كتبه أحد معاصريه . وهو تاريخ حقيقي ، قبل هيرودت « أبو التاريخ » بخمسمائة سنة . وسنبدأ بفهم هذه المأثرة إذا تصورنا وجود تأثير مصرى ، فى حدود الفرض الذى افترضناه . وكان هناك اقتراح[1] بأن الإسرائيليين الأوائل ، كتبه موسى ، كان لهم يد فى اختراع أول ألف باء[2] اللغة العبرية . وليس بوسعنا بالطبع أن نعرف إلى أى مدى تقوم الروايات عن العصور السابقة على المصادر المبكرة أو على الرواية الشفاهية ، وأن نعرف مدى الفترة التى انقضت بين حادثة ما وبين تثبيتها بالكتابة . ومع ذلك فإن النص كما نجده اليوم يقص علينا مافيه الكفاية ، عن تاريخه هو نفسه . وتركت قوتان متميزتان ومتعارضتان أثرهما عليه ، فمن ناحية كان على تغييرات معينة أن تعمل عملها فيه ، مزيفة النص طبقاً لميول مستسرة ، تقتطع منه وتزيد عليه حتى استحال إلى ضده ، ومن ناحية أخرى سيطر

= التوراة هو كتاب اليهود ، ويتألف من ٣٩ سفراً ، والمعنى الحرفى للكلمة هو « التعليم » ، وينسب إلى عزرا كتابة التوراة عن طريق إعادة كتابة التراث . أما التلمود فهو كتاب اليهود الثانى ، وإذا كان التوراة قد وضع بعد موسى بنحو ألف عام . فالتلمود وضع بعد التوراة بعدة قرون . (الحفنى) .

(١) أنظر كتاب ياهودا السابق ص ١٤٢ .

(٢) إذا كانوا مقيدين إلى النهى عن صنع الصور والتماثيل فقد كان ذلك دافعا لهم إلى التخلى عن الكتابة بصور اللغة الهيروغليفية عندما اتخذوا علاماتهم الكتابية للتعبير عن لغة جديدة . (فرويد) .

عليه ورع متسامح مشوق إلى أن يستبقى كل شيء كما هو ، لا يبالى
ما إذا كانت التفاصيل تترابط مع بعضها أو أنها تلغى بعضها البعض .
وهكذا يمكن أن توجد فى كل مكان تقريبا محذوفات بصورة مدهشة،
ومتكررات معوقة ، ومتناقضات ظاهرة ، وإشارات لأشياء لم يُقصد
توصيلها أبداً . وإن تشويه النص لا يختلف عن الجريمة . ولا توجد
صعوبة فى تنفيذ العمل ، ولكن فى التخلص من الآثار . وكان بوسعنا
أن نتمنى أن نعطى كلمة « تشويه » المعنى المزدوج الذى لها الحق فيه ،
مع أنها لا تستخدم الآن فى هذا المعنى ، وكان يجب أن تعنى ، ليس
فقط «تغيير المظهر» ، ولكن كان يجب أن تعنى كذلك «التحريف» ،
و « الوضع فى مكان آخر » . وهذا هو السبب فى أنه فى كثير جداً
من التشويهات فى النصوص يجوز لنا أن نعتمد على أننا سنجد المادة
المكتوبة والمنكورة مخفية فى مكان ما ، ولو فى شكل مغاير ومنتزع
من ارتباطه الأصلى . وكل ما هنالك أنه ليس من السهل دائما
التعرف عليه .

والميول المشوهة التى نريد أن نكشفها لابد أنها أثرت على
الروايات قبل أن تُكتب . ولقد اكتشفنا إحداها ، وربما كان
أقواها جميعاً . وقلت أنه عندما عُبد الإله الجديد يهوه فى قادش كان
لا بد من عمل شىء لتمجيده . والشىء الواقعى أكثر أن نقول أنه كان

يتعين إقامتـه أولا وأن يوسع له مكان ، وكان يجب أن تباد آثار الديانات السابقة . ويبدو أن هذا نفذ بنجاح مع دين القبائل المستقرة ، فلم يسمع عنها شيء من بعد ، ولـكن المهمة لم تـكن سهلة مع القبائل العائدة ، فلقد كانت مصممة على ألا يسلب منها الخروج من مصر وموسى الانسان وعادة الختان . وإنها لحقيقة أنهم كانوا فى مصر ، ولـكنهم غادروها مرة أخرى ، ومن الآن فصاعدا لابد من رفض كل أثر للنفوذ المصرى . وتم التخلص من موسى بأن نقل إلى ميديان وقادش ، وأدمج فى شخص واحد بالكاهن الذى أسس ديانة يهوه . وكان لابد من استبقاء الختان ، وهى أكثر العلامات دلالة على الرضى على الاعتماد على مصر ، ولـكن رغم كل الشواهـد الموجودة ، بذلت كافة الجهود الممـكنة لفصل هذه العادة عن مصر . ولا يمكن تفسير الفقرة المحيرة فى سفر الخروج ، المـكتوبة فى أسلوب غير مفهوم تقريباً ، وتقول أن الله كان غاضبا على موسى لاهماله الختان ، وأن زوجته المديانية أنقذت حيـاته بإجراء عملية ختان سريعة ، إلا بأنها تناقض متعمد للحقيقة الـكاشفة . وسنصادف عما قريب بدعة أخرى ابتدعوها بهـدف إبطال نتفة صغيرة لها شهادتها المزعجة .

وليس فى الإمكان تماماً وصفها بأنها اتجاه جديد — إنها ليست

سوى استمرار للمحاولة نفسها — عندما نعثر على محاولة لإنكار أن يهوه كان إلها جديداً ، إلها غريبا على اليهود ، إنكاراً تاماً . ولهذا السبب نسجت أساطير الآباء أبراهام وإسحق ويعقوب . وتصر ديانة يهوه أن يهوه كان إله هؤلاء الآباء . هذا حق — وعلى يهوه نفسه أن يعترف به هو نفسه — إنهم لم يعبدوه تحت هذا الاسم[1] .

ولا تضيف ديانة يهوه شيئا عن الاسم الآخر الذى كان يعبد به . وهنا انتهزت الفرصة لتوجيه ضربة حاسمة إلى الأصل المصرى لعادة الختان . وقيل إن يهوه قد طلبها إلى أبراهام من قبل ، وأقامها كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل أبراهام . وهذه ، على أى حال ، بدعة حمقاء بوجه خاص ، لأنه لو شئنا أن نستخدم علامة نميز بها أحد الناس عن سائر الشعب ، لاخترنا شيئاً لا يمتلكه الآخرون — وهو بالتأكيد شيء ليس عند الملايين من الناس . والإسرائيلى الذى يجد نفسه فى مصر ، سيجد أن عليه أن يقر بأن المصريين كلهم إخوته ، لأن الميثاق الذى بينه وبين يهوه ، هو نفسه الميثاق الذى يجمعهم إخوة فى (الرب) يهوه . وليس من الممكن أن يجهل الإسرائيليون الذين خلقوا نص التوراة أن المصريين كانوا

(١) إن القيود على استخدام الاسم الجديد لا تصبح أكثر فهما ، ولو أنها تصبح أكثر تعرضاً للريبة . (فرويد) .

يمارسون عادة الختان . وتقر ذلك الفقرة التي يوردها مبير من سفر يشوع إقراراً صريحا ، ومع ذلك كان لا بد من إخفاء الحقيقة بأى ثمن .

ولا يمكننا أن نتوقع من الأساطير الدينية أن تولى انتباها متشككا إلى الارتباطات المنطقية . وإلا أصابت الكراهية إحساس الشعب عن حق إزاء تصرف إله يعقد ميثاقا مع آبائه يتضمن تكليفات متبادلة ، ثم يتجاهل شركاءه البشريين لقرون إلى أن يطرأ له فجأة أن يكشف عن نفسه مرة أخرى لنسلهم . وأكثر من ذلك إثارة للدهشة المفهوم عن إله «يختار» فجأة شعباً من الشعوب ، ويجعله « شعبه » ويقيم من نفسه إلها لهم . وأعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة فى تاريخ الديانات البشرية . وفى الحالات الأخرى ينتمى الشعب وإلهه إلى بعضهما بلا انفصال ، فهما واحد منذ البداية . وإنه لحقيقة ، أن نسمع أحيانا عن شعب يأخذ فى عبادة إله جديد ، ولكننا لم نسمع عن إله يختار شعباً جديداً . وربما نقترب إلى فهم هذا الحدث الفريد عندما نفكر فى الارتباط بين موسى وبين الشعب اليهودى . إن موسى نزل إلى اليهود ، جعلهم شعبه ، إنهم « شعبه المختار »[1] .

---

(١) كان يهوا إله براكين بلا جدال . ولم يكن هناك سبب يدعو سكان مصر إلى عبادته . ولست بالتأكيد أول من يدهش التشابه بين اسم يهوه وبين جذر اسم إله آخر: جوبيتر وجوفيس (Jahve, Jupiter, Jovis) . والاسم التركيبي =

وكان هناك بالإضافة إلى ذلك هدف آخر لإدخال الآباء فى دين يهوه الجديد . لقد عاشوا فى كنعان ، وارتبط ذكرهم بأماكن

= يوحنان ، المكون جزئياً من الكلمة العبرية يهوه ، وله معنى يشابه إلى حد ما اسم جودفرى والاسم القرطاجى المساوى له هانيبال ، صار أحد الأسماء الأكثر شيوعاً فى المسيحية الأوروبية فى أشكال جوهان وجون وجين وجوان . وعندما يعيد الإيطاليون إنتاج الاسم فى شكل جيوفانى ثم يسمون أحد أيام الأسبوع جيوفيدى يدفعون مرة أخرى إلى الضوء تشابها ربما لا يعنى شيئاً أو ربما كان يعنى الكثير جداً . إن إمكانيات بعيدة المدى ، ولو أنها غير مؤمنة كثيراً ، تتفتح هنا ، فلقد كانت البلاد حول الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، فى تلك القرون المظلمة التى لم يكد البحث التاريخى يبدأ فى تكشفها ، كما يبدو مسرحاً لانفجارات بركانية متعددة وعنيفة ، كان لابد أن تترك أثراً عميقاً على السكان . ويفترض إيفانز Evans (مؤرخ) أن الدمار الأخير الذى حاق بقصر الملك مينوس فى كنوسوس Knossos كان كذلك نتيجة زلزال . وكانت الإلهه الأم العظيمة حينئذ تعبد فى كريت ، كما كانت تعبد احتمالا فى كل مكان من العالم الايجى . وربما أسهمت الملاحظة التى تقول أنها لم تكن بوسعها أن تحمى بيتها ضد هجوم قوة أقوى ، فى تخليها عن مكانها لاله ذكر ، ومن ثم كان لاله البراكين الحق الأول فى شغل مكانها . وما يزال الاله زيوس يحمل اسم « الذى يهز الأرض » . ولا يكاد يوجد شك فى أنه فى تلك الأزمات الغامضة حلت الآلهة المذكرة محل الآلهة المؤنثة (وربما كانت فى الأصل من أبنائهـا) . وإن مصير بالاس أثينا Pallas Athene لمؤثر بنوع خاص وكان بلاشك الشكل المحلى للالهة الأم ، والتى صغرت خلال الثورة الدينية وصارت ابنة ، انتزعت فيها أمها ، وحيل بينها للأبد وبين الأمومة بمقتضى الحصانة التى أضيفت على العذرية . (فرويد) .

ويقصد فرويد من شعبه المختار هنا أن موسى والاله كليهما لم يكونا من شعب اليهود ، وأن موسى والاله كليهما كان غريبا على اليهود ، وحيث أن موسى قد ترك شعبه المصرى وبشر اليهود بدينه الجديد ، فلقد صار اليهود شعبه المختار أى الذى اختاره بديلا عن شعبه المصرى . (الحفنى) .

معينة فى البلد . وربما كانوا هم أنفسهم أبطال كنعانيين أومعبودات محلية اتخذها الإسرائيليون المهاجرون معبودات لهم فى تاريخهم المبكر . وبإحيائها يقدمون الدليل ، كما نرى ، على أنهم ولدوا وتربوا فى البلد ، وأنهم يرفضون الكراهية التى تلتصق بالغازى الأجنبى . وكان ذلك تحولا ذكياً : لم يعطهم يهوه سوى ما كان لأسلافهم فى يوم من الأيام .

وفى الإسهامات اللاحقة إلى نص التوراة واجه الميل إلى تجنب ذكر قادش نجاحا ، وصار مسرح تأسيس الديانة الجديدة هو جبل حوريب سيناء المقدس بشكل قاطع ؛ ولا يتضح الدافع ، وربما لم يكونوا يريدون أن يذكروا بنفوذ ميديان ، ولكن كل التشويهات اللاحقة ، وخاصة التشويهات التى لحقت بالتشريع الكهنوتى ، تخدم غرضا آخر ، فلم تعد هناك أية حاجة لتغيير مواصفات الأحداث التى جرت فى الزمان البعيد نحو اتجاه معين ، فقد حدث ذلك منذ زمن بعيد . ومن ناحية أخرى ، بذلت محاولة لإرجاع بعض قوانين وشرائع الحاضر إلى عصر مبكر ، ولاقامتها كقاعدة على القانون الموسوى ، تستمد منها دعواها فى القدسية والقوة الملزمة . ومهما زيفت صورة العصور القديمة بهذه الطريقة ، فإن الإجراء لا ينقصه تبرير سيكولوجى معين . لقد عكس حقيقة أنه خلال الكثير من

القرون - انقضت نحو ثمانمئة سنة بين الخروج وبين عملية تثبيت نص التوراة التى قام بها عزرا ونحميا — سارت ديانة يهوه فى خط تطورى رجعى توج باندماج (وربما كان ذلك لدرجة التماثل الفعلى) مع الديانة الأصلية لموسى.

وهذه هى النتيجة الجوهرية: المحتوى المصيرى لتاريخ اليهود الدينى.

* * *

— ٧ —

بين كل أحداث التاريخ اليهودى القديم الذى آل الشعراء والكهنة والمؤرخون على أنفسهم تصويره فيما تلا ذلك من عصور، كانت هناك حادثة بارزة دعت إلى طمسها ألسن الدوافع الإنسانية وأكثرها وضوحا. هذه الحادثة هى مقتل موسى الزعيم والمحرر العظيم، والذى أحس بها «سيللين» من كلام الأنبياء. ولا يمكن تسمية حدس سيللين بالخيالى، فهو محتمل جدا. فموسى الذى تدرب فى مدرسة أخناتون استخدم نفس الطرق مثل الملك. لقد كان يعطى الأوامر ويفرض ديانته على الشعب[1]، وربما كانت ديانة موسى

(١) فى تلك العصور ما كان من المحتمل تقريباً أن يكون هناك أى شكل آخر من أشكال النفوذ. (فرويد).

أكثر تعصباً من ديانة سيده ، ولم تكن به حاجة لاستبقاء أى ارتباط بديانة إله الشمس طالما أن مدرسة أون لن تكون لها أهمية لشعبه الغريب . وواجه موسى نفس المصير الذى واجه أخناتون ، المصير الذى ينتظر كل الطغاة المستنيرين . ولم يكن بوسع شعب موسى اليهودى كذلك أن يتحمل مثل هذه الديانة الروحية ، وأن يجد فيما تقدمه إشباعاً لحاجاتهم ، كما حدث للمصريين أثناء الأسرة الثامنة عشرة . وفى الحالتين حدث نفس الشىء : ثار أولئك الذين أحسوا أنهم ما يزالون تحت الوصاية ، أو الذين جردوا ، وألقوا عنهم عبء ديانة فرضت عليهم . ولكن بينما انتظر المصريون الوديعون حتى رفع عنهم القدر الشخصى المقدس لفرعونهم ، أخذ الساميون الهمج قدرهم فى أيديهم وتخلصوا من طاغيتهم[1] .

وليس بوسعنا كذلك أن نصر على القول بأن نص التوراة الذى حفظ لنا لا يعدنا لنهاية كتلك التى حدثت لموسى . وتصف رواية « التيه فى البرية » — التى ربما جرت فى زمن حكم موسى —

---

(١) من الواضح حقاً أننا نادراً ما سمعنا خلال آلاف السنين التى استغرقها التاريخ المصرى (القديم) عن انقلابات عنيفة أو اغتيالات الفراعنة . والمقارنة بالتاريخ الأشورى مثلا ينبغى أن تزيد دهشتنا . وربما كان السبب طبعاً أن التسجيل التاريخى المصريين خدم الأغراض الرسمية وحدها لاغير . (فرويد) .

سلسلة من التمردات الخطيرة ضـد سلطته ، التى أخمدت مع معاقبـة المتمردين عقاباً وحشيا بأمر يهوه . ومن السهل تخيـل أن إحدى تلك التمردات انتهت إلى خاتمـة أخرى خلاف ما يورده النص . ويذكر فى النص أيضاً تنكر الشعب للديانة الجديدة ، ولو أنه يذكر كمجرد حادث . أنه قصد العجل الذهبى ، حيث تحول خرق ألواح القانون تحولا أريباً ، ونُسب إلى موسى نفسـه ، ورُد إلى سخطه الغاضب — ويجب أن يُفهم هـذا الخرق فهما رمزيا (لقد خرق القانون) .

وجاء وقت عندما أسـف الشعب على اغتيال موسى وحاولوا نسيانه . وحـدث ذلك بالتأكيد فى وقت التجمع بقادش . وعلى ذلك فلو قُرب الزمن الذى وقع فيه الخروج من زمن تأسيس ديانتهم فى الواحـة ، وسمحوا لموسى الآخر بدلا من موسى الذى أسس الديانة ، بالمساعدة فى تأسيسها ، حينئذ لا يتحقق فقط الإشباع لمزاعم شـعب موسى ، ولـكن يتحقق كذلك بنجاح إخفاء الواقعة المؤلمة لإزاحته بطريقة عنيفة . والواقع أن من غير المحتمل غالباً أن موسى كان من الممكن أن يشارك فى الأحـداث التى جرت فى قادش ، حتى ولو لم تختصر حياته .

وهنا ينبغى أن نـكشف عن تتابع تلك الأحداث ، فلقد وضعت

الخروج من مصر فى الزمن الذى تلا زوال الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٣٥٠ ق. م) . ولربما حدث حينئذ أو بعد ذلك بقليل ، لأن المؤرخين المصريين أدرجوا السنوات التالية باعتبارها سنوات عمتها الفوضى فى حكم حارمحب ، الملك الذى أنهاها وحكم حتى سنة ١٣١٥ ق . م . والمساعدة الثانية لتحديد التاريخ — وهى الوحيدة — يقدمها لوح ميرنبتاح (١٢٢٥ — ١٢١٥ ق . م) الذى يمجد الانتصار على اسيراءال (اسرائيل) وتدمير محاصيلهم . ولسوء الحظ فإن أمر هذا اللوح مشكوك فيه ، ويؤخذ كدليل على أن القبائل الإسرائيلية كانت قد استقرت فى ذلك الوقت فى كنعان[1] . ويستخلص ميير بحق من هذا اللوح[2] أن ميرينبتاح لا يمكن أن يكون هو فرعون الخروج كما كان يفترض من قبل . وينبغى أن يكون الخروج قد حدث فى فترة أسبق . ويبدو لى سؤال : «من كان فرعون فى وقت حدوث الخروج ؟ » سؤالا فارغاً ، فلم يكن هناك فرعون فى ذلك

---

(١) ميير المرجع السابق ص ٢٢٢ . (فرويد) .

(٢) يقول اللوح : « والأمراء منطرحون على الأرض يصيحون الرحمة ، ولا يرفع واحد رأسه من أهالى الأقواس التسعة ، الخراب للتحنو ، وبلاد خيتا قد أسكتت ، ونهبت كنعان وأصابها كل شر ، وسيقت عسقلان ، وهجم على جزر ، وصارت ينعم (كبلد) لم يكن له وجود ، وإسرائيل خربت ، وزالت بذرتها ، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر ، وجميع الأراضى أصبحت هادئة كلها ، وكل من كان غير مستقر أصبح مرتبطا بمرنبتاح » (جون ويلسون : الحضارة المصرية ترجمة الدكتور أحمد فخرى) . (الحفنى) .

الوقت ، لأن الخروج حدث فى الفترة التى تخللت حكمين ، ولكن لوح مرينبتاح لا يلقى بأى ضوء على التاريخ المحتمل للاندماج وقبول الديانة الجديدة فى قادش . وكل ما نستطيع قوله فى يقين هو أنهما وقعا فى زمن معين بين سنة ١٣٥٠ وسنة ١٢١٥ ق . م . وخلال ذلك القرن فلنفرض أن الخروج كان قريباً جداً من التاريخ الأول ؛ وأن أحداث قادش لم تكن بعيدة عن التاريخ الثانى ؛ ونفضل أن نستبقى الجزء الأكبر من الفترة للمرحلة التى تخللت الحدثين . ويلزم وقت طويل نسبيا لتبرد عواطف القبائل العائدة بعد مقتل موسى ، ولكى يقوى نفوذ شعب موسى ، اللاويين ، كما يفرض ذلك سلفاً الالتقاء فى قادش . وقد يكفى انقضاء جيلين ، أى ستين سنة ، ولكنه بالتقريب فقط . والتاريخ المستخلص من لوح مرينبتاح يقع فى وقت مبكر جداً ، ولما كنا نعرف ذلك من فرضنا ، فإن افتراضاً واحداً يقوم على افتراض آخر ، وهو أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن هذه المناقشة تفصح عن نقطة ضعيفة فى البناء . ولسوء الحظ فإن كل شىء مرتبط باستقرار الشعب اليهودى فى كنعان غامض ومشوش بدرجة عالية ؛ وبالطبع قد نستخدم وسيلة افتراض أن الاسم فى لوح إسرائيل لا يشير إلى القبائل التى نحاول تتبع مصيرها ، والتى توحدت فيما بعد فى شعب إسرائيل . فضلا عن أن اسم

العابيرو Habiru (Hebrews عبرانيون) منذ عصر العمارنة انتقل كذلك إلى هذا الشعب .

وعندما كان يحدث أن قبائل مختلفة تتوحد فى أمة بتقبل نفس الديانة ، فمن الجائز جداً أن لا يكون الحدث على قدر عظيم من الأهمية بالنسبة لتاريخ العالم ، ولكان من الممكن أن يكتسح سيل الأحداث الديانة الجديدة ، ولكان يهوه قد اتخذ مكانه فى ركب الآلهة القديمة التى صورها فلوبير[1] ، ولكان قد « فقد » شعبه بجميع قبائله الاثنتى عشرة ، وليس فقط العشرة قبائل التى ظل الأنجلو سكسون يبحثون عنها طوال تلك المدة . وربما لم يكن الإله يهوه الذى قاد إليه موسى المديانى شعبا جديداً ، ربما لم يكن كائناً عظيما بأى حال من الأحوال . فلقد كان إلها فظا . ضيق العقل ، محلياً ، عنيفاً ومتعطشاً للدماء ، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم «أرضاً تفيض لبنا وعسلا» ، وشجعهم على أن يخلصوا البلد من سكانه الحاليين « بحد السيف » . ومن المدهش حقاً أنه رغم كل هذه المراجعات لنص التوراة فقد سُمح للكثير أن يبقى ، وبه نتعرف على طبيعته الأصلية . وليس من المؤكد

---

(١) فلوبير : جوستاف فلوبير ، كاتب فرنسى ولد فى روين (١٨٢١ — ١٨٨٠) مؤلف الرواية الشهيرة « مدام بوفارى » (١٨٥٧) ، و «سالامبو» (١٨٨١) ، وكان يهتم بالأسلوب كثيراً ، كما كان يريد أن يقدم صورة للواقع ومع ذلك يضمنها سمات خيالية . (الحفنى) .

أن ديانته كانت ديانة توحيدية حقيقية ، وأنها أنكرت شخصية الله للمعبودات الأخرى . وربما كان يكفى أن إلهها يهوه كان أكثر قوة من كل الآلهة الغريبة . وعندما اتخذ تتابع الأحداث طريقاً آخر تماماً عما كانت مثل هـذه البدايات تجعلنا نتوقع ، فلا يمكن أن يكون هناك إلا سبب واحد لذلك . ولجزء واحد من الشعب أعطى موسى المصرى تصوراً آخر وأكثر روحية للاله ، إله يحتوى كل العالم ، إله هو كل الحب كما هو كل القوة ، يبغض كل الطقوس والسحر ، ويضع حياة ملؤها الحق والعدل كهدف اسمى للانسانية . ورغم أن معلوماتنا ضئيلة عن الجانب الأخلاقى لديانة أتون ، فإنه لأمر له دلالته أن أخناتون وصف نفسه فى نقوشه باعتباره « يعيش فى الماعت » (الحق والعدل[1]) وعلى المدى الطويل ، لم يكن يهم أن الشعب ، ربما بعد زمن قصير جداً ، نبذ تعاليم موسى وأزاح الرجل نفسه . ولـكن التراث نفسه بقى ووصل تأثيره — ولو أنه ببطىء ، وفى خلال قرون — إلى الهدف الذى استُنكر على موسى نفسه ، وحاز الإله يهوه شرفاً لم يكن يستحقه ، ابتداء من قادش فما بعدها ، عندما أضيف التحرير الذى قام به موسى لشعبه إلى حساب يهوه نفسه ، ولـكن

(١) تؤكد أناشيده ليس فقط عالمية ووحدانية الإله ، بل وحدبه المحب لـكل المخلوقات ، وهى تدعو المؤمنين إلى اجتلاء الطبيعة وما فيها من جمال . « بريستيد : فجر الوعى » . (فرويد) .

كان عليه أن يدفع ثمناً غالياً لهذا الاغتصاب ، فظل الإله الذى احتل مكانه صار أقوى منه ، وفى نهاية التطور التاريخى ارتفع أعلى من كيانه كيان إله موسى المنسى . وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإله الآخر وحدها هى التى مكنت شعب إسرائيل من أن يتغلب على كل مصاعبه وأن يعيش حتى وقتنا .

ولم يعد فى الإمكان تحديد الدور الذى لعبه اللاويون فى الانتصار النهائى لإله موسى على يهوه . وعندما تحقق الالتقاء فى قادش رفعوا صوتهم مؤيدين موسى ، فقد كانت ذاكرتهم ماتزال خضراء بسيدهم الذى كانوا هم أتباعه ومواطنيه . وخلال القرون منذ ذلك الوقت صار اللاويون واحداً مع الشعب أو مع كهنته ، وصار العمل الأساسى للكهنة هو تطوير الطقوس والإشراف عليها ، بالإضافة إلى العناية بالنصوص المقدسة ومراجعتها لتوافق أغراضهم . ولكن ألم تكن كل هذه التضحية والطقوس فى أعماقها مجرد سحر ، وسحر أسود ، من الطراز الذى أدانه المذهب القديم لموسى إدانة غير مشروطة ؟ وقام من وسط الشعب تتابع لاينتهى من الرجال ، لاينحدرون بالضرورة من شعب موسى ، ولكنهم كانو مأخوذين بالتراث العظيم القوى ، الذى نما تدريجيا فى الظلام . وكان أولئك الرجال ، الأنبياء ، هم الذين ثابروا على التبشير بمذهب موسى القديم : إن المعبود يزدرى

التضحية والطقوس ، إنه لايريد إلا الإيمان وحياة ماؤها الحقيقة والعدل (ماعت) — وواجه جهود الأنبياء نجاح ثابت ، وصارت المذاهب التى أعادوا بها إقامة العقيدة القديمة المضمون الدائم للديانة اليهودية . وإنه لشرف فيه الكفاية للشعب اليهودى أنه أبقى حياً تراثاً كهذا وأنتج رجالا أعطوه أصواتهم ، حتى ولو كان الدافع قد أتى أول الأمر من خارج ، من عظيم أجنبى[1] .

وهذا الوصف للأحداث كان من الممكن أن يتركنى بشعور من الشك لو لم يكن بوسعى أن أشير إلى باحثين خبراء آخرين يرون أهمية موسى بالنسبة لتاريخ الديانة اليهودية فى نفس الضوء ولو أنهم لايقرون أصله المصرى[2] . ويقول سيللين مثلا[3] ، «ومن ثم علينا أن نصور الديانة الحقيقية لموسى ، العقيدة التى أعلنها عن إله

---

(١) واضح هنا تباهى فرويد باليهودية وبعده عن الموضوعية فى اعتقاده بأن هناك شعبا خالصا هو الشعب اليهودى وحكمه على التراث بأنه عظيم وبأنه أنتج عظماء .

(٢) واضح هنا رغم ما يسوقه فرويد من أسئلة تثير الشك فى أصل موسى عليه السلام أن هناك آخرين عرضت لهم نفس الأسئلة ولم ينتهوا الى نفس نهاياته وهى نهايات كما رأينا متعسفة لأنه يتعسفها لتخدم غرضه وليست براهين علمية لحقائق موضوعية . (الحفنى) .

(٣) سيللين . المرجع السابق ص ٥٢ .

واحد أخلاق باعتبارها من الآن فصاعدا ، كأمر طبيعى ، منحازة إلى دائرة صغيرة داخل الشعب . وليس بوسعنا أن نتوقع أن نجدها منذ البداية فى المذهب الرسمى ، فى ديانة الكهنة ، فى العقيدة العامة للشعب . وكل مابوسعنا أن نتوقعه هو ، أنه هنا وهناك ، تطير شرارة من النار الروحية التى أوقدها ، وأن أفكاره لم تمت ، ولكنها أثرت فى هدوء على المعتقدات والعادات ، حتى تندفع مرة أخرى ، إن آجلا أو عاجلا ، تحت تأثير حوادث خاصة ، أو من خلال شخصية ماغارقة بوجه خاص فى هذه العقيدة ، شخصية أقوى ، وتحرز السيطرة على الجماهير العريضة من الشعب . ومن هذه الزاوية ينبغى أن ننظر إلى التاريخ الدينى المبكر للاسرائليين القدامى . ولو حاولنا أن نعيد بناء الديانة الموسوية على الطراز الذى وضع فى الوثائق التاريخية التى تصف ديانة الخمسة قرون الأولى فى كنعان ، لوقعنا فى أسوأ الأخطاء المنهجية » . ويعبر فولز[1] عن نفسه بوضوح أكثر ويقول : « إن عمل موسى المحلق فى السماء كان يفهم بصعوبة فى أول الأمر ، وينفذ بضعف ، حتى تخلل عبر القرون أكثر فأكثر فى روح الشعب ، ووجد أخيراً أرواحاً من طرازه فى الأنبياء العظام الذين واصلوا عمل المؤسس الذى كان وحده » .

(١) Paul Volz : Mose (Tubingen, 1907) P. 64

وبهذا أصل إلى نهاية ، فقد كان غرضى الوحيد أن أطابق صورة موسى مصرى داخل إطار التاريخ اليهودى ، وربما أستطيع الآن أن أعبر عن خاتمتى بأقصر صيغة : إلى الثنائية المعروفة لذاك التاريخ — شعبان اثنان يندمجان مع بعضهما ليكونا أمة واحدة ، مملكتان اثنتان تنقسم إليهما هذه الأمة ، اسمان اثنان للمعبود فى مصدر التوراة — نضيف اثنين جديدين : تأسيس ديانتين اثنتين جديدتين ، الأولى تنحيها الثانية ومع ذلك تعاود الظهور منتصرة ، مؤسسين دينيين اثنين ، يسميان بنفس الاسم ، اسم موسى ، وعلينا أن نفصل بين شخصيتيهما ، وكل هذه الثنائيات نتائج ضرورية للنتيجة الأولى : أن قسما من الشعب مر بما يمكن أن يسمى تسمية صحيحة تجربة أذوية ، أعنى الآخر منها ، ولا يزال هناك الكثير لمناقشته ولشرحه ولتأكيده ، فعندئذ فقط يمكن كفالة الاهتمام الكامل بدراستنا التاريخية المحضة . ما الذى تتكون منه بالضبط الطبيعة الباطنية للتراث ، وما الذى تقوم عليه قوته الخاصة ، وكيفية استحالة إنكار الأثر الشخصى لأفراد الرجال العظام على تاريخ العالم ، وأى تجديف ترتكبه ضد عظمة الحياة الإنسانية بتعدد أشكالها إذا سلمنا بأن دوافعها الوحيدة هى الدوافع التى تمليها

الحاجات المادية ، ومن أى المصادر تستمد بعض الأفكار ، وخاصة الأفكار الدينية ، القوة التى تُخضع بها الأفراد والشعوب — ودراسة كل ذلك فى الحالة الخاصة للتاريخ اليهودى عمل مغر . ومثل هذا الاستمرار فى مقالى سيرتبط بنتائج وضعتها منذ خمس وعشرين سنة فى مقالى (الطوطم والمحرم « Totem and Taboo ») ، ولكنى لا أثق فى قواى أكثر من ذلك إلا بمشقة .

●

موسى وشعبه والديانة التوحيدية

ملحوظات استهلالية

١ — كتبت قبل مارس سنة ١٩٣٨ (فيينا)

إننى بإقدام الشخص الذى ليس لديه ما يفقده أو لديه القليل ، أقترح خرق قرار كان له ما يبرره ، خرقه للمرة الثانية ، وأن أعقب مقالىّ الاثنين عن موسى (Imago, Bd XXIII,Heft 1 and 3) بالجزء الأخير الذى حجبته عن النشر حتى الآن ، وكنت قد قلت عند ما أنهيت المقال الأخير أنى أعرف جيداً أن قواى لن تكفى المهمة . وكنت بالطبع أشير إلى الضعف الذى يطرأ على قواى الإبداعية والذى يصاحب الشيخوخة[1] . ولكن هناك كذلك صعوبة أخرى ،

(١) لا أشارك معاصرى الموهوب برنارد شو الرأى أن البشر يمكن أن يحققوا شيئاً له قيمته إذا استطاعوا أن يصلوا مجرد وصول إلى سن ثلاثمئة سنة ، فمع مجرد إطالة فترة الحياة لا يمكن تحصيل شىء مالم يغير كذلك الكثير فى ظروف الحياة تغييراً جذرياً . (فرويد) .

وبرنارد شو هو الكاتب الأيرلندى (١٨٥٦ — ١٩٥٠) المسرحى الساخر الذى كتب نحو ٤٠ مسرحية اتسمت باللوذعية الشديدة والمفارقات الباهرة والحوار الذكى ، وهو اشتراكى ومن مؤسسى الجمعية الفابية الاشتراكية ، ومن رأيه أن=

فنحن نعيش فى زمن نابه جداً ، ونجد فى دهشة أن التقدم قد وقع تحالفاً مع البربرية . وفى روسيا السوفيتية بذلت المحاولة لتحسين الحياة لمائة مليون من الناس كانوا واقعين حتى الآن تحت المصادرة . وكانت السلطات من الجرأة بحيث سلبتهم مخدر الدين ، ومن الحكمة بحيث منحتهم إجراء معقولا من الحرية الجنسية Sexual . ولكنها أخضعتهم رغم ذلك لأقسى أنواع القهر ، وسلبتهم كل إمكانية حرية التفكير . وبوحشية مماثلة يدرب الشعب الإيطالى على النظام ومعنى للواجب[1] . وكان ثقلا حقيقيا تخفف منه القلب ، أن نجد فى حالة الشعب الألمانى ، إن النكوص إلى كل شيء إلا بربرية ما قبل التاريخ ، يمكن أن يمر مستقلا عن أى فكرة تقدمية . وليكن ما يكون ، فإن الحوادث قد اتخذت اليوم مساراً حتى باتت الديمقراطيات المحافظة رعاة التقدم الثقافى ، وأن مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية هذه ، للغرابة الشديدة ، قد أقامت مقاومة شديدة ضد الخطر الذى يتهدد الثقافة . الكنيسة الكاثوليكية التى كانت حتى الآن العدو المتشدد لكل حرية للفكر ، والتى عارضت بتصميم أى فكرة لهذا العالم يحكمها مقدما الاتجاه إلى إقرار الحقيقة !

= الفلاسفة يجب أن يحكموا العالم ، وأنهم لا يجب أن يحكموه قبل سن ٣٠٠ سنة ، وكان يرى أنه إذا أراد أن يعيش هذا العمر فالأمر متوقف على إرادته ، لأن الحياة عنده إرادة كما كان يرى الفيلسوف برجسون . (الحفنى) .

(١) يقصد المفهوم الفاشى للواجب فى ظل فاشية موسولينى . (الحفنى) .

ونحن نعيش هنا فى بلد كاثوليكى وتحت حماية هذه الكنيسة ، ولا نعرف على وجه اليقين كم تطول الحماية[1] . وطالما هى مستمرة أتردد بالطبع فى أن أفعل أى شىء من شأنه أن يوقظ عداء تلك الكنيسة . إنه ليس الجبن ، ولكنه الحذر . إن العدو الجديد[2] — وسأحاذر أن أفعل أى شىء من شأنه أن يخدم مصالحه — أخطر من القديم الذى تعلمنا أن نعيش معه فى سلام . وتنظر الكاثوليكية على أى حال إلى بحوث التحليل النفسى باهتمام شكاك . ولا أقول أن التحليل النفسى لا يستحق هذا الشك . فإذا كان بحثنا يؤدى إلى نتيجة تقلل من الدين وتجعله فى مستوى المرض العصبى الذى يصيب الإنسانية وتفسر قواه العظيمة بنفس الطريقة التى نفسر بها الهوس العصبى الذى يصيب أفراد مرضانا ، فإن لنا أن نتأكد أننا سنستجلب أكبر السخط من السلطات القائمة . وليست المسألة أن لدى أى شىء جديد أريد أن أقوله ، فليس لدى شىء لم أعبر عنه بوضوح منذ ربع قرن مضى . ومع ذلك فقد تنوسى كل ذلك ، ولا شك أنه سيكون له بعض الأثر لو أعدت قوله الآن وصورته بمثال على غرار الطريقة التى تؤسس عليها الديانات . وقد تؤدى إلى

(١) يقصد حياته فى النمسا حيث تسيطر الكنيسة الكاثوليكية فى الثلاثينيات ، وكان فرويد قد هاجر إلى لندن سنة ١٩٣٨ هربا من امتداد النفوذ النازى إلى النمسا من بعد . (الحفنى) .

(٢) النازية . (الحفنى) .

منعنا من مزاولة التحليل النفسى . ولكن مثل هذه الطرق العنيفة للكبت غريبة كلية على الكنيسة الكاثوليكية ، وهى تحس كما لو كان هذا تدخلا فى امتيازاتها عندما يلجأ الناس الآخرون إلى نفس الوسائل . ومع ذلك فالتحليل النفسى ، الذى سافر إلى كل مكان خلال رحلة عمرى الطويلة ، لم يجد بعد بيتاً خدوما أكثر من المدينة التى ولد بها ونما .

وإنى لا أظن ذلك فقط ، ولكن أعلم أن هذا الخطر الخارجى سيمنعنى من نشر الجزء الأخير من بحثى عن موسى . وحاولت أن أرفع هذه العقبة بأن أقول لنفسى أن خوفى يقوم على مغالاة فى التقدير لأهميتى الشخصية ، وأن السلطات لن تبالى تماما لما سأقوله عن موسى وعن أصل الديانات التوحيدية . ومع ذلك لا أحس انى متأكد أن حكمى على صواب . ويبدو لى أكثر احتمالا أن الحقد وشهوة الإثارة سيعوضان الأهمية التى تنقصنى فى أعين العالم . ومن ثم فلن أنشر هذا المقال . ولكن ذلك لاينبغى أن يمنعنى من كتابته . وخاصة طالما أنه كتب من قبل ، منذ سنتين ، ولا يحتاج لذلك إلا لإعادة الكتابة والإضافة إلى المقالين الاثنين السابقين . ومن ثم فقد يظل مخفيا حتى يحين الوقت عندما قد يجرؤ على الظهور فى أمان إلى نور النهار ، أو حتى يمكن أن يقال لشخص ما آخر يصل إلى نفس الآراء والنتائج : « فى الأيام الأظلم عاش رجل فكر كما فكرت » .

٢ — يونيو سنة ١٩٣٨ (لندن)

إن المصاعب الضخمة بدرجة غير عادية والتى أثقلت على خلال تأليفى لهذا المقال عن موسى — والتى هى عبارة عن شكوك داخلية ، وكذلك معوقات خارجية — هى الأسباب التى أدت إلى أن يكون لهذا الجزء الثالث والأخير مقدمتان مختلفتان يعارض كل منهما الآخر ، بل الواقع أن أحدهما يلغى الآخر . وذلك لأنه فى الفترة القصيرة بين كتابة المقدمتين تغيرت الظروف الخارجية المؤلف تغييراً جذريا . فلقد عشت فيما سبق فى حماية الكنيسة الكاثوليكية ، وخشيت إن أنا نشرت المقال أن أفقد تلك الحماية ، وأن يُمنع أطباء وطلبة التحليل النفسى فى النمسا من ممارسة عملهم . ثم فجأة أطبق الغزو النازى علينا وأثبتت الكاثوليكية كما يقول الإنجيل أنها « قصبة مكسورة » . وفى يقين الاضطهاد — الآن ليس بسبب عملى وحده ولكن بسبب « جنسى »[١] أيضا — غادرت مع عدد كبير من الأصدقاء المدينة التى كانت بيتا لى منذ طفولتى الباكرة وخلال ثمانى وسبعين سنة .

ووجدت أحر الترحيب فى انجلترا الجميلة الحرة الكريمة . وهنا أعيش الآن ، ضيفا معززاً قد أعفيت من ذلك الاضطهاد ، وسعيداً

---

(١) يتحدث فرويد عن اليهودية هنا باعتبارها جنسا race وليست ديانة .

لأنى قد أتحدث مرة أخرى وأكتب وأكاد أقول «أفكر» كما أريد أو كما ينبغى . وإنى لأجرؤ الآن أن أنشر الجزء الأخير من مقالى .

لا يوجد بعد مزيد من المعوقات الخارجية أو على الأقل لا يوجد منها شيء إطلاقا مما يمكن أن يصيب الانسان بالذعر . وفى الأسابيع القليلة من إقامتى تلقيت عدداً كبيراً من التحيات ، من أصدقاء عبروا لى عن بالغ سرورهم لرؤيتى هنا ، ومن أناس لا أعرفهم ، وليس لهم اهتمام بذكر بعملى ، ولكنهم عبروا تعبيراً بسيطا عن رضاهم لأنى قد عثرت على الحرية والأمن هنا . وبالإضافة إلى كل ذلك وصلتنى خطابات من نوع آخر ، بكثرة محيرة للأجنبى ، تعبر عن قلقها تجاه الصلاح الذى تطلبه لروحى ورغبتها الدافقة فى هدايتى إلى طريق المسيح وإلى إثارتى حول مستقبل شعب إسرائيل . وإن الناس الطيبين الذين كتبوا هكذا لم يكن فى وسعهم أن يعرفوا الكثير عنى — وإنى لأتوقع على ذلك أنه عندما يذيع هذا العمل الجديد لى بين مواطنى الجدد سأفقد مع مراسلىّ ومع عدد من الآخرين شيئا من التعاطف الذى يشملونى الآن به .

أما الصعوبات الداخلية فإن النظام السياسى المختلف والوطن الجديد لن يغيرا منها ، فالآن كما فى الماضى أحس بالقلق عندما يواجهنى عملى ، وأفتقد الاحساس بالوحدة وبالتآلف اللذين ينبغى أن يتواجدا بين المؤلف وبين عمله . وهذا لا يعنى أن الاقتناع بصواب نتائجى

ينقصنى ، فذلك الاقتناع حزته منذ ربع قرن مضى عندما كتبت كتابى «الطوطم والمحرم» Totem and taboo (سنة ١٩١٢) واستمر يقوى ، ومنذ ذلك الحين لم أشك فى أن الظواهر الدينية لا تفهم إلا على منوال المظاهر العصابية للفرد ، والتى اعتدنا ، جدا ، على أنها بمثابة رجوع لأحداث هامة ، قد عفى عليها النسيان طويلا ، من التاريخ البدائى للأسرة الانسانية ، وأنها مدينة بهذه الصفة الحصرية إلى ذلك الأصل نفسه ، ومن ثم فهى تستمد تأثيرها فى البشرية من الحقيقة التاريخية التى تحتوى عليها . ولا يبدأ عدم يقينى إلا عند النقطة التى أسائل فيها نفسى عما إذا كنت قد نجحت فى إثبات ذلك فى حالة التوحيد اليهودى الذى اخترته هنا . ويبدو لقواى النقدية أن هذا البحث ، وقد بدأ من دراسة موسى الانسان ، كما لو كان راقصا يقف متوازنا على إصبع واحد ، وإذا لم يكن بوسعى أن أجد التأييد فى التفسير التحليلى لأسطورة التعرض للماء وأعبر منها إلى اقتراح سيللين المتعلق بنهاية موسى ، فإن البحث كله كان من الواجب أن يظل دون كتابة . ومع ذلك دعونى أبدأ .

إننى أبدأ بأن أستخلص نتائج مقالى الثانى عن موسى ، وهى نتائج تاريخية محضة . ولن أفحصها هنا فحصا نقديا طالما أنها مقدمات لمناقشات السيكولوجية التى تقوم عليها والتى تحيل إليها باستمرار .

القسم الأول

١ — المقدمات التاريخية

إن الخلفية التاريخية للأحداث التي أثارت اهتمامنا هي كالتالي : صارت مصر من خلال فتوحات الأسرة الثامنة عشرة امبراطورية عالمية . وانعكست الإمبريالية الجديدة في تطور بعض الأفكار الدينية ، إن لم يكن في أفكار الشعب كله ، فعلى الأقل في أفكار الطبقة العليا الحاكمة والفعالة ثقافيا . وتحت تأثير كهنة إله الشمس في أتون (هليوبوليس) ، والذي ربما قوته أفكار مصدرها آسيا ، قامت هناك فكرة إله عالمي ، أتون — لم يعد مقصوراً على شعب واحد وبلد واحد . واعتلى الفرعون الشاب أمينحوتب الرابع العرش (الذي غير اسمه فيما بعد إلى أخناتون) ولم يول شيئا عناية أكبر من عنايته بتطوير فكرة هذا الإله . ورفع ديانة أتون فأصبحت الديانة الرسمية ، وبذلك صار الإله العالمي هو الإله الواحد ؛ ووصف كل ما كان يقال عن الآلهة الأخرى بأنه غش وخداع ؛ وقاوم بصلابة هائلة كل مغريات الفكر السحري ونبذ الوهم الأثير بصفة خاصة للمصريين . نبذ هذا الوهم والفكر الذي يقول بحياة بعد الموت ؛

وكشف بتنبؤ رائع للمعرفة العالمية اللاحقة ، فى طاقة الإشعاع الشمسى مصدراً لكل حياة على الأرض ، وعبد الشمس كرمز لقوة إلهه ، وتمجد بفرحته فى الخلق وفى حياته فى الماعت (الحقيقة والعدل) .

إنها الحالة الأولى فى تاريخ البشرية ، وربما كانت الأنقى ، لديانة توحيدية . وإن المعرفة المتعمقة للظروف التاريخية والسيكولوجية لنشأتها لمعرفة لها قيمتها التى لا تقدر . ولقد اتخذت الاحتياطات ألا تصلنا معلومات كثيرة عن ديانة أتون ، وكان كل شىء قد دمر فى حكم خلفاء أخناتون الضعاف ، وصب الكهنة الذين اضطهدهم غضبهم عليه فى الآثار التى تذكر به . وقضى على ديانة أتون ، وأزيلت عاصمة الفرعون الكافر ونهبت ، وانتهى أمر الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٣٥٠ ق . م ، وبعد فترة سادتها الفوضى أعاد القائد حور محب النظام وحكم حتى سنة ١٣١٥ ق . م ، وبدت إصلاحات أخناتون كما لو كانت حادثا مصيره إلى النسيان .

هذا هو ما تقرر تاريخيا ، وعند هذه النقطة يبدأ العمل فى الرأى الذى نراه ، وربما كان هناك رجل بين خلصاء أخناتون يدعى توتمس Thothmes كما كان يدعى الكثيرون فى ذلك الوقت[١] ولا يهم الاسم ولكن الجزء الثانى من اسمه لابد كان «موسى Mose»

(١) كان هذا الاسم كذلك مثلا هو اسم المثّال الذى اكتشف مرسمه فى تل العمارنة . (فرويد) .

وكان يشغل منصبا كبيرا ، وكان من المؤمنين المقتنعين بديانة آتون ، ولكنه كان على نقيض الملك المتأمل ، كان ذا قوة وعاطفة متدفقة ، وكان موت أخناتون والقضاء على ديانته يعنى بالنسبة لهذا الرجل نهاية كل آماله . ولم يكن يستطيع أن يبقى فى مصر إلا منفيا أو أن يرجع عن دينه وينكره . وإذا كان حاكما لإقليم من أقاليم الحدود فمن المرجح أنه اتصل بقبيلة سامية معينة كانت قد هاجرت منذ بضعة أجيال ، وتحول فى يأسه وفى وحدته إلى أولئك الأغراب وبحث فيهم عن تعويض لما كان قد فقده ، واختارهم ليكونوا شعبه ، وحاول أن يحقق من خلالهم مُثُله ، وبعد أن غادر مصر معهم ، يصحبه أتباعه الملاصقون ، باركهم بختانهم ومنحهم الشرائع وبشرهم بديانة أتون التى كان قد نبذها المصريون توا . وربما كانت الشرائع التى أخذ بها موسى يهوده كانت أقسى من الشرائع التى استنها سيده ومعلمه أخناتون ، وربما كان قد ألغى كذلك الارتباط بإله الشمس فى أون ، الذى كانت ديانة أخناتون ما تزال من المؤمنين به .

ويجب أن نحدد زمن الخروج من مصر بأنه جرى خلال الفترة التى وقعت بين حكم أخناتون وحكم من ولى العرش بعده سنة ١٣٥٠ ق.م. وتغمض بصفة خاصة الفترات الزمنية التالية حتى امتلاك أرض كنعان . ومن الظلام الذى تركه نص التوراة هنا — أو الذى خلقه بالأحرى —

بوسع البحث التاريخى لعصرنا أن يميز واقعتين ، الأولى اكتشفها إرنست سيللين ومؤداها أن اليهود الذين وصفتهم ألتوراة نفسها بأنهم كانوا عنيدين لايطيعون مشرعهم وزعيمهم ، وتمردوا عليه آخر الأمر وقتلوه وطرحوا عنهم ديانة أتون التى فرضها عليهم كما فعل المصريون من قبلهم ؛ والواقعة الثانية دلل عليها إدوارد ميير ومؤداها أن هؤلاء اليهود عند رجوعهم من مصر اتحدوا بقبائل كانت لهم بهـا تقريبا صلات نسب ، فى المنطقة الواقعة على حدود فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية . وأنهم هناك ، فى بقعة خصبة اسمها قادش وتحت تأثير قبائل مديان العربية ، اعتنقوا ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين يهوه ، وبعـد ذلك مباشرة كانوا مستعدين أن يفتحوا أرض كنعان .

ولا تتأكد العلاقة فى الزمن بين هذين الحدثين إلى بعضهما البعض وإلى الخروج . وتأتى الاشارة التاريخية التالية فى لوح مرنبتاح الذى حكم مصر حتى سنة ١٢١٥ ق . م . والذى يعدد إسرائيل على رأس المهزومين فى غزواته التى قام بها فى سوريا وفلسطين . وإذا أخذنا تاريخ هـذا اللوح كحد أقصى ، فإنه يتبقى على كل مجرى الأحداث ، ابتداء من الخروج ، نحو قرن — بعد سنة ١٣٥٠ حتى ماقبل سنة ١٢١٥ . ومن المحتمل كذلك أن يكون اسم إسرائيل

اسما لا يشير إلى القبائل التى نتابع هنا مصيرها ، وأننا فى الواقع نملك فترة أطول تحت تصرفنا . واستقرار الشعب اليهودى المتأخر فى كنعان لم يتحقق بالتأكيد بسرعة ، بل كان بالأحرى سلسلة من النضال المتتابع، ولابد أنه امتد على مدى فترة طويلة نوعا ما . وإذا نبذنا التحديد الذى يفرضه لوح مرنبتاح فإن لنا أن نفترض بسرعة مرور ثلاثين سنة ؛ أى انقضاء جيل ، هو الوقت الذى استغرقته بعثة موسى[1] ، ومرور جيلين على الأقل ، ومن المحتمل أكثر ، حتى تحقق الاتحاد فى قادش[2] . ولا يحتاج الأمر إلى أن تكون الفترة التى تخللت الاتحاد فى قادش والارتحال إلى كنعان فترة طويلة . وللتراث اليهودى أسبابه القوية — كما أوضحت ذلك فى مقالى السابق — فى تقصير الفترة التى تخللت الخروج وتأسيس ديانة فى قادش ، ولكن بحثنا يميل بنا إلى أن نؤيد الرأى المغاير لذلك .

ولقد انصب اهتمامنا حتى الآن على النواحى الخارجية للقصة ، وعلى محاولة لملأ فراغات معرفتنا التاريخية — فى جزء منها إعادة لمقالى الثانى . ويتابع اهتمامنا مصير موسى وعقائده التى وضع لها

(١) يتفق هذا مع القول بأن التيه فى الصحراء استغرق أربعين سنة كما يقول التوراة . (فرويد) .

(٢) أى ما بين نحو ١٣٥٠ و ١٣٤٠ إلى ١٣٢٠ و ١٣١٠ لبعثة موسى ، و ١٢٦٠ أو ربما بعد ذلك بقليل للاتحاد فى قادش ، أما لوح مرنبتاح فزمنه قبل سنة ١٢١٥ . (فرويد) .

اليهود نهاية ظاهريا فقط . ومن الرواية التى تدور حول يهوه — والتى كتبت نحو سنة ١٠٠٠ ق . م ولو أنها من غير شك تأسست على مادة يقع تاريخها قبل ذلك — عرفنا أن الاتحاد بين القبائل وتأسيس ديانة قادش كان يمثل التقاء ، ما يزال من الممكن تمييز الجزئين اللذين يكونانه بسهولة . وكان اهتمام أحد الشريكين منصبا فقط على إنكار حداثة وأجنبية الإله يهوه وإذكاء دعواه بأحقيته فى ولاء الشعب له — أما الشريك الآخر فيرفض أن ينبذ الذكريات ، العزيزة عليه الأثيرة عنده ، عن التحرر من مصر ، وعن الصورة الرائعة لزعيمه موسى ، والواقع أنه نجح فى العثور على مكان للواقعة وللإنسان فى الصورة الجديدة للتاريخ اليهودى المبكر ، وفى الاستبقاء على الأقل للعلامة الخارجية للديانة الموسوية — نعنى الختان — وفى الإصرار على قيود معينة فى استخدام الاسم الإلهى الجديد . وقلت إن الشعب الذى أصر على تلك المطالب هو من نسل أتباع موسى ، اللاويين ، الذين كانت تفصلهم عدة أجيال قليلة فقط عن معاصرى ومواطنى موسى الحقيقيين ، والذين كانوا متعلقين بذكراه عن طريق تراث ما يزال أخضر . وتشبه الروايات المنسوجة نسجاً شعرياً والتى تنسب إلى الإله يهوه وإلى منافسه اللاحق الإله « إيل » ، تشبه شواهد المقابر ، وينبغى ، كما يتراءى لى ، أن توسد ، أسفلها فى

راحة أبدية ، الحقائق عن هذه الأمور المبكرة ، وعن طبيعة الديانة الموسوية ، وعن الاستبداد العنيف للرجل العظيم — حقائق استخلصت من المعرفة التى للاجيال اللاحقة . فإذا كنا قد رأينا مجرى الأحداث على النحو الصحيح فلن يكون فيها شىء غامض ، ومن الجائز جداً أن تكون هى النهاية المحددة لقصة موسى فى تاريخ الشعب اليهودى .

والشىء الرائع فيها هو أن هذا هو الذى لم يحدث ، وأن الآثار الأكثر أهمية للتجربة ظهرت بعد ذلك بكثير ، وأنها فى خلال قرون عديدة شقت طريقها إلى التعبير . ومن غير المحتمل أن يهوه كان مختلفاً إختلافاً شديداً فى الشخصية عن آلهة الشعوب والقبائل المجاورة . لقد تصارع مع الآلهة الأخرى ، هذا حقيقة ، مثلما تحاربت القبائل فيما بينها ، ومع ذلك فلنا أن نتصور أن الإنسان الذى يعبد يهوه فى ذلك العصر ما كان يحلم إطلاقاً أن يشك فى وجود آلهة كنعان ومواب وعماليق إلخ ، أو فى وجود الشعوب التى تؤمن بها . ولقد حجبت مرة أخرى الفكرة التوحيدية التى توهجت فى عصر أخناتون ، وكان عليها أن تبقى فى الظلام لمدة طويلة بعد ذلك . وعلى جزيرة الفيل القريبة من الشلال الأول على النيل أثمرت الكشوف معلومة مدهشة تقول إن مستعمرة عسكرية يهودية أقامت

هناك منـذ قرون مضت ، وعبـدت فى معابدها بالإضافة إلى إلهها الرئيسى ياهو ، معبودتين مؤنثتين ، كانت إحداهما تسمى « عنـات — ياهو Anat—Jahu » . والواقع أن هؤلاء اليهود قد انفصلوا عن بلدهم الأم ، وأنهم لم يمروا خلال نفس التطور الدينى . وأوصلت لهم الحكومة الفارسية (فى القرن الخامس قبل الميلادى) تنظيمات الطقوس الجديدة فى أورشليم(١) . ولو عدنا للعصور الأولى نستطيع أن نقول بجزم أن يهوه لم يكن أبداً يشبه إله موسى ، فقد كان أتون مسالماً مثل رسوله الذى بشر به على الأرض — أو مثل نموذجه الأرضى بمعنى أصح — الفرعون أخناتون ، الذى كان ينظر بذراعين متعانقين بينما الإمبراطورية التى فاز بها أسلافه تتهاوى إلى قطع . وبالنسبة لشعب كان يعد نفسه لغزو أراض جديدة بالعنف كان يهوه يتلاءم معهم أكثر . علاوة على ذلك إن ما كان جديراً بالشرف فى إله موسى كان يتجاوز إدراك شعب بدائى .

ولقد سبق أن ذكرت — وفى ذلك تؤيدنى آراء آخرين — أن الحقيقة المركزية لتطور الديانة اليهودية كانت : أن يهوه فقد سماته الشخصية على مر الزمن وصار أكثر فأكثر مثل أتون إله

---

(١) Auerbach : Wuste und gelobtes Land, Bd. II (1936) . (فرويد) .

موسى القديم . وبقيت الاختلافات ، هذا حقيق ، وهى اختلافات تبدو هامة للوهلة الأولى ، ومع ذلك فتفسيرها سهل . لقد بدأ أتون حكمه فى مصر فى فترة آمنة سعيدة . وحتى والإمبراطورية قد بدأت تهتز من أساسها ، استطاع أتباعه أن يتحولوا عن المسائل الدنيوية وأن يواصلوا امتداح ما خلقه والاستمتاع به . أما الشعب اليهودى فقد قيض له القدر سلسلة من الامتحانات القاسية والتجارب المؤلمة ، ومن ثم صار إلهه إلهاً صلباً قاسياً مندثرا بالكآبة كما كان فى الواقع . واستبقى صفة الإله العالمى الذى يحكم كل الأراضى والشعوب ، ولكن حقيقة أن عبادته انتقلت من المصريين إلى اليهود وجدت التعبير عنها فى المذهب الذى أضيف إلى الديانة اليهودية ، والذى يقول أن اليهود كانوا شعبه المختار ، وإن التزاماتهم الخاصة ستجد فى النهاية ثوابها الخاص . وربما لم يكن من السهل على ذلك الشعب أن يوفق بين اعتقاده فى تفضيل إله علىّ قدير لهم على سائر العالمين وبين التجارب المرة لمصيره المحزن .

ولكنهم لم يدعوا الشكوك تهاجمهم ، وزادوا أحاسيسهم بالذنب ليسكتوا إحساسهم بعدم الثقة ، وربما انتهوا إلى أن يشيروا إلى « إرادة الإله التى لا يدرك كنهها أحد » كما يفعل المتدينون حتى اليوم . وإذا كان هناك عجب فى سماحه لمجىء المزيد من الطغاة الجدد

الذين اضطهدوا وأساءوا إلى شعبه — الأشوريون والبابليون والفرس — فإن قوته مع ذلك بانت فى قهره لكل هؤلاء الأعداء الأشرار بدورهم وتدمير إمبراطورياتهم .

وتشابه الإله اليهودى فى صورته المحدثة مع إله موسى القديم فى ثلاث نقاط هامة : النقطة الأولى والحاسمة هى الإقرار به إلهاً واحداً لا إله إلا هو ، والوحدانية التى قال بها أخناتون آمن بها كل الشعب إيماناً صادقاً ، والواقع أن هذا الشعب التصق بهذه الوحدانية لدرجة أنها صارت المحتوى الأساسى لحياتهم الثقافية وحلت محل جميع الاهتمامات الأخرى وأجمع الشعب وكهنته ، وكانوا قد أصبحوا الجزء المهيمن على أمره ، إجماعاً على تلك النقطة ، ولكن الكهنة فى قصر نشاطهم على استكمال طقوس عبادته ، وجدوا أنفسهم فى تعارض مع اتجاهات قوية داخل الشعب تحاول أن تحيى عقيدتين أخريين من عقائد موسى عن إلهه . وارتفع صوت أنبياء إسرائيل يدعو بلا كلل إلى أن الإله يأنف من الطقوس وتقديم الأضاحى ، وأنه لا يطلب شيئاً سوى الإيمان به وبالحياة فى الحقيقة والعدل . وعندما أثنوا على بساطة وقداسة حياتهم فى الصحراء كانوا بالتأكيد تحت تأثير المثل التى بشر بها موسى .

والآن حان الوقت لطرح السؤال عما إذا كانت هناك أية حاجة

إطلاقا لأن نستبعد أثر موسى على الشكل النهائى لفكرة اليهود عن إلههم ، وعما إذا لم يكن يكفى أن نفترض تطوراً تلقائياً إلى روحانية أعلى خلال حياة ثقافية تمتد على مدى قرون كثيرة . وانى لأود أن أبدى تعليقين ، على هذا التفسير الجائز الذى يمكن أن يضع نهاية لكل ما نخمنه . الأول أنه لا يفسر أى شيء ، فالظروف نفسها لم تؤد بالشعب اليونانى الى اعتناق الوحدانية ، مع أنه كان بالتأكيد شعباً موهوبا جداً ، ولكن موهبته لم تؤد به إلا إلى تحطيم ديانة تعدد الآلهة وإلى بداية التفكير الفلسفى . ونمت الوحدانية فى مصر — إلى الحد الذى نفهم به نموها — كنتيجة ثانوية للإمبريالية ، كان الإله هو انعكاس لصورة فرعون الذى يحكم الإمبراطورية العالمية الكبيرة حكما استبداديا . أما بالنسبة لليهود فلم تكن الظروف السياسية مواتية أبدا لتطور يبعد بهم عن فكرة إله قومى يحتكرونه لأنفسهم إلى فكرة حاكم عام للعالم . ومن ثم فإن السؤال عن أصل الوحدانية بين اليهود سيظل بلا جواب ، أو أن علينا أن نرضى بالإجابة الجارية التى تقول بأن الوحدانية كانت تعبيراً عن عبقريتهم الدينية الخاصة . ونحن نعلم أن العبقرية شيء غير مفهوم وغير مسئول ، ولذلك لا ينبغى أن نلجأ اليها كتفسير حتى يفشل كل حل آخر[1] .

(١) ينطبق نفس الشيء على الحالة المشهورة لوليام شكسبير (الشاعر الانجليزى) الذى ولد فى ستراتفورد . (فرويد) .

علاوة على ذلك هناك حقيقة أن السجلات والتاريخ اليهودى نفسه تبين لنا الطريق بأن تقرر تقريرا جازماً — دون التعارض مع بعضها البعض هـذه المرة — بأن موسى هو الذى أعطى الشعب فكرة الإله الواحد . فإذا كان هناك ما يُعترض به على صحة هـذا التقرير ، فهو أن الأحبار عنـد ما أعادوا كتابة نص التوراة إلى الصورة التى نعرفها بها الآن ، قد نسبوا الكثير جدا إلى موسى . وقيل عن التشريعات وأحكام الطقوس التى تخص بلا شك العصور اللاحقة أنها قوانين موسوية ، والهدف من ذلك واضح ، وهو الإعلاء من سلطتها . ولا ريب أن هـذا سبب يثير الشك ، ولكنه شك لا يرقى إلى درجة أن نلجأ إليه لاستخدامه ، لأن الدافع الأعمق لمثل هذه المبالغة واضح كضوء النهار . وأراد الأحبار فى الروايات التى قدموها أن ينشئوا جسرا يصل بين عصورهم التى عاشوا فيها وبين العصر الذى وجد فيه موسى . وحاولوا أن ينكروا بما بدأنا نسلم أنه أبرز سمات التاريخ الدينى اليهودى : ألا وهو وجود شقة بين تنزيل الشريعة الموسوية وبين الديانة اليهودية اللاحقة — شقة ملئت فى أول الأمر باللجوء الى عبادة يهوه ، ولم يسع أحد لتغطيتها الا فيما بعد وببطء . وتنكر الروايات التى قدموها هذا التسلل للأحداث بكل ما تملك من قوة ، مع أن صلتها التاريخية شىء لا يرقى إليه أى شك طالما أن نص التوراة (رغم التغييرات التى اعتورته على مر

الزمن)[1] يستبقى أكثر مما يكفى من البراهين التى تدلل عليها . وكان لنسخة الأحبار هدف يشبه هدف الاتجاه الذى جعل الإله الجديد يهوه هو إله الآباء . فإذا أخذنا فى الاعتبار هذا الدافع الذى كان التشريع الكهنوتى ، فمن الصعب ألا نعتقد بأن موسى كان حقيقة مانح شعبه اليهودى الفكرة التوحيدية . ولسوف نجد أنه من الأسهل أن نوافق على ذلك طالما أن فى وسعنا أن نقول من أين أتت الفكرة إلى موسى — وهو شىء لابد أن الأحبار اليهود كانوا قد نسوه .

وهنا قد يسأل بعضهم ، ما الذى نجنيه من نسبة التوحيد اليهودى إلى المصريين ، وأننا بذلك لم نفلح إلا فى الرجوع بالمشكلة خطوة إلى الوراء ، ولكننا مع ذلك نعلم شيئاً عن أصل الفكرة التوحيديه . والإجابة على هذا السؤال هى أن المسألة ليست مسألة مانجنيه ، ولكنها مسألة تتعلق بالبحث ، وربما تعلمنا شيئاً ونحن نوضح العملية الحقيقية .

●

(١) يقر فرويد بحدوث تغييرات فى التوراة ، ومع ذلك فهو يتخذه دليلا على جدية موضوعه . (الحفنى) .

٢ — فترة الكمون والتراث

وهكذا أعتقد أن فكرة الإله الواحد، وكذلك الإبراز للمطالب الأخلاقية باسم ذلك الإله، ونبذ كل الطقوس السحرية، كان فعلا من العقيدة الموسوية، ولكنها لم تلق فى أول الأمر استجابة، إلا أنها لاقت تلك الاستجابة بعد زمن طويل، وأخيراً عقدت لها السيادة. كيف يمكن تفسير هذه النتيجة التى جاءت متأخرة، وأين نلتقى بظاهر مشابهة ؟.

وتقول لنا نظرتنا التالية أن هذه المظاهر نصادفها كثيراً فى مجالات مختلفة جداً، وأنها تحدث من الجائز بطرق مختلفة سهلة الفهم بشكل أو بآخر. ولنأخذ كمثال مصير أية نظرية علمية جديدة، مثلا نظرية الارتقاء لداروين[1]. إنها تقابل فى أول الأمر بالرفض المعادى، وظلوا يناقشونها فى عنف لبضع سنوات، واستغرقت مع ذلك جيلا واحدا قبل أن يسلموا بها كخطوة كبيرة نحو الحقيقة. ومنح «داروين» نفسه شرف الدفن فى « وستمنستر أبى »[2]. ولا يوجد لغز فى حالة كهذه. لقد أيقظت الحقيقة الجديدة مقاومات لها أثرها. وكان فى

(١) تشارلز داروين : عالم طبيعى بريطانى قال بالتطور والارتقاء، ولاقت نظريته اضطهادا وتنكيلا لها من الكنيسة، لأنها كانت تخالف نظرية الخلق فى التوراة. (الحفنى) .

(٢) مكان يدفن فيه عظماء بريطانيا . (الحفنى) .

الإمكان مساندة هذه المقاومات بحجج تعارض الشواهد المؤيدة للنظرية الكدرة . وظل صراع الآراء لفترة من الوقت . ومن البداية الأولى كان هناك المؤمنون بها والمعارضون لها ، ولكن عدد المؤمنين وأهميتهم كان يزيد ثباتا حتى صارت لهم الغلبة أخيراً . وطوال وقت الصراع لم ينس أحد القضية قيد البحث . ولا يدهشنا أن نجد أن العملية كلها استغرقت وقتاً طويلا ، ومن المحتمل أننا لانستسيغ بالمثل حقيقة أننا نتعامل هنا مع ظاهرة من ظواهر علم النفس الجماعى . ولا توجد صعوبة فى العثور على تشابه كامل بينها وبين الحياة العقلية للفرد . وفى مثل هذه الحالة نسمع عن شىء جديد ، يطلب منا استنادا إلى الشواهد المقدمة أن نقبله كحقيقة ، ومع ذلك فإنه يتعارض مع الكثير من أمانينا ويغضب بعضا من معتقداتنا التى نعتز بها كثيراً . ولسوف نتردد حينئذ ، ونبحث عن حجج نثير بها الشك حول المادة الجديدة ، ونناضل لذلك لفترة حتى نسلم به أخيراً : « مع ذلك فهذا حقيقى ، ولو أنى أجد صعوبة فى تقبله ، ومن المؤلم أن أضطر إلى الإيمان به » . وكل ما نعلمه من هذه العملية هو أنها تحتاج إلى الوقت كى يتغلب العمل الفكرى الأنا على الاعتراضات التى تبديها المشاعر القوية . ومع ذلك فهذه الحالة ليست مشابهة تماما للحالة التى نحن بصدد توضيحها .

ويبدو المثل التالى الذى نضرب به أقل ارتباطا بالمشكلة التى نعالجها ، فقد يحدث أن يخرج شخص ما ، وكأنه لم يؤذ ظاهريا من مكان عانى فيه حادثا كأن يكون تصادم قطار . وفى خلال الأسابيع التالية مع ذلك تتطور لديه سلسلة من الأعراض النفسية والحركية والتى لا يمكن أن ترجع إلا إلى صدمته أو لأى شىء آخر حدث فى وقت وقوع الحادث . لقد أصيب « بعصاب أذوى »[1] . ويبدو ذلك غير مفهوم بالمرة ، ومن ثم فهو حقيقة جديدة ، ويسمى الوقت الذى انقضى بين وقوع الحادث وأول ظهور الأعراض «دور الحضانة» ، تشبها بشكل خفيف بما يحدث فى علم الأمراض المعدية . ونلاحظ بالمراجعة الثانية — وبالرغم من الاختلاف الأساسى بين الحالتين ، حالة العصاب الأذوى وحالة التوحيد اليهودى — أن هناك تشابها فى نقطة واحدة هى السمة التى يمكن أن نطلق عليها اصطلاح «الكمون» ، فهناك من الأسباب أقواها للاعتقاد بأنه فى تاريخ الديانة اليهودية كانت هناك فترة طويلة ، بعد قطع اليهود لصلتهم بالديانة الموسوية ، لا يوجد بها أى أثر لفكرة التوحيد والنهى عن الطقوس والتأكيد على الجانب

---

(١) عصاب نفسى تحركه صدمة عاطفية كما هو الحال فى الهستيريا وفى بعض أنواع الخوف من موضوع من الموضوعات أو موقف من المواقف . ويسمى بالانجليزية traumatic neorosis وكلمة trauma تعنى الأذى أو الجرح أو الصدمة وهى فى كثير من الأحيان جسمية أو بنية ولكنها يمكن أن تكون عقلية فى شكل صدمة عاطفية تنتج اضطرابا فى الوظائف العقلية . (الحفنى) .

الأخلاق . وهكذا يصبح لدينا الاستعداد لاحتمال ألا يكون البحث عن حل لمشكلتنا إلا فى موقف سيكولوجى معين .

ولقد تتبعت لأكثر من مرة الأحداث فى « قادش » عندما اجتمع الجزءان اللذان كونا الشعب اليهودى اللاحق ، على قبول الديانة الجديدة . وكانت ذكرى الخروج وصورة موسى ماتزال قوية واضحة لدى اليهود الذين كانوا فى مصر ، حتى أنهم أصروا على أن يدمجا فى أية رواية لتاريخهم المبكر . وربما كان بينهم أحفاد لأناس عرفوا هم أنفسهم موسى ، وربما كان ماتزال بعضهم يحس بنفسه مصريا وكانوا يحملون أسماء مصرية . ومع ذلك كانت له أسبابهم الوجيهة « لكبت » ذكرى المصير الذى وقع لزعيمهم ومشرعهم . بينما كان الدافع الرئيسى لدى الجزء الآخر المكون للقبيلة هو تمجيد الإله الجديد وإنكار أجنبيته . واهتم كلا الجزئين اهتماما متساويا بإنكار أنه كانت توجد ديانة مبكرة ، وبإنكار ما كانت تحتويه بنوع خاص . وكانت هذه هى الطريقة التى جرى بها التلاق الأول الذى ربما سرعان ماقنن بالكتابة ، فلقد استحضر الشعب القادم من مصر معه فن الكتابة وغرام كتابة التاريخ . ومع ذلك فقد كان لابد من مرور وقت طويل قبل أن يطور المؤرخون الحقيقة الموضوعية كهدف أمثل . ولقد شكلوا فى أول الأمر رواياتهم طبقا لحاجاتهم وميولهم

التى كانت اللحظة تفرضها ، بضمير مستريح ، كما لو كانوا لم يفهموا بعد معنى التزييف . وكنتيجة لذلك بدأ اختلاف يتطور بين النسخة المكتوبة والرواية الشفاهية — أى التراث — لنفس الموضوع . وما طمس أو غيّر فى النسخة المكتوبة كان من الممكن جداً أن يحفظ دون إتلاف فى التراث . وكان التراث هو التنمية وهو فى نفس الوقت النقيض للتاريخ المكتوب . وكان أقل عرضة للتأثيرات المشوهة — وربما كان فى جزء منه متحرراً منها كلية — ولذلك ربما يكون أصدق من الرواية المكتوبة . ومع ذلك فقد فسد صدقه لغموضه وسيولته أكثر من النص المكتوب ، لتعرضه لتغيرات وتشويهات كثيرة بانتقاله من جيل إلى الجيل التالى بالشفاهة[1] . وقد تكون لمثل هذا التراث نتائج مختلفة . ولعل أكثر الاحتمالات حدوثا له هو إمكان طغيان النسخة المكتوبة عليه وطردها له بحيث ينزوى تدريجيا إلى الظل وينسى آخر الأمر . ومن الجائز أن يلقى مصيراً آخر وهو أن يتحول هو نفسه فى آخر الأمر إلى أن يكون نسخة مكتوبة . وهناك احتمالات أخرى ستذكر فيما بعد .

---

(١) يعود فرويد إلى تأكيد دور التغييرات فى التراث اليهودى وهو ما أكده القرآن فى أكثر من آية من آياته ، ومع ذلك يعتمد فرويد على هذا العامل دائم التغير فى استخلاص نتائجه . وهذه التغييرات الدائبة هى التى طمست معالم اليهودية واستوجبت قيام المسيحية ثم الاسلام أخيراً لينسخ الديانتين بسبب طمس الأحبار لمعالم الدين الحق فيهما . (الحفنى) .

وقد تجد ظاهرة فترة الكمون فى تاريخ الدين اليهودى تفسيراً لها فى الآتى : أن الوقائع التى حاول ما يسمى بالتاريخ الرسمى المكتوب كبتها عن قصد لم تضع أبداً فى الواقع ، وعاشت المعرفة بها فى الروايات التى حفظت حية بين الشعب . وطبقا لإرنست سيللين كانت توجد مع ذلك رواية تتعلق بنهاية موسى وتعارض معارضة تامة الرواية الرسمية وكانت أقرب إلى الحقيقة . ونفس الشىء ، كما نفترض ، حدث مع المعتقدات الأخرى التى لاقت نهايتها فى الظاهر فى نفس الوقت الذى لاقى فيه موسى ومبادىء الديانة الموسوية — التى لم تقبلها أغلبية معاصرى موسى — نهايتهما .

وهنا نلتقى بواقعة بارزة ، وهى أن هذه الروايات ، بدلا من أن تضعف بمرور الوقت ، ازدادت قوة على مر القرون وشقت طريقها إلى تشريعات الروايات الرسمية اللاحقة ، وأخيراً دللت على قوتها بشكل حاسم بحيث أثرت فى فكر ونشاط الشعب . ويبدو أن الظروف التى جعلت هذا التطور ممكناً أبعد عن أن تكون واضحة .

وهذه الواقعة غريبة فى الحقيقة ، لدرجة أننا نحس أن لنا ما يبررنا عندما نفحصها من جديد . وفيها تكمن مشكلتنا ، فالشعب اليهودى قد ترك ديانة أتون التى أعطاها لهم موسى ، وتحول إلى عبادة إله

آخر يختلف قليلا عن بعليم[1] القبائل الأخرى . وفشلت كل جهود التأثيرات المشوهة اللاحقة فى إخفاء هذه الحقيقة المهينة . ومع ذلك فإن ديانة موسى لم تختف دون أن تترك أثرا ، فلقد عاش نوع من ذكراها ، نوع من التراث حجب وشوه . وكان هذا التراث لماض عظيم هو الذى استمر فى العمل فى الخلفية ، حتى حصل أكثر فأكثر على المزيد من السيطرة على عقل الشعب ، ونجح أخيراً فى تحويل الإله يهوا إلى أن يكون إله موسى ، وفى بعث الديانة التى أقامها موسى من قرون والتى تخلوا عنها فيما بعد ، بعثها إلى حياة جديدة . وليس بالتصور المعتاد أن يكون لتراث كامن مثل هذا الأثر القوى على الحياة الروحية لشعب . وهناك نجد أنفسنا فى مجال علم النفس الجماعى ، وفيه لا نحس أننا فى بيتنا . وينبغى أن نبحث حولنا عن تشبيهات وعن حقائق لها طبيعة مشابهة حتى فى المجالات الأخرى وأنا متأكد أنى سوف أجدها .

وعندما كان الزمن ينضج لعودة ديانة موسى ، كان الشعب اليونانى يمتلك كنزاً غنياً بشكل غير عادى وبخرافات وأساطير

(١) بعليم Baalim ، أو بعل : اسم أطلق على عدة آلهة سامية أشهرها المعبود الفينيقى الذى يراد به الشمس أو المشترى ، وانتشرت عبادته فى إسرائيل حتى قاومها الأنبياء وخاصة إشعياء وإرميا . ومن كلمة بعل اشتق معنى الزوج أو السيد كما تقول رب الأسرة . (الحفنى) .

الأبطال . ومن المعتقد أن القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد رأى خلق ملاحم هومر[1] التي استمدت مادتها من نسيج الأساطير . وبمعرفتنا السيكولوجية المعاصرة كان بوسعنا من زمن قبل شليمان وإيفانز (مؤرخين) أن نسأل : من أين حصل الإغريق على كل هذه المادة من الأساطير والخرافات التي أحالها هومر وكبار الدراميين في «أتيكا»[2] إلى أعمال فنية خالدة ؟ ولابد أن تكون الإجابة : من المحتمل أن هذا الشعب قد مر في تاريخه المبكر بمرحلة من العظمة والثقافة المتطورة جدا ، والتي انتهت بكارثة — كما يقول التاريخ في الواقع — وعاش منها تراث ضئيل في هذه الخرافات . وأكد البحث الأثرى المعاصر هذه النظرية التي لو قيلت في زمن مبكر لكانت بالتأكيد قد اعتبرت جريئة جدا . ولقد اكتشف البحث الأثرى

---

(١) هومر : الشاعر الملحمى الإغريقى الأشهر صاحب الإلياذة والأوديسة اللتين تعدان من عيون الأدب القديم في العالم ، واتخذهما كثير من النقاد نقاط بحث حول حقيقة نسبتهما إلى هومر أو هوميروس ، وهو مايسمى في الأدب باسم « المشكلة الهومرية » ، وكان تاريخ ظهورها القرن السادس قبل الميلاد ، وتدعى كل مدن اليونان نسبة هومر إليها ، وهناك من يشك في نسبة الملحمتين إلى شخص واحد ، فالمعروف أن الشعر الملحمى لا يمكن أن يكون مبدعه شخصاً واحدا رغم أن الملحمتين قد كتبتا بصيغة المتكلم الذى يقص عن مشاعره ، ويكفى على التدليل على عظمة الكتابين أن أسخيلوس الكاتب الشاعر المسرحي العظيم يقول عن مسرحياته أنها ليست سوى نتف من مائدة هومر الحافلة . (الحفنى) .

(٢) أتيكا Attica : مقاطعة في بلاد اليونان كانت عاصمتها أثينا ، وامتاز أهلها بسلامة الذوق واللباقة واللطف . (الحفنى) .

شواهد الثقافة المينوية[١] الميسينية[٢] العظيمة ، والتى من المحتمل أنها كانت قد انتهت فى أرض اليونان نفسها سنة ١٢٥٠ ق. م. ولا يكاد المؤرخون الإغريق فى الزمن اللاحق يشيرون إليها . وهناك ما يشير إلى أن الكريتيين فى يوم من الأيام قد سيطروا على البحر ، وهناك ذكر لاسم الملك مينوس Minos ولقصره ، وذكر لقصر التيه ، ولكن هذا هو كل شىء . ولم يبق شىء من ذلك الزمن العظيم إلا الروايات التى أمسك بها الكتاب العظام .

وتمتلك شعوب أخرى ملحمات شعبية كهذه ، مثل الهنود والفنلنديين[٣] والألمان . والأمر متروك للمؤرخ الأدبى ليتحرى ما اذا كانت نفس الظروف التى كانت للإغريق تنطبق عليهم بالمثل . وإنى لأحسب أن تحريا كهذا سيثمر نتيجة إيجابية . والظروف التى عيناها لنشأة الملاحم الشعبية هى كالآتى : توجد فترة

---

(١) الملك مينوس Minos ومنه صفة المينوية، ملك كريت وابن يوروبا وزيوس وزوج باسيفايا ، وكان مشرعا وحكيما ، وإلى زمانه ترقى المدينة التى عاصرت خرب طروادة . (الحفنى) .

(٢) نسبة إلى ميسينيا Mycenes من أرض اليونان وتشتهر بآثارها والفن الذى يعرف باسمها والذى نما وازدهر بازدهار العصر البطولى فى ميسينيا وطرواده . (الحفنى) .

(٣) سكان فنلنده وهى جمهورية فى غربى الاتحاد السوفييتى ظلت موضع نزاع بين روسيا والسويد ، ولكنها حصلت على استقلالها سنة ١٩١٧ بعد اندلاع ثورة أكتوبر الاشتراكية السوفيتية سنة ١٩١٧ . وتشتهر فنلنده بكثرة ملاحمها وقصصها الشعبي . (الحفنى) .

من التاريخ المبكر تعتبر فيما بعد مباشرة كنتيجة لها دلالتها ، ورائعة ، وربما هى دائماً بطولية ، ومع ذلك فهى حدثت من زمن بعيد جدا ، وهى تنتمى إلى زمن بعيد جدا ، لدرجة أن الأجيال اللاحقة لا تتلقى العلم بها إلا على هيئة رواية غامضة وغير تامة الأطراف ، وكان اختفاء الملحمة كشكل أدبى فى العصور اللاحقة مثارا للدهشة ، وقد يكون تفسير ذلك أن الظروف التى تنتج الملاحم لم تعد موجودة . لقد استهلكت الموضوعات القديمة ، وحل التاريخ محل التراث فيما يتعلق بالأحداث اللاحقة ، ولم تعد فى وسع أشجع الأعمال بطولة فى عصرنا أن تلهم ملحمة ؛ وكان للإسكندر الأكبر نفسه الحق فى شكواه التى تقول إنه ليس لديه شاعر مثل هومر يتحدث عن حياته ويشهرها .

لقد كانت للعصور البعيدة نواحيها الجذابة جداً ، وكانت أحياناً نواح غامضة للغاية التى تشد الخيال ، وطالما أن البشرية غير راضية عن حاضرها — وهذا كثيراً مايحدث — فإنها تتصنت على الماضى ، وتأمل فى النهاية أن تفوز بالإيمان من الحلم الذى لا ينسى أبداً ، حلم عصر ذهبى[1] . وربما كان الإنسان مايزال يقف تحت سحر طفولته ،

---

(١) يشكل موقف كهذا أساس كتاب « Lays of Ancient Rome by Macaulay » وهو هنا ينتحل دور المنشد الذى تحزنه الخلافات العنيفة التى تمزق الأحزاب السياسية لعصره ، فيهجوها بالمقارنة بوحدة ووطنية أسلافهم . (فرويد).

التى تقدمها إليه ذاكرة متحيزة لزمن حافل بالسعادة التى لم تشبها شائبة . والذكريات غير الكاملة والمضببة للماضى ، والتى نسميها تراثاً، هى دافع عظيم للفنان ، لأنه يكون حراً فى ملء الفراغات فى الذكريات طبقاً لما تمليه عليه مخيلته ، وأن يشكل طبقاً لما يقصد من هدف صورة الزمن الذى آل على نفسه إحياؤه[1] ، وربما جاز لنا أن نقول تقريباً أنه كلما غمض التراث وغلفه الضباب كلما كان أصلح لاستخدام الشاعر، ولذلك فإن القيمة التى يضفيها التراث على الشعر لا ينبغى أن تدهشنا ؛ وإن التشبيه الذى وجدناه فى اعتماد الشعر الملحمى على ظروف محددة سيجعلنا أكثر ميلا إلى تقبل الفكرة الغريبة التى تقول أن تراث موسى هو الذى حول مع اليهود عبادة الإله يهوا فى اتجاه الديانة الموسوية القديمة ، ومع ذلك فالقضيتان فى نواح أخرى مختلفتان جداً، والنتيجة فى واحدة منهما هى الشعر ، وفى الأخرى هى الديانة . ولقد افترضنا أن الأخيرة — تحت تأثير التراث — قد بعثت بأمانة لا يمكن أن يقاس عليها الشعر الملحمى بطبيعة الحال ، ولذلك لا يتبقى من مشكلتنا إلا ما يكفى ليشجع على البحث عن قضايا تشبه قضيتنا شبهاً أكثر .

* * *

---

(١) يعترف فرويد بأنه يصوغ التاريخ هنا صياغة الفنان والشاعر ، وأنه لا يقدم حقائق علمية وإنما وجهة نظر . (الحفنى) .

٣ — تشابه

إن القضية الوحيدة التى نرضى حقا بتشبيهها بالعملية الرائعة التى تعرفنا عليها فى تاريخ الديانة اليهودية توجد فى مجال يبدو بعيداً عن المشكلة التى نعالجها . ومع ذلك فالتشابه بينهما تام جداً حتى ليقرب من التطابق .

وهنا مرة أخرى نجد ظاهرة الكمون[1] ، وظهور شواهد غير واضحة فى حاجة إلى التفسير ، وشرطاً صارماً لتجربة مبكرة ، ومن ثم فهى منسية . وهنا أيضاً نجد صفة الجبر[2] — التى تغلب على التفكير المنطقى — تشغل بقوة الحياة النفسية ، وهى سمة لم تكن موجودة فى أصل تكوين الملحمة .

وهذه القضية المشابهة تقابلنا فى علم الأمراض النفسية : فى تكوين

(١) الكمون فى أدب التحليل النفسى هو ظاهرة تراجع الحدث إلى منطقة شبه الشعور ، أما فترة الكمون فهى فترة الطفولة الانسانية الممتدة من سن أربع سنوات إلى سن خمس سنوات وإلى بداية المراهقة ، وهى الفترة التى تفصل بين المرحلة الجنسية الطفلية والمرحلة الجنسية العادية . (الحفنى) .

(٢) الجبر هو نظرية فلسفية تقول إن كل ظواهر الحياة النفسية هى نتائج ضرورية لظروف الوجود المسبقة ، والحتمية أو الجبر مقولة من مقولات العلم الوصفى وكذلك التحليل النفسى وخاصة نظرية الأحلام عند فرويد . (الحفنى) .

العصاب[1] الإنسانى ، أى فى النظام الذى ينتمى إلى علم النفس الفردى[2] ، بينما ينبغى النظر بالطبع إلى الظواهر الدينية على أنها جزء من علم النفس الجماعى[3] ، وسنرى أن هذا الشبه لا يثير الدهشة كما يبدو لأول وهلة ، بل أن له فى الواقع طبيعة البديهيات .

والانفعالات التى عانيناها فى سن مبكرة ونسيناها فيما بعد ، والتى نسبت أنا إليها هذه الأهمية الكبيرة لأسباب الأمراض العصابية ، تسمى انطباعات أذوية[4] . وقد يبقى السؤال مفتوحاً إذا كان ينبغى

---

(١) العصاب neorosis بالمعنى القديم هو النشاط الذى يمارسه الجهاز العصبى وهو بالمعنى الحديث اضطراب وظيفى ، أصله نفسى ، يصيب الجهاز العصبى ، وهو يختلف عن العصاب النفسى psychoneurosis ، ويعده المحللون النفسيون ظاهرة صراع يتضمن استبعاد دافع غريزى أساسى. ويتحدث المحللون النفسيون كذلك عن العصاب الحقيقى actual meorosis وهو العصاب الذى له أصل خِلْقى. (الحفنى) .

(٢) علم النفس الفردى individual psychology هو علم النفس الذى يتناول الاختلافات الفردية ويدرسها ويقيسها ، أو هو بمعنى خاص هذا النوع من علم النفس التحليلى الذى وضع أساسه وطوره العالم المحلل النفسانى أدلر . (الحفنى) .

(٣) علم النفس الجماعى mass psychology أو group psychology وهو علم النفس الذى يدرس الجماعات الاجتماعية وسلوكها الجماعى ، وهو علم يجمع بين علم النفس وعلم الاجتماع ، وهو يتناول بالوصف والتجريب والتحليل سلوك الفرد مع الأشخاص الآخرين واستجابته لهم سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين . (الحفنى) .

(٤) traumata هى الأذى أو الجرح أو الصدمة ، وهى فى كثير من الأحيان جسمية أو بنية ، ولكنها كذلك يمكن أن تكون عقلية فى شكل صدمة عاطفية تنتج اضطرابا فى الوظائف الفعلية . (الحفنى) .

النظر عموماً إلى أسباب الأمراض العصابية بوصفها أسباباً أذوية ،
والاعتراض الواضح هو أن التجارب الأذوية لاتبين دائما فى التاريخ
المبكر للفرد العصابى . وكثيراً ماينبغى أن نقنع بأن نقول بأنه لايوجد
شىء سوى رد فعل غير عادى للتجارب والمطالب التى يمكن أن تنطبق
على كل الأفراد وينفعل كثير من الناس تجاهها بطريقة أخرى قد
نصطلح على تسميتها سوية . وحيث لايمكن أن نجد تفسيراً آخر سوى
الميل الوراثى أو البنى (من بنية) ، يغرينا بالطبع أن نقول إن المرض
العصابى لم يكتشف فجأة ، ولكنه تطور ببطء .

وتبرز بهذا الخصوص نقطتان ، الأولى أن تكوين العصاب يعود
دائماً إلى انفعالات مبكرة جداً لأيام الطفولة[1] . والنقطة الثانية هى :
من الصواب القول بأن هناك حالات نستطيع أن ننحيها جانباً ونقول
عنها إنها « أذوية » ، لأن فى الإمكان إرجاع آثارها بلا خطأ إلى
انفعال أو أكثر من الانفعالات القوية التى كانت لهذه المرحلة
المبكرة . ولقد فشلت هذه الانفعالات عن أن تنصرف بشكل سوى ،

= والعصاب الأذوى traumatic neurosis هو عصاب نفسى تحركه صدمة عاطفية كما هو الحال فى الهستيريا وفى بعض أنواع الخوف المرضى من موضوع من الموضوعات أو موقف من المواقف . (الحفنى) .

(١) ولهذا كان من السخف الإصرار على إمكان ممارسة التحليل النفسى مع استبعاد فترات الحياة المبكرة من نطاق بحوثنا ؛ ومع ذلك فإن هذا الزعم قالت به دوائر كثيرة . (فرويد) .

حتى لنحس بالميل إلى القول بأنه لو لم يحدث هـذا الشيء أو ذاك لما كان هناك مرض عصابى . وحتى لو قصرنا التشبيه محل البحث على هذه الحالات الأذوية لكان هذا كافيا للغرض الذى نحن بصدده . ومع ذلك فالهوة بين المجموعتين لاتبدو وكأنها لايمكن وصلها . ومن الجائز جداً ربط كل من الظروف العِّلية فى مفهوم واحد ، وكل شيء يعتمد على ماهو الأذوى ، فإذا جاز لنـا أن نفترض أن التجربة لاتـكتسب صفتها إلا طبقاً لعنصر كمى — بمعنى أنه إذا كانت التجربة تثير ردود فعل مرضية غير عادية ، فمصدر الخطأ هو أنها أكثرت من طلباتها على الفرد إكثاراً شديداً — فإنه يمكننا بالتالى أن نستخلص هذه النتيجة : أن شيئاً مايمكن أى يتسبب فى الأذى لبنية ما بينما لا يتسبب فى ذلك مع بنية أخرى . ومن ثم يبدو كما لو كان عندنا مقياس متغير ، أو مايمكن تسميته سلسلة مكملة لبعضها البعض ، حيث يتجه عنصران إلى تـكملة الأسباب ؛ فالنقص فى عنصر تعوضه الزيادة فى العنصر الآخر ، ويعمل العنصران ..... معاً ، ولايسعنا أن نتحدث عن وجود دافع بسيط إلا عند كل طرف من طرفى السلسلة . وكنتيجة لهذا التفـكير بوسعنا أن نهمل الاختلاف بين الأسـباب الأذوية وغير الأذوية باعتبار أنها لاتهم التشبيه الذى نحن بصدده .

وبرغم أننا نخاطر بأن نـكور أنفسنا ، فمن الجائز أن يكون من

المفيد أن نجمع معا الحقائق التى لها صلة بالتشبيه الهام موضوع البحث . وهى كالآتى : لقد أوضحت بحوثنا أن مانسميه بظواهر أو أعراض العصاب هى نتائج تجارب وانفعالات معينة ، نسلم لهذا السبب نفسه بأنهـا أذويات لها مسبباتها . ونود أن نتيقن ، ولو بمجرد طريقة إجمالية ، من السمات المشتركة بين هذه التجارب وبين الأعراض العصابية .

ولنناقش أولا التجارب . فكل هذه الظواهر الأذوية ظواهر تنتمى إلى مرحلة الطفولة ، ونقصد الفترة حتى نحو سن الخامسة ، ووُجد أن الانفعالات فى الوقت الذى يبدأ فيه الطفل فى التحدث لها أهميتها الخاصة . والفترة الواقعة بين عمر سنتين وعمر أربع سنوات هى أهم فترة . ولا يسعنا أن نقرر بأى درجة من اليقين متى تبدأ هذه الحساسية للتجارب الأذوية بعد الولادة مباشرة .

وكقاعدة تنسى التجارب موضوع البحث نسياناً تاماً وتظل بمنأى عن الذاكرة ، وتنتمى إلى فترة الفقدان الطفولى للذاكرة التى كثيراً ما تتخللها ذكريات متقطعة معزولة ، أو مايسمى « ذكريات حاجبة » .

وتتعلق هذه الذكريات بانفعالات لها طبيعة جنسية — عدوانية ،

وتتعلق كذلك بالأذى الذى يحيق بالذات (الذى يحيق بالنرجسية)[1] وينبغى أن نضيف أن الأطفال فى هذه السن المبكرة لا يكونون قد عرفوا بعد كيف يميزون بين الأفعال الجنسية والأفعال العدوانية الخالصة تمييزاً واضحاً جداً كما يحدث لهم فيما بعد (من ذلك سوء الفهم السادى[2]

---

(١) النرجسية Narcissism : هى حب الذات حبا طاغيا ، ويعتبرها المحللون النفسيون مرحلة مبكرة من مراحل التطور النفسى الجنسى ، وفيها يكون موضوع الجنس هو الذات ، وتمثل نكوصا فى هذا الضرب من البشر المسمى النوع النرجسى أو أنها تؤكده . والسمة الجوهرية فى كل ضروب النرجسية أن هناك دائما انشغالا متطرفا بالنفس وبكل اهتمامات صاحبها .

والنرجسية سميت كذلك نسبة إلى نرجس أو نرسيس Narcisse ، وهو شخصية أسطورية أغريقية يقال أنه كان شديد الولع بصورة نفسه فقد تطلع يوما إلى مياه إحدى النافورات فنظر فى الماء صورة نفسه وكلف بالصورة وأحبها حبا ملك عليه حياته ، حتى قفز آخر الأمر إلى المـاء ليلتقى بالصورة وغرق ومات وصار الزهرة التى تسمى باسمه وهى زهرة النرجس . (الحفنى) .

(٢) السادية Sadism طراز من الانحراف الجنسى وتعرف عند أصحاب مدرسة التحليل النفسى ، وتعنى أن المصاب بها لا يتحصل اللذة الجنسية إلا بتعذيب وإساءة معاملة من يحب من الجنس المقابل ، وأحيانا تطلق السادية عموما على حب القسـوة . والسادية أخذت من اسم « ساد » وهو « الماركيز دوناتيان دى ساد Sade » (١٧٤٠ — ١٨١٤) الـكاتب الفرنسى الوجودى ، وكان يعيش الحياة التى يصورها فى أدبه حياة تتسم بالثورة والتمرد على كل القيم حتى الله ، ومن رأيه أن الدنيا قد خلقت وفيها الضعفاء والأقوياء ، وأن الحكومة للأقوياء ، وإن إرادة القوة فوق كل إراده ، وقد أصيب بلوثة عقلية ، وسجن مراراً ، واتهم بتعذيب ضحاياه من النساء ، وهجرته زوجته ، وكان يتصل بالنساء اتصاله بالرجال ، ومات فقيراً منسياً تعذبه الأمراض ، وكانت رواياته محظورة ، وكثيراً ما نشرها سراً وبأسماء مستعارة ، وللكاتبة الوجودية الفرنسية سيمون دى بوفوار بحث ممتع فى حياة الماركيز دى ساد ، ومن اسمه اقتبس فرويد اسم السادية . (الحفنى) .

للفعل الجنسي) . ومن العجيب حقاً أن يسود العامل الجنسي ، وعلى النظرية أن تدخل ذلك في اعتبارها .

وهذه النقاط الثلاثة — وهي الأحداث المبكرة في السنوات الخمسة الأولى (من حياة الطفل) ، والنسيان ، والسمات التي تميز الجنسية والعدوانية — تنتمي في تقارب إلى بعضها البعض . والتجارب الأذوية إما تجارب جسدية أو مدركات ، وخاصة المدركات التي تسمع وترى ، أي أنها إما تجارب أو انفعالات . وترتبط النقاط الثلاثة نظرياً ، أي بالتحليل . وهذه الطريقة وحدها هي التي تعطينا المعرفة بالتجارب المنسية أو — بصياغة الجملة بطريقة محسوسة أكثر ، ولو أنها طريقة أكثر خطأ — أنها الطريقة التي تعيد إلى الذاكرة التجارب المنسية . وتقول النظرية أن الحياة الجنسية الإنسانية — أو ما يتوافق فيما بعد معها — تبدى على عكس ماهو شائع ، تفتحا مبكراً ، يبلغ نهايته في نحو سن الخامسة ، ثم يعقبها مايسمى بفترة الكمون — التي تستمر حتى سن البلوغ — وخلالها لايعود هناك مزيد من التطور الجنسي ، بل بالعكس فالكثير مما تحقق يحدث له نكوص . وتتأكد النظرية بالدراسة التشريحية لنمو الأجهزة التناسلية الداخلية وتقترح أن الإنسان قد خرج من نوع من الحيوانات يكون ناضجاً جنسياً في سن الخامسة . ويثار الشك في أن تأجيل الحياة الجنسية فيما بعد الخامسة وحتى البلوغ ، ثم عودتها من جديد للمرة الثانية ، له علاقة كبيرة بالانتقال من

مرحلة هذا النوع الحيوانى إلى مرحلة البشرية . ويبدو أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له فترة كمون وجنسية تتأخر . وقد تكون البحوث التى يمكن أن تجرى على الحيوانات الثديية الراقية ، وهى على قدر ما أعرف لم تجر للآن ، اختباراً للنظرية لا تقدر قيمته . وينبغى أن يكون توافق فترة الفقدان الطفولى للذاكرة مع هذا التفتح المبكر للجنسية ، أمراً له دلالته النفسية . وربما كان وضع الأمور بهذا الشكل هو الشرط الضرورى لوجود العصاب ، الذى يبدو أنه امتياز اختص به الإنسان ، ويبدو فى هذا الضوء كما لو كان بعثاً من الأزمان البدائية – مثله فى ذلك مثل بعض أجزاء الجسم .

ماهى السمات المشتركة لكل الأعراض العصابية ؟ إننا هنا قد نشير إلى نقطتين هامتين ، فآثار التجربة الأذوية لها جانبان ، أحدهما إيجابى والآخر سلبى ، والآثار الإيجابية هى محاولات إحياء التجربة الأذوية وتذكر التجربة المنسية ، أو أكثر من ذلك جعلها واقعية – معايشة استعادتها مرة أخرى ؛ فإذا كانت علاقة مبكرة لها أثرها فإنها تبعث فى ارتباط تشبيهى مع شخص آخر . وتتلخص هذه المحاولات فى اصطلاح « تثبيت التجربة الأذوية » و « تكرار – الجبر » ، ويمكن إدماج النتائج فيما يسمى الأنا الطبيعى وإضفاء صفات ثابتة عليه فى شكل اتجاهات ثابتة ، مع أن – أو بالأحرى بسبب – السبب الحقيقى فى هذه النتائج وفى أصلها التاريخى ، قد نسى . ومن

ثم فإن الإنسان الذى قضى طفولته متعلقاً بأمه تعلقاً مغالى فيه ولكنه نسيه منذ الطفولة ، قد يقضى كل حياته يبحث عن امرأة بوسعه أن يعتمد عليها ، تطعمه وترعاه . والفتاة التى يغور بها فى الطفولة المبكرة قد توجه حياتها الجنسية المستقبلة نحو إثارة مثل هذا العدوان مرة تلو المرة . وهكذا نرى أن فهم مشاكل العصاب يمكننا من النفاذ إلى أسرار تكوين الشخصية عموماً .

أما ردود الفعل السلبية فهى تتبع هدفاً مناقضاً ، وهنا لا يبقى شىء يمكن تذكره أو تكراره من التجربة الأذوية المنسية ، ويمكن تجميع ردود الفعل السلبية معاً بوصفها ردود فعل دفاعية ، وتعبر عن نفسها فى تجنب النتائج ، وهو اتجاه قد يبلغ ذروته فى الكف أو الخوف . وتسهم هذه الردود السلبية كذلك بدرجة كبيرة فى تشكيل الشخصية ، وهى فى الواقع تمثل تثبيت التجربة الأذوية بدرجة لا تقل عما تفعله ردود الفعل الإيجابية ، ولكنها تتبع الاتجاه المناقض. وتشكل أعراض العصاب الصحيح إلتقاء تسهم فيه كل من الآثار الإيجابية والسلبية للتجربة الأذوية ، وأحياناً ما يبرز أحد العنصرين على الآخر . وتخلق ردود الفعل هذه المتعارضة صراعات لا يقوى الفرد كقاعدة على حلها .

والنقطة الثانية هى : أن كل هذه الظواهر والأعراض وكذلك

قيود الشخصية والتغييرات المستمرة فى الخلـق ، تظهر خاصية الجبر ، أى أنها تملك شدة نفسية عظيمة واستقلالا بعيد المدى عن العمليات النفسية يتلاءم مع مطالب العالم الواقعى ويطيع قوانين التفكير المنطقى. وهى لاتتأثر بالواقع الخارجى ، ولا تبالى بالأشياء الواقعية أو بما يساويها ذهنيا ، حتى أن بوسعها أن تنشط نشاطاً يعارضها ، فهى كالحكومة من داخل الحكومة ، أو هى كالحزب المنيع ، لاترجى له فائدة للصالح العام . ومع ذلك فهى بوسعها أن تنجح فى التغلب على الآخر ، الذى يقال له العنصر المركب السوى ، وأن تنجح فى إرغامه على العمل فى خدمتها . فإذا حدث ذلك فإن سيادة الواقع النفسى الداخلى تتحقق على واقع العالم الخارجى ، وينفتح الطريق إلى الجنون . وحتى لو لم تبلغ المسألة هذا الحد فإن الأهمية العملية للصراع لايمكن قياسها . وتشكل أنواع الكف بل وعدم القدرة على التعامل مع الحياة ، التى للناس الذين يسيطر عليهم العصاب عاملا مهما جداً فى المجتمع الإنسانى . ويمكن اعتبار العصاب تعبيراً مباشراً « لتثبيت » مرحلة مبكرة من ماضيه .

وماذا عن الكمون ؟ إنه سؤال مهم بشكل خاص فيما يتعلق بالتشبيه الذى نحن بصدده . إن تجربة أذوية تمر بها مرحلة الطفولة يمكن أن يتبعها مباشرة عصاب خلال الطفولة ، ويشكل ذلك مجهوداً

للدفاع يصحبه تشكيل الأعراض . وقد يدوم العصاب لمدة طويلة ويسبب اضطرابات مثيرة ، أو قد يظل كامناً ويغفل أمره . وكقاعدة فإن الدفاع تكون له اليد العليا فى مثل هذا العصاب ؛ وفى أى حادث تظل التغييرات فى الشخصية ، مثل الندوب . ونادراً ما يستمر عصاب الطفولة بدون فترة تتخلل عصاب البالغ . والأكثر من ذلك أن زمنا من التطور الذى لا يعكره شىء غالباً ما يتلوه ، وهى عملية يمكنها أو يسهلها الكمون الفسيولوجى . ولا يظهر التغيير إلا مؤخرا وبه يتضح العصاب نهائياً كأثر من آثار التجربة الأذوية تأخر ظهوره . ويحدث هذا إما وقت البلوغ أو فيما بعد بقليل . وهو يحدث فى الحالة الأولى لأن الغرائز وقد قواها النضج البدنى يمكنها من جديد أن تتولى المعركة التى هزمت فيها أول الأمر . ويتضح العصاب فيما بعد فى الحالة الثانية لأن ردود الفعل والتغيرات فى الشخصية التى تحدثها وسائل الدفاع تدلل على أنها عائق يحول دون حل مشاكل الحياة الجديدة ، ومن ثم تقوم صراعات خطيرة بين مطالب العالم الخارجى ومطالب الأنا الذى يجاهد أن يحافظ على التنظيم الذى طوره بمشقة فى كفاحه الدفاعى . وينبغى الإقرار بأن ظاهرة الكمون فى العصاب تقع بين ردود الفعل الأولى للتجربة الأذوية والظهور اللاحق للمرض كظاهرة طرازية .

ويمكن اعتبار المرض كذلك محاولة للعلاج ، محاولة لمصالحة الأنا

المنقسم — قسمته التجربة الأذوية — مع باقى الجهاز النفسى ، ولتوحيده فى كل قوى لديه القدرة على مجاراة العالم الخارجى — ومع ذلك فإن مجهودا كهذا نادرا ماينجح مالم نسع إلى مساعدة التحليل النفسى ، وحتى مع ذلك لايتحقق النجاح دائماً . وكثيرا ماينتهى بتدمير الأنا وتحطيمه تحطيما تاما ، أو بأن يغلب الأنا على أمره بالجزء الذى انفصل عنه مبكرا والذى سيطرت عليه منذ ذلك الحين التجربة الأذوية .

ولكى أقنع القارىء بحقيقة ما أقوره هنا أجد من الضرورى أن أسرد عليه عددا من تاريخ حياة عدد من المرضى العصابيين . ولكن صعوبة الموضوع تؤدى إلى الاستطراد فيه بشكل كبير وتدمير شخصية هذا المقال تماما ، وقد يتحول إلى كتيب فى الأمراض العصابية ومن ثم يفرض الاقتناع به على قلة من الناس الذين وهبوا كل حياتهم لدراسة وممارسة التحليل النفسى ، ولكن حيث أنى هنا أتحدث إلى جمهور أكبر فليس لى إلا أن أسأل القارىء أن يجرب تصديق العرض المختصر الذى أتم قراءته حالا ، وأنا من جهتى أوافق على ألا حاجة به إلى تقبل النتائج التى خلصت إليها والتى أضعها أمامه إلا إذا تبين أن النظريات التى تقوم عليها قد ثبتت صحتها .

ورغم ذلك بوسعى أن أجرب سرد حالة واحدة ستظهر بوضوح كثيراً من خصائص العصاب التى أوردتها قبلا . ولايمكن بالطبع

أن تبين حالة واحدة كل شيء ، ولذلك لن يخيب رجائى إذا بدت محتوياتها بعيدة عن التشبيه الذى نسعى إليه .

كان هناك ولد صغير يقاسم أبويه حجرة نومهما كما يحدث كثيراً فى أسر القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة ، وكانت له فرص كبيرة بل ومنتظمة يشهد فيها جماعا جنسيا بين أبويه فى سن لم يكن فيها قد بلغ القدرة على الكلام . ورأى كثيراً وسمع الأكثر . وفى عصابه اللاحق ، الذى انبثق فور أول قذف منوى له ، كان النوم أول عرض يصيبه وأكثر الأعراض مشقة له ، فقد صار حساساً بدرجة غير عادية للضوضاء أثناء الليل ، وإذا أوقظ لايستطيع أن ينام مرة أخرى . وكان هذا الاضطراب عرضاً توفيقيا حقيقيا : فهو من ناحية تعبير عن دفاعه ضد ملاحظاته الليلية ، وهو من ناحية أخرى المحاولة لاستعادة اليقظة التى مكنته من الاستماع إلى تلك التجارب .

وبدأ الوالد وقد أثارته تلك الملحوظات فى وقت مبكر وبعثت فيه رجولة عدوانية ، بدأ يثير قضيبه بالملامسة ويقوم بمحاولات جنسية يجترىء بها على أمه ، واضعاً نفسه بهذه الطريقة فى مكان أبيه بأن يرى نفسه فيه ، واستمر الحال على هذا الوضع حتى نهرته أمه أخيراً عن ملامسة قضيبه وهددته باطلاع أبيه لينتزع منه عضوه المسىء .

ويترك هذا التهديد بإخصائه[1] أثراً قوياً جداً أذوياء على الولد ، وهو يكبت نشاطه الجنسي وتتعرض شخصيته للتغيير ، وبدلا من أن يرى نفسه فى أبيه بدأ يخشاه وبدأ يسلك إزاءه سلوكا سلبياً ، وأحياناً ما كان يعصاه من وقت لآخر ويثير أباه بهذه الطريقة إلى إنزال العقاب البدنى به . ولهذا العقاب البدنى معنى جنسى بالنسبة له ، وبهذه الطريقة كان بوسعه أن يتمثل نفسه فى أمه التى تساء معاملتها . وبدأ يلتصق أكثر فأكثر بأمه كما لو كان لايستطيع أن يتحمل الوجود بدون حبها حتى ولو اللحظة طالما أن هذا الحب يشكل بالنسبة له حماية ضد خطر الإخصاء الذى يتهدده من قبل أبيه . وانقضت فترة الكمون فى هذا التعديل لعقدة أوديب[2] ، وبقيت متحررة من الاضطرابات الواضحة ، وصار الولد طفلا نموذجياً وكان ناجحاً فى المدرسة .

---

(١) الإخصاء Castration هو إزالة الخصيتين من الذكر أو المبيضين من الأنثى ، وهما غدد الجنس . ويعرف القلق الخصائى Castration anxiety فى التحليل النفسى وهو القلق أو الخوف المرافق لفكرة إزالة الغدد الجنسية ، كما تعرف أيضاً عقدة الخصاء Castration Complex وهى العقدة التى تسببها تهديدات إزالة الغدد الجنسية . (الحفنى) .

(٢) عقدة أوديب Oedipus أو Edipus هى عقدة فى نظرية التحليل النفسى . والعقدة عموما لاشعورية وتنمو فى الابن من التصاقه بامه (التصاقا جنسى السمات طبقا للمحللين) وغيرته عليها من أبيه مع ماينتج ذلك من شعور بالذنب والصراع العاطفى . وتقابلها فى الابنة عقدة الكترا . وهى تنسب إلى أوديب ملك الإغريق الذى تزوج أمه وأنجب منهـا ، والفرق بين العقدة والأسطورة أن أوديب فى الأسطورة لم يكن يعرف أنها أمه . (الحفنى) .

وحتى الآن تتبعنا الأثر المباشر للتجربة الأذوية وأكدنا وجود مرحلة كمون .

ولقد أتى ظهور البلوغ معه بالعصاب الواضح ، وأبان عن عرضه الرئيسى الثانى وهو العجز الجنسى ، فقد فقد كل حساسية له فى قضيبه ولم يحاول أبداً أن يلمسه ، ولم يجرؤ على الاقتراب جنسياً من امرأة . وظلت نشاطاته الجنسية محدودة داخل نطاق الاستمناء Onanism النفسى المصحوب بخيالات سادية ما سوكية[1] يسهل عليه فيها استرجاع الأثر الذى خلفته عنده ملاحظة ما كان يدور بين والديه من جماع فى وقت مبكر من حياته .

وتحول اندفاع الرجولة المتزايدة التى أتى بها البلوغ إلى كراهية شديدة لأبيه ومعارضته له . وهذه العلاقة السلبية المتطرفة مع أبيه ، التى أضرت بمصالحه حتى الآن ، كانت السبب فى فشله فى الحياة وصراعاته مع العالم الخارجى . ولم يكن بوسعه أن يسمح لنفسه أن يكون ناجحا فى مهنته لأن أباه قد أجبره على امتهانها . ولم يكن

---

(١) الماسوكية Masochism هى اللذة وخاصة اللذة الجنسية ، التى تحدث لدى صاحبها فى حالات إنزال ألم جسدى به . وهى لذه تفسرها مدرسة التحليل النفسى فى ضوء الغرائز التدميرية أو ما يسمى بغرائز الموت death instincts ، وترتبط بالحب . واسم الماسوكية مأخوذ من اسم الكاتب النمسوى ماسوك Masoch وكان مريضا بهذا الداء النفسى . (الحفنى) .

يعقد صداقات مع أحد ، وكان على صلات سيئة برؤسائه دائما

ووجد أخيرا زوجة بعد وفاة أبيه وبعد أن أعيته هذه الأعراض وألوان العجز ، وحينئذ ظهر جوهر أخلاقه والصفات التى جعلت من العسير معايشته . وتطور إلى شخصية مطلقة الأنانية طاغية وقاسية ، وكان من الضرورى له بشكل واضح أن يضايق ويضطهد الناس الآخرين . وكان صورة طبق الأصل من أبيه ، وكان على صورته التى شكلتها ذاكرته ، أى أنه بعث تمثله نفسه فى أبيه father—identification الذى رآه لنفسه كطفل سبب دوافع جنسية . وفى هذا الجزء من العصاب نتعرف على عودة المكبوت الذى — بالتأثير المباشر للتجربة الأذوية وظاهرة الكمون — وصفته بأنه على رأس الأعراض الرئيسية للعصاب .

* * *

٤ — التطبيق

التجربة الأذوية المبكرة — الدفاع — الكمون — تفجر العصاب — العودة الجزئية للمادة المكبوتة : كانت هذه هى الصيغة التى كوناها عن تطور العصاب . وإلى الآن سأدعو القارىء أن يسير خطوة إلى الأمام وأن يفترض أنه فى تاريخ الجنس البشرى قد حدث

شيء مايشبه الأحداث التى تجرى فى حياة الفرد ، أى أن البشرية ككل مرت كذلك بصراعات لها طبيعة جنسية — عدوانية تركت آثارا دائمة ، ولكنها قوومت فى الجزء الأكبر منها وتنوسيت ، ومن بعد ، وبعد فترة طويلة من الكمون ، بعثت مرة أخرى وخلقت ظواهر تشبه فى مبناها واتجاهها الأعراض العصابية .

وأعتقد أنى تنبأت بهذه العمليات وأرغب أنى أبين أن نتائجها ، التى تشبه شبها قويا الأعراض العصابية ، هى ظواهر الدين . وطالما أنه من غير الممكن أكثر من ذلك وبعد اكتشاف نظرية الارتقاء ، الشك فى أن البشرية كان لها تاريخ قبل التاريخ المكتوب . وطالما أن هذا التاريخ غير معروف (أى أنه منسى) فإن لمثل هذه النتيجة معنى البديهية تقريبا . فإذا تعلمنا أن التجارب الأذوية ذات الأثر والتى تُنسى ، تعزى ، هنا وكذلك هناك ، إلى الحياة فى الأسرة الإنسانية ، لوجب أن نرحب بهذه المعلومة باعتبارها نعمة غير مرئية محتفى بها جدا ولكنها كانت متوقعة من المناقشة السالفة .

ولقد سبق لى أن تناولت هذا الموضوع ، منذ ربع قرن مضى ، فى كتابى (الطوطم والمحرم « Totem and Taboo » ١٩١٢) وما علىّ إلا أن أكرر ما قلته هناك . وبدأت المناقشة ببعض الملحوظات

التى ساقها دارون[١] ، وضعت فكرة قال بها أتكنسون[٢] . وهى تقول إن الناس عاشت فى الأزمان البدائية فى عشائر صغيرة ، كل منها يحكمها ذكر قوى . ولا نعرف متى كان ذلك لعدم توفر المعلومات التى تقدمها الكشوف الخاصة بطبقات الأرض ، وربما لم يكن الإنسان متقدماً كثيراً فى فن الكلام . ويقوم جزء كبير من المناقشة التى تقدمها على أن البدائيين ، بما فيهم كذلك كل أسلافنا ، جرى عليهم المصير الذى سنصفه الآن .

وتحكى القصة بطريقة مركزة جدا كما لو كان ما استغرق فى الحقيقة قرونا لتحقيقه ، وفى خلال ذلك الزمن الطويل تكرر بلا حساب ، قد حدث مرة واحدة . وكان الذكر القوى هو سيد وأبو العشيرة كلها ، لاحدود لقوته التى استخدمها بوحشية . وكانت كل الإناث ملكه ، وكل الزوجات والبنات فى عشيرته وكذلك كل اللواتى يسرقن من العشائر الأخرى ، كن ملكه . وكان مصير

(١) دارون Darwin : شارلز دارون من المفكرين المحورين ، أى الذين يعتبرون نقط تحول فى تاريخ الفكر (١٨٠٩ — ١٨٨٢) ولد فى انجلترا ، وهو عالم نباتى ومن كتبه أصل الأنواع الذى أثر على الفكر العالمى بدرجة لم يسبق لها مثيل حتى لقبت مجموعة مبادئه باسم الداروينية ، ولقد أثر على فرويد تأثيرا كبيرا ونلاحظ أن المهاد الفلسفى مثل مبدأ العلية قد أخذه فرويد عن دارون ، وهو ما كان محل نقد من علماء النفس اللاحقين الذين هاجموا مبدأ العلية نفسه .

(٢) عالم اجتماعى .

الأبناء قاسيا ، فإذا أثاروا غيرة الأب كانوا يقتلون أو يخصون أو يطردون . وكانوا يضطرون إلى السكنى في مجموعات صغيرة ، وأن يزودوا أنفسهم بالزوجات بأن يسرقوهن من الآخرين ، ثم قد ينجح واحد أو آخر من الأبناء في التوصل إلى موقف يشبه موقف الأب في العشيرة الأصلية . وتحقق موقف موات بطريقة طبيعية : وكان هو موقف الابن الأصغر الذي قد يستفيد من تقدم سن أبيه ، يحميه في ذلك حب أمه له ، ويحل محل الأب بعد موته . ويبدو صدى طرد الابن الأكبر مهوما بكثير من الأساطير والخرافات ، وكذلك صدى مركز الحظوة التي ينالها الابن الأصغر .

وتوجد الخطوة الحاسمة التالية نحو تغيير هذا النوع من التنظيم « الاجتماعي » في النظرية التالية : أن الإخوة الذين طردوا وعاشوا مع بعضهم في مجموعة تكاتفوا معا وهزموا الأب — وتبعاً لعادة تلك الأزمان — اقتسموا جميعاً جسده . ولا ينبغي أن يصدمنا أكلهم للحم البشر ، فقد عاش ذلك لأزمان طويلة من بعد ، ولكن المهم أننا ننسب إلى هؤلاء البدائيين نفس المشاعر والعواطف التي كشفنا عنها في البدائيين الذين يحيون في زماننا ، وفي أطفالنا بواسطة بحوث التحليل النفسي . بمعنى أنهم لم يكرهوا ويخشوا أباهم فقط ، ولكنهم مجّدوه كمثل يتبع . والحقيقة أن كل ابن أراد أن يضع نفسه في مكان

أبيه ، ومن ثم يصبح فعل أكل لحم البشر مفهوما كمحاولة لتأكيد التماثل الذى يريده الابن لنفسه مع أبيه بأن يدمج جزءا من الأب فى نفسه .

وإنه لتصور معقول أنه قد جاء وقت بعد مقتل الأب تشاجر فيه الإخوة مع بعضهم البعض حول من يخلفه ، وهو منصب أراد كل منهم أن يحوزه لنفسه وحده . وانتهوا إلى أن هذه المعارك كانت خطيرة كما هى غير مثمرة . وأدى هذا الفهم الذى دفعوا ثمنه باهظا ، وكذلك ذكرى فعل التحرير الذى حققوه معا وتعلق بعضهم ببعض الذى نما بينهم خلال ذلك النصر — إلى وحدة جمعت بينهم أخيرا ، هى نوع من العقد الاجتماعى . وهكذا ظهر إلى الوجود أول شكل لتنظيم اجتماعى يصحبه نبذ للإرضاء الغريزى ، واعتراف بالتزامات متبادلة ، وإعلان قداسة بعض العادات التى ما كان من الممكن خرقها — بالاختصار بدايات الأخلاق والقانون . ونبذ كل منهم ما كان يتمثله من التوصل إلى مركز الأب ، وامتلاك أمه أو أخته . وتواجد مع هذه تحريم الزنا بالأقارب وقانون الزواج من الأباعد ، وانتقل جزء طيب من السلطة التى خليت بوفاة الأب إلى النساء ؛ وتلى ذلك زمن السلطة الأموية . وعاشت ذكرى الأب طوال زمن « عشيرة الأخ » ، ووجد حيوان قوى ، ربما كان محل خشية فى

أول الأمر ، كبديل . وقد يبدو اختيار كهذا غريباً بالنسبة لنا ، ولكن الهوة التى خلقها الإنسان فيما بعد بين نفسه وبين الحيوانات لم توجد بالنسبة للانسان البدائى . ولا هى توجد بين أطفالنا الذين استطعنا أن نفسر مخاوفهم من الحيوانات باعتبارها مخاوف من الأب . واستبقت العلاقة بالطوطم الشعور المزدوج الأصلى تجاه الأب ، فقد كان الطوطم من ناحية هو السلف المتجسد والروح الحامية للعشيرة ، ومن ثم كانوا يقدسونه ويحمونه . ومن ناحية أخرى أقيم للطوطم مهرجان وكانوا يواجهونه فى يوم المهرجان بنفس المصير الذى واجهه الأب البدائى ؛ وكان كل الإخوة يشتركون معاً فى قتله وأكله (وهو ما يسميه روبرتسون سميث[1] عيد الطوطم) . وكان هذا اليوم العظيم فى الواقع عيداً للنصر ، احتفالا بانتصار الأبناء المتحدين على الأب .

فأين يقع الدين من هذا كله ؟ إن الطوطمية ، بعبادتها لبديل عن الأب ، وبالازدواجية نحو الأب التى تتضح فى عيد الطوطم ، وبإقامة المهرجانات التى تذكر به ، وبفرض قوانين يعاقب على خرقها بالموت — هذه الطوطمية ، كما أستنتج ، يمكن النظر إليها على أنها أول ظهور للدين فى تاريخ البشرية ، وهى تصور الارتباط الوثيق

---

(١) عالم اجتماعى .

الذى يوجد ، منذ فجر الزمن ، بين الشرائع الاجتماعية والالتزامات الأدبية . ويمكن أن نعالج هنا التطور اللاحق للدين بطريقة موجزة . ولا شك أن الدين سار فى خط متواز مع التطور الثقافى للبشرية والتغييرات التى ألمت ببناء التشريعات الاجتماعية الإنسانيه .

وكانت الخطوة التالية إلى الأمام من الطوطمية — هى تأنيس الكائن المعبود ، وفيها تأخذ الآلهة الإنسانية ، التى لا يخفى أن أصلها يمتد إلى الطوطم ، المكان الذى كانت الحيوانات تشغله قبلا ، فإما أن الإله ما يزال يمثل كحيوان أو أنه على الأقل يحمل ملامح الحيوان ، وقد يصبح الطوطم الرفيق المتلازم مع الإله ، وإما أن الأسطورة تجعل الإله مرة أخرى يلاشى ذلك الحيوان الذى لم يكن شيئاً سوى أنه سلفه . وفى وقت من الأوقات — ومن الصعب أن نقول متى كان ذلك — ظهرت كبريات الإلهات الأمهات ، ربما قبل ظهور الآلهة الذكور ، وعبدت إلى جوار الذكور لفترة طويلة تالية . وقامت خلال ذلك الوقت ثورة اجتماعية كبرى وأعقب النظام الأموى إعادة النظام الأبوى . والواقع أن الآباء الجدد لم يصلوا أبدا إلى السلطة المطلقة التى كانت للأب البدائى ، وكان هناك الكثيرون منهم وعاشوا فى مجتمعات أكبر مما كانت تعيش فيه العشيرة الاصلية ؛ وكان عليهم أن يتماشوا مع بعضهم البعض والتزموا التشريعات

الاجتماعية . ومن المحتمل أن المعبودات الأمهات تطورن عندما تحدد النظام الأموى ، وذلك لكى تنال الأمهات اللاتى أبعدن عن عرش السلطة تعويضاً عما سلبنه ، وفى أول الأمر تظهر الآلهة الذكور كأبناء إلى جوار كبريات الأمهات ، ولم يكتسبوا بوضوح سمات الأب إلا فيما بعد . وتعكس هذه الآلهة الذكور التى برزت فى فترة تعدد الآلهة ظروف عصور السيادة الأبوية ، فهى آلهة عديدة ، وكانوا يتقاسمون السلطة التى لهم ، وأحيانا ما كانوا يطيعون إلها أكبر . وتقودنا الخطوة التالية إلى الموضوع الذى يهمنا هنا : وهو عودة الإله الأب الواحد الأحد ذو السلطة التى لا تحد .

وينبغى أن أعترف بأن هذه النظرة التاريخية تترك الكثير من الفجوات وتحتاج فى كثير من النقاط إلى تثبت أكثر . ومع ذلك فإن من يعلن أن هذه النظرة التاريخية التى تعيد بناء التاريخ البدائى نظرة خيالية يسىء تقدير غناها وقوة الدليل التى أسهمت فى إقامته . ولقد أثبتت صحة أجزاء كبيرة من تاريخ الماضى أو أن آثارها ما تزال باقية حتى اليوم ، مثل الحق الأموى ، والطوطمية ، والمجتمعات الذكرية ، وهذه الأجزاء هى التى نضمها هنا معا فى كل . وعاشت بعض هذه الأجزاء فى شكل صورة أعيدت إلى الحياة بطريقة عجيبة . ومن ثم فإن أكثر من مؤلف قد حدث لهم أكثر من دهشة من التشابه

الوثيق بين طقوس التناول المسيحية — حيث يتناول المؤمن رمزيا دم ولحم إلهه — وبين عيد الطوطم الذى يبعث إلى الحياة معناه الداخلى. وما تزال بقايا عديدة من تاريخنا المبكر المنسى محفوظة فى أساطير وخرافات الشعوب، وأثمرت الدراسة التحليلية للحياة العقلية للطفل نتائج غنية غير متوقعة تعود بنا إلى الماضى وتملأ الفراغات فى المعرفة التى لدينا عن العصور البدائية. وكمساهمة منى نحو فهم العلاقة الهامة للغاية بين الأب والابن، ما على إلا أن أردد مخاوف الأبناء من الحيوانات، وخشيتهم أن يأكلهم أبوهم (وهو مايبدو للإنسان الراشد شيئا غريبا للغاية)، والثقل الضخم الذى لعقدة الخصاء. ولا يوجد شىء فيما نتصوره للماضى اخترعناه، لا يوجد شىء لا ينهض على أسباب معقولة.

ولنفترض أن ما نتصوره هنا للتاريخ البدائى شىء يمكن تصديقه ككل، وحينئذ بوسعنا أن نتعرف فى الطقوس والمذاهب الدينية على عنصرين: فمن ناحية تتثبت بعض نواحى التاريخ الأسرى القديم وتستمر فى الوجود، ومن ناحية أخرى فإن الماضى يبعث إلى الحياة ويعود بعد أن يكون قد تنوسى بزمن طويل. وهذا البعث وتلك العودة هما عنصران تغوضى عنهما حتى الآن ولم يفهم أمرهما لذلك، ومن ثم سنضرب لهما هنا مثلا واحداً على الأقل ولكنه مثل له وزنه.

ويجدر بوجه خاص أن نلاحظ أن كل ذكرى تعود من الماضي المنسى تعود بقوة هائلة ، وتحدث أثرا قويا لا يضاهيه أثر آخر على جماهير البشر ، وتفرض دعواها فرضا على العقل حتى ليتكسر أمامها كل اعتراض منطقي — تماما كالمثل الذي يقول إنى أومن بما لا يعقل credo quia absurdum ولا يمكن فهم هذه الخاصية الغريبة إلا بمقارنتها بالخيالات التي يتوهمها المريض النفسي ، فمن المسلم به من زمن طويل أن الخيالات في المرض النفسي تشتمل على جزء من حقيقة منسية ، وأن هذه الحقيقة المنسية تعود في يوم من الأيام ، ولكنها تعود مشوهة ، وعليها أن تتقبل هذا التشويه وأن يساء فهمها . ومن المسلم به كذلك أن هذا الجزء هو الذي يجعل المريض يعتقد اعتقادا جازما في صدق خيالاته ليس لسبب سوى أنها تغلف هذا الجزء وتنبع من صميمه . هذه النواة من الحقيقة — التي يمكن أن نسميها حقيقة تاريخية — ينبغي أن تخول كذلك إلى مذاهب الديانات المختلفة ، فالواقع أن الديانات تصطبغ بسمة الأعراض المرضية النفسية ، وإذا كان المريض النفسي يفقد صلته بالناس وينعزل لذلك ، فإن الديانات رغم ما بها من أعراض مرضية نفسية لم تحل بها لعنة الانعزال لأنها ظواهر جماعية .

ولم يتضح أي جزء آخر من التاريخ الديني الوضوح الضخم الذي

أقيم عليه التوحيد بين الشعب اليهودى ، واستمرار هـذا التوحيد فى الديانة المسيحية إذا حذفنا التطور من الطوطم الحيوانى إلى الإله الإنسانى الذى صحبه بشكل منظم رفيق (حيوانى) ، وهو تطور يمكن تتبعه دون أن توجد هوة فى ذلك التتبع ويمـكن فهمه بسهولة . (وبالمناسبة فإن كلاً من المبشرين الإنجيليين الأربعة مايزال له حيوانه المفضل) . فإذا سالمنا مؤقتا أن حكم امبراطورية فرعون كان السبب الخارجى لظهور فـكرة التوحيد ، فإننا نرى أن هـذه الفـكرة — التى انتزعت من تربتها ونقلت إلى شعب آخر — قد تملـكت هذا الشعب بعد فترة كمون طويلة ، واكتنزها كأغلى مايمتلك ، وأن هذه الفـكرة بدورها قد أبقت على هذا الشعب حيويته بأن أضفت عليه افتخار أنه الشعب المختار . إنهـا دين الأب البدائى والأمل فى المـكافأة والامتياز ثم أخيراً فى سيادة العالم المرتبطة بها[1] . وهذه الأمنية الأخيرة أى سيادة العالم — التى أمسك عنها الشعب اليهودى من زمن طويل[2] — ماتزل تعيش بين أعدائه فى اعتقادهم فى تآمر

---

(١) أنظر بتمعن العلاقة بين فـكرة سيادة العالم وبين التدين اليهودى ومن ثم الأصل الدينى للفـكرة . (الحفنى) .

(٢) كتب فرويد كتابه ولم تكن دولة إسرائيل قد ظهرت ولـكن الايديولوجية الصهيونية والخريطة التى قدمها الصهاينة لعصبة الأمم كخريطة لدولة إسرائيل تثبت أن اليهود لم يتخلوا عن الفـكرة أبدا .

«حكماء صهيون[1]» . وسنناقش في فصل لاحق كيف أن الخصائص المميزة للديانة التوحيدية المستعارة من مصر لابد قد أثرت في الشعب اليهودى ، وكيف شكلت أخلاقه تشكيلا للأحسن من خلال احتقار السحر والتصوف وتشجيعه على التقدم الفكرى وأوجه تسامى النفس . وقدر الشعب المنجزات العقلية والأخلاقية تقديرا عاليا لأنه كان سعيداً فى اعتقاده بأنه يملك الحقيقة ، ولأنه قد ملأه الوعى بأنه الشعب المختار[2] . وسأوضح كذلك كيف كان بوسع مصيره والمصائب التى كان يدخرها الواقع له أن تقوى كل هذه الميول . وسنتابع الآن تطوره التاريخى فى اتجاه آخر .

وكانت إعادة الحقوق التاريخية إلى الأب البدائى إشارة إلى تقدم عظيم ، ولكن ما كان من الممكن أن تكون هذه الإعادة هى النهاية ، فقد ألحت الأجزاء الأخرى كذلك من مأساة ماقبل التاريخ على أن يعترف بها . وليس من السهل أن نقول كيف دفعت

(١) « حكماء صهيون » : نسبة إلى بروتوكولات حكماء صهيون ، وهو المخطط اليهودى للاستيلاء على العالم وإخضاعه للسيطرة اليهودية ، ويقع فى ٢٤ فصلا ، وعرف أمره سنة ١٨٩٧ فى المؤتمر الصهيونى ببازل بسويسرة ، ونسب تأليفه إلى اشرجينزبرج من يهود أودسا ويعرف باسمه القلمى « أحدها عام » ، أى أحد أفراد الشعب ، الذى قدم إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ومات بها سنة ١٩٢٧ . (الحفنى) .

(٢) لاحظ النغمة العنصرية المتباهية غير الموضوعية فى كلام فرويد . (الحفنى) .

هذه العملية على الحركة ، ويبدو أن إحساساً متزايدا بالذنب قد أمسك بالشعب اليهودى — وربما بكل حضارة ذلك الزمن كنذير بعودة المادة المكبوتة . واستمر هذا حتى أسس أحد أفراد الشعب اليهودى ، فى شكل داعية سياسى — دينى ، مذهبا انفصل — مع مذهب آخر هو الديانة المسيحية — عن الديانة اليهودية . وأمسك بولس[1] اليهودى الرومانى من طرسوس بهذا الإحساس بالذنب وتتبعه تتبعاً صحيحا إلى منبعه البدائى . وأطلق على هذا اسم الخطيئة الأصلية ، وكانت هذه الخطيئة جريمة فى حق الإله وما كان فى الوسع التكفير عنها إلا بالموت ، فالموت قد نفذ إلى العالم من خلال الخطيئة الأصلية ، والواقع أن هذه الجريمة التى يستحق مرتكبها الموت ، كانت اغتيال الأب الذى أصبح معبوداً فيما بعد ، وأما الفعل الإجرامى نفسه فقد تنوسى ، ووقف مكانه شبح التكفير ، وهذا هو السبب فى أن هذا الشبح كان فى الوسع الترحيب به فى شكل بشارة خلاص (إنجيل) .

---

(١) بولس Paul : يهودى اسمه القديم شاول ، وكان يضطهد المسيحيين بعنف ، ولكنه ارتد عن يهوديته واضطهاده للمسيحيين وهو فى طريقه من القدس إلى دمشق نحو سنة ٣٣ ميلادية ، وتعمد على حننيا ، ثم اختلى فى شمال جزيرة العرب مدة ثلاث سنوات ، ومن بعدها باشر تبشير الأمم بالمسيحية فكان رسولها الممتاز رغم مقاومة اليهود قومه له ، وبشر مدن آسيا الصغرى (ومنها أفسس وغلاطيا) ومكدونيا ومدينة كورنثة وكرز فى أثينا ، وحبس فى القدس مرتين وسيق إلى روما حيث قطع رأسه سنة ٦٧ م . ، وله ١٤ رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة وإلى بعض تلاميذه أهمها إلى غلاطيا وأفسس وكورنثوس وروما . (الحفنى) .

وضحى ابن للإله ، هو نفسه برىء ، ضحى بنفسه ، وبذلك تحمل ذنب العالم . وكان لابد أن يكون فاعل ذلك ابن ، لأن الخطيئة كانت اغتيال الأب . وربما كان للتراث الأسطورى الشرقى والإغريقى أثره على تشكيل شبح الخلاص هذا . ويبدو أن جوهر الخلاص هو ما أضافه بولس إلى المسيحية ، فقد كان إنساناً له موهبة الدين ، بأصدق معانى الجملة ، وكانت فى أعماق روحه آثار للماضى ، مستعدة للنفاذ عنوة إلى مناطق الوعى .

وكانت تضحية المخلص بنفسه ، كإنسان برىء ، تشويها متعمداً واضحا يصعب التوفيق بينه وبين التفكير المنطقى ، فكيف كان من الممكن أن يأخذ إنسان برىء على نفسه ذنب القاتل بأن يسلم نفسه للقتل ؟ ولا يوجد مثل هذا التعارض فى الواقع التاريخى ، «فالمخلص» لايمكن أن يكون سوى من كان أكثر الناس ذنباً ، وهو زعيم عشيرة الأخ التى تغلبت على الأب . وينبغى فى رأيى أن يظل ، ما إذا كان قد وجد متمرد وزعيم أكبر كهذا ، شيئا غير مؤكد ، ومن المحتمل جداً أنه وجد ، ولكننا ينبغى كذلك أن نعتبر أن كل فرد من أفراد عشيرة الأخ كان يتمنى بالتأكيد أن يكون المضحى بنفسه ، وبذلك يخلق لنفسه مركزا فريدا كبديل عن التشبه بالأب ، هذا التشبه الذى كان عليه أن يتخلى عنه عندما كان مغمورا فى

جماعته . وإذا لم يكن هناك زعيم كهذا ، إذن لكان المسيح الوريث لأمنية لم تتحقق ؟ وإذا كان قد وجد مثل هذا الزعيم فإذن يكون المسيح هو خليفته ومجسده . ومع ذلك فليس المهم أن يكون ماعندنا هنا هو أمنية أو عودة لواقع قد نسى ، فعلى أى حال فإنه يوجد هنا أصل فكرة البطل — وهو الذى يتمرد على الأب ويقتله بشكل مقنع أو بآخر[1] . وهنا نجد أيضاً المنبع الحقيقى « للذنب المأسوى » الذى للبطل فى الدراما — وهو ذنب من الصعب إظهاره بشكل آخر . ولا نشك أن البطل والجوقة فى المأساة الإغريقية يمثلان نفس هذا البطل وعشيرة الأخ ، ولقد بدأ المسرح فى العصور الوسطى من جديد يعرض قصة آلام المسيح عند الصلب ، وهو شىء لا يمكن أن يكون بلا معنى .

ولقد سبق لى أن ذكرت أن الاحتفال المسيحى فى التناول المقدس ، حيث يتناول المؤمن لحم ودم المخلص فيتوحد به ، يكرر محتوى العيد القديم للطوطم ، وهو يكرره فى الحقيقة فى معناه الرقيق الفتان وليس فى معناه العدوانى . ويتضح مع ذلك تكافؤ الضدين

---

(١) يلفت أرنست جونز انتباهى إلى احتمال أن الإله ميثرا الذى يذبح الثور يمثل هذا الزعيم الذى تمجد فى عمله بشكل بسيط . ومن المعروف جداً كم طالت منازعة عبادة ميثرا للانتصار الذى أحرزته المسيحية أخيراً . (فرويد) .

الذى يسود علاقة الأب — الابن ، فى النتيجة النهائية للابتكار الدينى ، الذى كان الهدف منه استرضاء المعبود الأب ، ولـكنه ينتهى إلى عزله عن العرش ونبذه . وكانت الديانة الموسوية ديانة أب ، وصارت المسيحية ديانة ابن ، وشغل الإله القديم ، الأب . المركز الثانى ، وحل المسيح ، الابن ، مكانه ، تماماً مثلما كان يحدث فى تلك الأزمان المظلمة عندما كان ابن يتمنى أن يفعل ذلك . وصار بولس محطم الديانة اليهودية بتطويره لها ، ويرجع نجاحه فى أساسه إلى أنه من خلال فكرة الخلاص أوجد شبح الإحساس بالذنب ، ويرجع كذلك إلى تخليه عن فكرة الشعب المختار والعلامة الظاهرة — وهى الختان . وهذه هى الطريقة التى بها يمكن أن تصبح الديانة الجديدة ديانة شاملة عالمية . ومع أن هذه الخطورة ربما كان الدافع إليها رغبة بولس فى الانتقام بسبب المعارضة التى واجه اليهود بها ابتكاره ، فإنه قد أعاد إحدى سمات ديانة أتون القديمة ، وهى سمة العالمية ، ورفع عنها حصراً كانت قد اكتسبته خلال انتقالها إلى حامل جديد هو الشعب اليهودى .

وكانت الديانة الجديدة فى نواح معينة عبارة عن نكوص ثقافى بالمقارنة بالديانة اليهودية القديمة ، وهذا يحدث بانتظام عندما تغزو جماهير جديدة من شعب ما ، لها مستوى ثقافى أدنى ، تغزو ثقافة أقدم أو تُدخل إليها ، فالديانة المسيحية لم تكن لها الارتفاعات

الروحية السامقة التى حلقت إليها الديانة اليهودية . ولم تكن الديانة المسيحية ديانة توحيدية بمعنى الكلمة ، فقد نقلت إليها من الشعوب المجاورة طقوساً رمزية عديدة ، وأعادت عبادة الإلهة الأم الكبرى ، وأفسحت مجالا لمعبودات كثيرة من الديانة المتعددة الآلهة بشكل مقنع ، ولكن يسهل اكتشافه ، ولو أنها نصبتها فى أماكن ثانوية . وأكثر من ذلك لم تمتنع المسيحية ، مثل ديانة أتون والديانة الموسوية اللاحقة عليها ، على تسلل الخرافات إليها والعناصر السحرية والغامضة التى أثبتت أنها كانت عائقا كبيراً فى سبيل التطور الروحى خلال الألفى سنة القادمتين .

وكان انتصار المسيحية نصراً مجدداً لكهنة أمون على إله أخناتون بعد فترة ألف وخمسمائة سنة وعلى منطقة أوسع . ومع ذلك كانت المسيحية علامة تقدم فى تاريخ الدين : أى فيما يتعلق بعودة المكبوت ، ومن الآن فصاعداً ، كما أرى ، صارت الديانة اليهودية حفرية .

وإنه لشيء له قيمته أن نحاول أن نفهم السبب الذى من أجله أثرت الفكرة التوحيدية على الشعب اليهودى وحده هذا التأثير العميق ، واستمسك بها كل هذا الاستمساك . وإنى لأعتقد أن هذا السؤال يمكن أن يكون جواباً ، وهو أن العمل الذى هو عظيم وحقير

فى نفس الوقت ، وهو قتل الأب الذى ساد فى العصور البدائية ، تقل إلى اليهود ، كمصير مقدور ، وهو أن يكرروه على شخص موسى ، وهو بمثابة بديل للأب ، ولكنه بديل عظيم . وكانت هذه حالة من الحالات التى تقسم بأن صاحبها يقوم بفعل ما وليس بعملية تذكر ، وهى حالات كثيراً ما تحدث مع العصابيين خلال جلسات التحليل النفسى . ولقد استجاب اليهود لمذهب موسى — الذى لابد أنه أثار ذاكرتهم — وأنكروا ما ارتكبوه فلم يتقدموا أكثر من اعترافهم بالأب الكبير ، وتوقفوا عند النقطة التى بدأ منها بولس فيما بعد مواصلة التاريخ البدائى . وكان من الممكن أن يكون الموت العنيف لإنسان آخر عظيم فرصة يبدأ منها بولس إبداع ديانة جديدة . وكان هذا الإنسان يعتقد فيه عدد صغير من الأتباع من مملكة يهوذا ، أنه ابن للإله ، وأنه المسيح الموعود ، وهو الذى انتحل فيما بعد بعضاً من تاريخ الطفولة الذى كان متعلقاً بموسى . والواقع أننا لا نملك تقريباً معرفة محددة بتاريخه أكثر مما نعرف عن موسى ، ولا نعرف هل كان هو حقيقة الإنسان العظيم الذى تصوره الأناجيل ، أم أن واقعة موته وظروفها كانت بالأحرى هى العامل الحاسم فى إضفاء هذه الأهمية عليه . وحتى بولس الذى صار رسوله لم يكن هو نفسه يعرفه .

وهكذا صار مقتل موسى الذى ارتكبه شعبه والذى رآه سيللين

فى آثار التراث ، والذى تصوره جوته[1] الشاب دون أن يقوم عليه أى دليل ، وهو شيء غريب للغاية — جزءاً لا يتجزأ من تفكيرنا ، وهمزة وصل هامة بين العقل المنسى للعصور البدائية ومعاودة ظهوره بالتالى فى شكل الديانات التوحيدية[2] . وإنها لفكرة جذابة أن نقول بأن الذنب المتعلق بمقتل موسى ربما كان هو الدافع إلى قيام أمنية ظهور المسيح الذى سيعود ويعطى شعبه الخلاص والسيادة الموعودة على العالم . إذا كان موسى هو هذا المسيح الأول ، فإن يسوع صار بديله وخليفته ، وحينئذ يحق لبولس بعض الشيء أن يقول للشعوب : « أنظروا ، إن المسيح قد قدم حقيقة ، ولقد قتل حقاً أمام أعينكم » . وحينئذ تكون هناك أيضاً بعض الحقيقة التاريخية فى إعادة مولد المسيح ، لأنه كان موسى الذى بعث حياً ، وكان كذلك الأب

---

(1) Israel in der Wuste, vol. VII of the Weimer edition, P. 170.

جوته Goethe : ولفجانج (١٧٤٩ — ١٨٣٢) أكبر كتاب ألمانيا شهرة وأرفعهم قدراً فى الشعر وأرقاهم أدبا ، ولد فى فرانكفورت ، وصادق دوق فيمار وتبعه إلى فرنسا عند غزوها سنة ١٧٩٢ وصار وزيره . ومن أشهر أعماله فاوست ، وايجمونت ، والديوان الشرقى للشاعر الغربى . على أن الأكبر من ذلك جميعه شخصية جوته المتألقة التى ملكت زمام الحكم والعلم والأدب . (الحفنى) .

(2) فيما يتعلق بهذا قارن عرض فريزر المشهور فى (الغصن الذهبى : Frazer-The Golden : Bough) ، الجزء الثالث المعنون « الاله الميت » (١٩١١) . (فرويد) .

البدائى العائد للعشيرة البدائية — بشكل مغاير هذه المرة ، وكابن فى مكان أبيه .

ولقد كفّر الشعب اليهودى المسكين الذى استمر على عناده وصلابة رقبته فى إنكار مقتل « أبيه » عن ذلك تكفيراً غالياً[1] . خلال قرون ، وسمع المرة تلو الأخرى الزجر الذى يقول : « أنتم قتلتم إلهنا » ، وهذا الزجر فى محله إذا فسر التفسير الصحيح . وهو تفسير يقول بالإشارة إلى تاريخ الديانة : « إنكم لن تقروا أنكم قتلتم الإله » (الإله النموذج أو الأب البدائى أو الصور التى يتجسد فيها) . وينبغى أن يضاف شىء ما — وهو : « حقيقة أننا فعلنا هذا الشىء نفسه ، ولكننا [illegible] فعلنا ، ومنذ ذلك الوقت تطهرنا » . وليست كل الاتهامات التى تطارد بها معاداة السامية [illegible] دى تقوم على أسس طيبة كهذه ، فلابد طبعا أن هناك أكثر من سبب لظاهرة بمثل هذا التركيز والقوة الدائمة كظاهرة الكراهية الشائعة لليهود . ويمكن أن نستشف سلسلة كاملة من الأسباب ، وبعضها لا يحتاج إلى تفسير ينهض على اعتبارات واضحة ، وبعضها الآخر يوجد على أعماق بعيدة ، وينبثق من مصادر خفية قد نعتبرها دوافع محددة .

---

(١) كانت لمعاناة اليهود أسباب أخرى اقتصادية واجتماعية لم يذكرها فرويد ولم يتعرض لها بتاتا ، وهو هنا يدرك ما يمكن أن يقابل به تفسيره من معارضة لذلك يسبق المعارضة ، ولكنه لا يذكر الأسباب الأخرى . (الحفنى) .

وأكثر هذه الأسباب كذباً فى المجموعة الأولى هو الزجر الذى يقول بأن اليهود أجانب ، وهو كاذب طالما أن اليهود اليوم فى كثير من الأماكن التى يسيطر عليها العداء للسامية كانوا أقدم عناصر السكان ، أو أنهم جاءوا قبل السكان الحاليين . وهذا ما حدث مثلا فى مدينة كولون التى وفد إليها اليهود مع الرومان قبل أن تستعمرها القبائل الألمانية . وهناك أسباب أقوى من ذلك للعداء للسامية ، مثلا كون اليهود يعيشون فى الغالب كأقلية بين الشعوب الأخرى ، طالما أن الإحساس بالتضامن بين الجماهير ، لكى يكون إحساساً كاملا ، يحتاج إلى كراهية لأقلية خارجية ، ويستثير الضعف العددى للأقلية الجماهيرية من الأغلبية إلى اضطهادها . وهناك مع ذلك خاصتان أخريان لا يمكن اغتفارهما لهم ، الأولى أنهم يختلفون فى نواح كثيرة عن « مضيفيهم » . وهم ليسوا كذلك طالما أنهم ليسوا جنساً آسيوياً أجنبياً كما يقول أعداؤهم ، ولكنهم يتكونون فى الأغلب من بقا شعوب البحر الأبيض ويرثون ثقافتهم . ومع ذلك فهم مختلفون — ولو أن من الصعب أحياناً أن نحدد أوجه هذا الاختلاف — وخاصة اختلافهم عن الشعوب الشمالية . ولكن التعصب العنصرى يهول من أمر الاختلافات الصغيرة دون الاختلافات الجوهرية ، وهو شىء نجده غريباً . والخاصية الثانية لها

تأثير معترف به أكثر ، وتقول إن اليهود يتحدون الاضطهاد ، بل إن أقسى أنواع الاضطهاد لم تنجح فى إبادتهم ، وهم يظهرون على العكس قدرة على إدارة أعمالهم فى الحياة العملية ، وحيثما تفتح أمامهم المجالات فإنهم يسهمون إسهامات لها قيمتها فى المدن التى يعيشون بين ظهرانيها[1]

وتكمن جذور الدوافع العميقة للعداء للسامية فى الأزمان التى عفى عليها من قديم ، وهى دوافع تنبع من اللاشعور ، وإنى لمستعد لسماع أن ما سأقوله سيبدو لأول وهلة شيئا لا يصدقه العقل ، وإنى لأجرؤ على أن أؤكد أن الغيرة التى استثارها اليهود لدى الشعوب الأخرى بإصرارهم على القول بأنهم المولود الأول المحبب للإله الأب ، لم تتغلب عليها هذه الشعوب الأخرى ، كما لو أن هذه الشعوب قد صادقت على هذه الدعوى . وأكثر من ذلك فإن اليهود أكدوا عزلتهم عن الآخرين بعادات على رأسها عادة الختان التى كان لها انطباع منفر شديد . وربما كان تفسير هذا الانطباع أن الختان يذكر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهوبة وبأشياء ترجع إلى ماضيها البدائى الذى يسرهم أن ينسوه . وهناك أخيراً أحدث الدوافع وهو دافع التسلسل ، فلا ينبغى أن ننسى أن كل الشعوب التى تتفوق الآن

(١) واضحة النعرة العنصرية فى كلام فرويد . (الحفنى) .

فى ممارسة العداء للسامية لم تصبح مسيحية إلا فى الأزمان الحديثة نسبيا ، وأنها أجبرت على اعتناقها فى بعض الأحيان بحد السيف ، وربما جاز لنا أن نقول أن إيمانها جميعا «إيمان فاسد» ، وأنها تحت قشرة المسيحية الرقيقة ظلت على إشراكها الهمجى كما كانت أسلافها ، ولم تتغلب بعد على حقدها على الديانة الجديدة التى فرضت عليها ، وأنها أسقطت هذا الحقد على المصدر الذى أتت إليها منه المسيحية ، وسهلت الحكاية التى ترويها الأناجيل عن الوقائع التى جرت أحداثها بين اليهود ، والحقيقة أنها رواية لا تتحدث إلا عن اليهود ، سهلت هذا الإسقاط ، والنتيجة أن كراهية اليهودية هى فى الصميم كراهية للمسيحية ، ولا يدهشنا أن نجد أن الترابط الوثيق بين الديانتين التوحيديتين قد وجد تعبيراً عدائيا قويا عنه لكل من الديانتين فى الثورة الاشتراكية الوطنية الألمانية (النازية)[1] .

---

(١) هذا الكلام ليس علميا ، وإنما هو من قبيل الدعاية ، ومقارنة يعقدها بين اليهودية والمسيحية ، وإعلاء لليهودية على المسيحية ؛ ثم استعداء المسيحية على النازية لأهداف سياسية . (الحفنى) .

٥ — مصاعب في التطبيق

ربما أفلح الفصل السابق فى إقامة تشابه بين عمليات مرض العصاب وبين الأحداث الدينية ، ومن ثم أفلح فى أن يشير إلى الأصل الذى ما كان يتوقعه أحد الذى تستقى منه الأحداث الدينية .

وإننا لنجد أن هناك مسألتين تشكلان صعوبة فى نقل معنى الأحداث من مجال علم النفس الفردى ، حيث تجد فيه تفسيرها إلى مجال علم النفس الجماعى . وهاتان الصعوبتان تختلفان عن بعضهما البعض فى الطبيعة وفى الأهمية ، وينبغى لنا الآن أن نناقشهما . والصعوبة الأولى أننا لم نناقش هنا حتى الآن إلا حالة واحدة من الحالات التى يحفل بها علم دراسة ظواهر الأديان ، وأن مناقشتها لم تلق أى ضوء على الحالات الأخرى ، وإنى لأجد أنى للأسف مضطر إلى التسليم بأنى لا أستطيع أن أناقش إلا حالة واحدة فقط كمثال لبقية الحالات ، وأنى لا أمتلك المعرفة التى يتمتع بها الخبير ، والتى تلزم لاستكمال هذا البحث . وربما كانت هذه المعرفة المحدودة هى ما يسمح لى بأن أضيف بأنه يبدو لى أن قيام الديانة المحمدية كان تكراراً على نطاق ضيق للديانة اليهودية ، وأن الديانة المحمدية ظهرت مقلدة للديانة اليهودية[1] . وهناك من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد

---

(١) يردد فرويد كلام كثير من المستشرقين ويرد عليهم الأستاذ العقاد بأن التشابه =

أن النبي محمد كان يزمع فى الأصل اعتناق الديانة اليهودية ، هو كل شعبه وأثمرت لدى العرب العودة إلى الإيمان بالأب الواحد البدائى الكبير تقدماً غير عادى فى الثقة بالنفس ، ثقة أدت بهم إلى إحراز نجاحات دنيوية عظيمة ، ولكنها فى الواقع استنفدت نفسها فى هذه النجاحات . وكافأ الله شعبه الإسلامى المختار بأكثر مما كافأ به يهوا شعبه اليهودى المختار عندما اعتنق ديانته . ولكن التطور الداخلى للديانة الإسلامية الجديدة سرعان ما توقف ، وربما كان ذلك لأن العمق كان ينقصها ، وهو العمق الذى تحلت به الديانة اليهودية وكان نتيجة مقتل مؤسسها . ولذلك فإن ديانات الشرق التى تبدو

= بين الأديان المنزلة يعود إلى أن المصدر واحد وهو الله ، ثم إن الاسلام يعترف باليهودية والنصرانية ، وإن كان يخالفهما فى أشياء كثيرة . يقول القرآن « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين » . ولعلنا نلاحظ أن فرويد يبنى كتابه كله على الظن وهو يركب الأحداث تركيبا يخدم غرضه النهائى وهو إعلاء شأن اليهود والديانة اليهودية على سائر الأمم والديانات . وربما كان أعجب أحكامه تعسفا هو قوله عن توقف التطور الداخلى للاسلام وأن الاسلام ينقصه العمق وليس هذا إلا لأن مؤسس الاسلام لم يقتل بينما قتل مؤسس اليهودية فى زعمه . إذن قتل المؤسس هو سبب عمق اليهودية ، ومع ذلك فنفس السبب لايعمق المسيحية ، مع أنه يقر بقتل مؤسسها ، ولا يعمق ديانة أتون مع أنه يقر بقتل أخناتون . شىء غريب وتحامل غريب ومنطق غريب ! ! الحقيقة أن ما يسمى العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود ، أو عداء السامية لغير الساميين ! ! يقول القرآن « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (الآية ٨٣ سورة آل عمران) .

(الحفنى) .

فى ظاهرها وكأنها تقوم على العقل وهى فى جوهرها عقائد سلف ، تتوقف عند مرحلة مبكرة من عملية إعادة بناء الماضى .

وإذا كان من الصحيح أننا نجد أن المضمون الوحيد لديانة الشعوب البدائية التى تعيش فى عصرنا هو عبادة كائن أعلى ، فتفسيرنا الوحيد لذلك هو أن تطور الدين قد أصابه التغضن ، ومن هنا نقيم موازنة بالحالات التى لاعد لها من أمراض العصاب الأثرية التى نعثر عليها فى الطب النفسى . ولسنا ندرك سبب عدم وجود مزيد من التطور هنا وكذلك هناك ، وينبغى أن نقول أن الهبات الفردية لهذه الشعوب هى المسئولة عن ذلك وعن الاتجاه الذى تسلكه نشاطاتها ، وعن ظروفها الاجتماعية العامة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الاكتفاء بتفسير ما هو موجود وعدم محاولة تفسير ما لم يحدث قاعدة طيبة يعمل بها فى التحليل النفسى .

والصعوبة الثانية فى نقل معنى الأحداث من مجال علم النفس الفردى إلى مجال علم النفس الجماعى صعوبة ذات دلالة أكبر ، لأنها تقدم مشكلة جديدة ذات طبيعة أساسية . وينهض سؤال حول الشكل الذى يتخذه التراث الذى ما يزال قائماً يفعل فعله فى حياة الشعوب . ولكن مثل هذا السؤال لا وجود له مع الأفراد ، لأنه فى حالة الأفراد يسوى الأمر عن طريق وجود مخلفات فى اللاشعور لذكرى الماضى .

ولنعد إلى المثل الذى ضربناه من التاريخ ، فلقد قلت أن الالتقاء والاتفاق اللذين حدثا فى قادش قاما على استمرار وجود تراث قوى يعيش فى ضمير الناس الذين عادوا من مصر . ولا توجد مشكلة هنا ، وقلت مقترحاً أن مثل هذا التراث أبقى عليه التذكر الواعى بالنقل الشفاهى من الأسلاف على امتداد جيل أو جيلين فقط شاركا وكانا شهود عيان للأحداث موضوعنا . فهل بوسعنا أن نعتقد نفس الشىء بالنسبة للقرون اللاحقة — وهو أن التراث كان دائماً يقوم على معرفة كانت تنقل بطريقة عادية من السلف إلى الخلف ؟ ولم نعرف من كان هؤلاء الأشخاص الذين اختزنوا هذه المعرفة ومرروها من فم إلى فم ، كما عرفنا فى الحالة الأولى . ويقول المؤرخ « سيللين » أن تراث مقتل موسى ظل قائماً بين الكهنة حتى قيض له آخر الأمر أن يدون ، وعن طريقه مدوناً استطاع سيللين أن يحزره . ومع ذلك فكان من الممكن أن يظل مجهولا من كثيرين ، فهو لم يكن معرفة يمكن أن يحيط بها الجميع علماً . فهل هذا الشكل من النقل بكافٍ كى يفسر ما كان له من أثر ؟ وهل لنا أن نثق فى معرفة كهذه قاصرة على قلة من الناس، وهل تكون لها قوة الاستحواذ على خيال الجماهير استحواذاً أبدياً ، عندما يعلمون بها ؟ ويبدو بالأحرى أن هناك شيئاً فى جماهير الشعب الجاهلة كذلك يشبه هذه المعرفة التى تحظى بها القلة ، وهذا الشىء يتقدم ليلاقيها حالما تفصح القلة عنه .

ويصعب أكثر أن نصل إلى خاتمة عندما نتحول إلى الحالة المشابهة فى الأزمان البدائية ، ففى خلال آلاف القرون نسى بالتأكيد أنه كان هنالك أب بدائى كانت له الصفات التى ذكرتها ، ونسى المصير الذى لاقاه . وليس بوسعنا أن ندعى وجود رواية شفاهية كالتى افترضناها عن موسى ، ومن ثم ففى أى معنى يمكن أن تكون المسألة مسألة رواية تراث ؟ وفى أى شكل يمكن أن توجد هذه الرواية؟

ولكى أساعد القراء الذين لا يرغبون أو ليس لديهم الاستعداد فى التوغل فى المسائل السيكولوجية المعقدة سأضع منذ البداية نتيجة البحث الآتى . وإنى لأعتقد أن الاتفاق بين الفرد والجماعة تام تقريباً فى هذه النقطة . وتستبقى الجماهير كذلك خاطراً من الماضى فى الآثار غير الواعية للذاكرة .

وتبدو حالة الفرد واضحة جداً ، فلقد استبقى أثر الأحداث المبكرة فى الذاكرة ، ولكنه استبقاه فى حالة سيكولوجية خاصة . وقد نقول إن الفرد كان يعلم بهذه الآثار دائماً بالمعنى الذى نعلم به المادة المكبوتة . ولقد كونا تصورات معينة — ويمكن إثباتها بسهولة بالتحليل — عن الطريقة التى يصبح بها الشىء منسياً ، وعن الطريقة التى يمكن أن يبرز بها إلى الضوء من جديد . والمادة المكبوتة لا تتلاشى ولكنها « تكبت » فقط ، وتوجد آثارها فى الذاكرة

بشدتها الأصلية ، ولكنها توجد معزولة بسبب وجود نشاط ذهنى يعمل على عزلها ، وهى لا تتصل بالعمليات الفكرية الأخرى بل تكون لا شعورية وبعيدة عن تناول الشعور . وقد يحدث أن تفلت أجزاء معينة من المادة المكبوتة من هذه العملية وتظل فى تناول الذاكرة وتعاود الظهور أحيانا فى الشعور ، ولكنها حتى فى ذلك تظل معزولة وتبقى جسما غريبا لا رابط بينه وبين بقية العقل . نقول إن هذا قد يحدث ، ولكن ليس شرطا أن يحدث باستمرار . وقد يكون الكبت كذلك كبتا تاما ، وهذه هى الحالة التى أقترح مناقشتها .

وتستبقى هذه المادة المكبوتة دافعها إلى التغلغل فى الشعور ، وهى تصل إلى هدفها عندما تتوافر لها ثلاثة شروط :

١ — عندما تقل قوة النشاط الذهنى الذى يعمل على إبقائها معزولة ، ويتسبب فى ذلك المرض الذى يؤثر فى الأنا نفسه ، أو يؤثر فيه من خلال توزيع النشاط الذهنى توزيعا مختلفا فى الأنا ، كما يحدث بانتظام خلال النوم .

٢ — عندما تقوى هذه الغرائز المرتبطة بالمادة المكبوتة ، وخير مثل لذلك العمليات التى تحدث خلال فترة البلوغ .

٣ — حيثما تسببت الأحداث الحديثة فى إنتاج انطباعات أو تجارب تشبه كثيراً المادة المكبوتة وتكون لها القوة على إيقاظها .

ومن ثم تقوى المادة الحديثة بالطاقة الكامنة للمادة المكبوتة ، ويكون للمادة المكبوتة أثرها من خلف المادة الحديثة وبمساعدتها .

ولا تنجح المادة التى كبتت فى أى من الحالات الثلاثة فى الوصول إلى الشعور دون أن يعوقها عائق أو دون تغيير ، وإنما الذى يحدث دائماً أن التشويه يلحق بها ، مما يشهد على وجود مقاومة لم تهزم تماماً ، وتنبع من انصراف النشاط الذهنى إلى عزل المادة المكبوتة ، أو تشهد بالأحرى على وجود تأثير معدل لتجربة حديثة ، أو على وجود الاثنين معاً .

ولقد استخدمت ، كعلامة مميزة ومَعْلَم ، الاختلاف بين أن تكون العملية النفسية شعورية أو لاشعورية . وتوجد المادة المكبوتة لاشعورية . ولو قلبنا هذه الجملة — أى إذا كان الاختلاف بين صفة الشعور وصفة اللاشعور يتماثل مع الاختلاف بين « ماهو من صفات الأنا » وبين « المكبوت » — لكان الأمر مجرد تبسيط للأمور . والشيء الجديد والمثير أن حياتنا العقلية تختزن أمثال هذه المادة اللاشعورية المعزولة . والحقيقة أن الأمور أعقد من ذلك ، لأن الصواب أن كل ماهو مكبوت لاشعورى ، ولكن ليس من الصواب أن كل ماينتمى إلى الأنا شعورى . ولقد أدركنا أن الشعور صفة غير دائمة ولا تتواجد مع العملية النفسية إلا مؤقتاً . ولذلك فإننا

ينبغى من أجل أهداف بحثنا أن نستبدل تعبير « الشعورى » بتعبير « له القدرة على أن يكون شعوريا » ونحن نسمى هذه الصفة « تحت الشعور » ، وحينئذ نستطيع أن نقول بطريقة أصح : أن الأنا أساسا تحت شعورى (أى أن الشعور مفترض فيه) ولكن أجزاء منه لا شعورية .

وهذه الجملة الأخيرة تعلمنا أن الصفات التى ذكرناها حتى الآن لاتكفى لتنير لنا الطريق فى ظلام الحياة العقلية . وينبغى أن نضيف إلى ماسبق تمييزاً جديداً ، ليس نوعياً ولكنه طبوغرافى (مكانى) وتوليدى فى الوقت نفسه — وهو ما يعطيه قيمة خاصة . ونحن الآن نميز فى حياتنا العقلية — التى نراها بوصفها جهازا يتركب من عدد من السلطات والنواحى أو الجهات — بين منطقة نطلق عليها اصطلاح « الأنا الواقعى » ، وبين منطقة أخرى نسميها « الهو » . ومنطقة « الهو » أقدم زمنيا من الأنا ، ويتولد الأنا منها ويتطور بتأثير العالم الخارجى كما تنمو الحديقة وتتطور حول شجيرة . وغرائزنا الأولية تبدأ فى منطقة الهو ؛ وكل العمليات التى تتم فى منطقة الهو عمليات لا شعورية . وتتواصل الأنا ، كما ذكرت ، مع منطقة تحت الشعور ، ومن طبيعة أجزاء منها أن تظل لا شعورية . وتخضع العمليات النفسية فى « الهو » لقوانين مختلفة كل الاختلاف .

وتتباين وجهاتها والتأثيرات التى تتبادلها فيما بينها عن العمليات التى تسود الأنا . واكتشاف هذه الاختلافات هو الذى هدانا إلى هـذا الإدراك الجديد ، وهو الذى يدعمه .

وينبغى النظر إلى المادة المكبوتة باعتبارها شيئاً ينتمى إلى الهو ويطيع حيله . وهى لا تختلف عنه إلا فى أصل تكوينها . وهـذا الاختلاف يبدأ فى المرحلة الأولى بين الأنا يتخلق عن الهو ، ثم يستولى الأنا على جزء من الهو ويرفعه إلى مستوى تحت الشعور ، ولكن الأجزاء الأخرى تظل بمنأى عن التأثير وتظل فى الهو بوصفها « اللاشعور » الخالص . ومع ذلك فإن بعض الحيل الدفاعية تتمكن من عزل بعض الخواطر والعمليات النفسية خلال تطور الأنا ، وتسلبها صفة تحت الشعور ، ومن ثم تسقط من جديد إلى منطقة الهو وتستحيل أجزاء أصلية منه . وإذن فهذه هى « المادة المكبوتة » فى الهو . أما فيما يتعلق بالمروز بين هاتين المنطقتين العقليتين فإننا نفترض أنه من ناحية يمكن رفع العمليات اللاشعورية فى الهو إلى مستوى تحت الشعور ويمكن إدماجها فى الأنا ، ومن ناحية أخرى يمكن للمادة اللاشعورية فى الأنا أن تسير فى الاتجاه المضاد وأن تعود إلى منطقة الهو . وأما أن منطقة أخرى تتحدد فيما بعد تخومها فى الأنا ، فهذا أمر لا يعنينا هنا .

وقد يبدو كل ذلك بعيداً عن أن يكون بسيطا ، ولكننا لو ألفنا الصورة التى لم نعتدها للتكوين الطبوغرافى للجهاز النفسى ، فلن تكون هناك صعوبات معينة . وسأضيف هنا أن طبوغرافية النفس التى طورت صورتها هنا ليس لها بوجه عام أية علاقة بالتشريح المخى ، ولكنها تصطدم به عند نقطة واحدة فقط . ووجه عدم الرضا عن هذا التصور — الذى ألاحظه بوضوح كما يلاحظه غيرى — له جذوره فى جهلنا المطبق للطبيعة الدينامية للعمليات العقلية . ونحن ندرك أن مايميز الفكرة الشعورية عن الفكرة تحت الشعورية ، وهذه عن الفكرة اللاشعورية ، لايمكن أن يكون أى شىء إلا تعديلا أو هو ربما كذلك توزيع آخر للطاقة النفسية . ونحن نتحدث عن شحن الأفكار بالعاطفة ، وحدة شحنها بالعواطف ، ولكن بعد ذلك تنقصنا كل معرفة وتنقصنا كذلك البداية لافتراض صالح مفيد . وبوسعنا على الأقل أن نقول عن ظاهرة الشعور أنها ظاهرة تتشعب أساساً إلى الإدراك ، وكل إدراك يتولد عن مثيرات مؤلمة لمسية أو سمعية أو مرئية هو فى الغالب إدراك شعورى . والعمليات الفكرية ، وما يمكن أن يشبهها فى الهو ، عمليات لاشعورية فى جوهرها ، وهى تنتقل إلى الشعور بحكم ارتباطها ، عن طريق وظيفة الكلام ، بالآثار التى يخلفها الإدراك بواسطة اللمس والسمع فى الذاكرة . أما فى

الحيوانات التى لاتعرف الكلام فإن هذه العلاقات لابد أن تكون أبسط من ذلك .

والانطباعات التى تركتها التجارب الأذوية المبكرة ، والتى بدأنا منها بحثنا ، إما أنها لاتترجم إلى ما تحت الشعور ، وإما أنها توجه من جديد وبسرعة إلى الهو بواسطة عملية الكبت ، ويصبح ما يتبقى منها فى الذاكرة لاشعوريا ويعمل عمله وهو فى الهو . ونحن نعتقد أن بوسعنا أن نتتبع مصيرها من بعد ذلك بوضوح ، طالما أنها فى نطاق التجارب الشخصية . وتتعقد الأمور من جديد عندما ندرك أن من المحتمل أن يوجد فى الحياة العقلية للفرد ، ليس فقط ماجربه شخصياً ، ولكن يوجد بالإضافة إليه ماجلبه معه منذ الميلاد : نتف ترجع إلى أصول خاصة بنشأته كنوع ، أى ترجع إلى تراث قديم بائد . وحينئذ نتساءل : ما الذى يتكون منه هذا الميراث ، وما الذى يحويه ، وماهى الشواهد التى تدل عليه ؟

والجواب الذى يتبادر لأول وهلة وهو الجواب المؤكد هو أن هذا الميراث يتكون من اتجاهات غريزية معينة مثل التى لدى كل الكائنات الحية ، أى يتكون من القدرة والميل إلى اتباع اتجاه معين فى تطوره ، وأن ينفعل بطريقة خاصة أمام بعض المثيرات والمنبهات والتأثيرات . وما دامت التجربة تقول بأن الأفراد يختلفون فى هذا الصدد ، فإن ميراثنا القديم يشتمل على هذه الاختلافات ، فهى تمثل الشىء

المعترف به والذى يقال له العنصر البشرى فى الفرد . وماذام كل البشر يدخلون نفس التجارب ، على الأقل فى سنواتهم الأولى ، فإنهم ينفعلون تجاه هذه التجارب بنفس الطريقة . ولهذا قام الشك الذى يجعلنا نقول ألا يجب النظر إلى ردود الفعل هذه بكل ماتتضمنه من اختلافات بين الأفراد على أنها جزء من الميراث القديم . وهـذا الشك ينبغى رفضه ، فهذا التشابه لا يثرى معرفتنا بالميراث القديم .

وأثناء ذلك أثمر البحث التحليلى عددا من النتائج تعطينا غذاء للفكر ، فأول كل شىء هناك عالمية رمزية للكلام . وهناك الاستبدال الرمزى لموضوع بآخر — ونفس الشىء ينطبق على الأفعال — وهو مايتقنه أطفالنا ويبدو طبيعيا جداً معهم . ولا نسطيع أن نتتبع الطريقة التى تعلموا بها هذه الرمزية ، وينبغى أن نعترف بأن تعلمها مستحيل فى كثير من الحالات ، فهى معرفة طبيعية ينساها البالغ من بعد ، وهو يستخدم فى الواقع نفس الرمزية فى أحلامه ، ولكنه لا يفهم هذه الأحلام مالم يفسرها له المحلل النفسى ، وهو حتى عندئذ ينفر أن يصدق الترجمة . وعندما يستخدم أحد الجمل الشائعة فى الكلام التى تتبلور فيها هذه الرمزية فإنه يجد نفسه مضطرا إلى التصريح بأن معناها الحقيقى أفلت منه . بل إن الرمزية تتجاهل الاختلاف فى اللغات ، ومن المحتمل أن البحث فى هذه المسألة سيدلنا على أن الرمزية

موجودة فى كل اللغات وواحدة مع كل الشعوب . والرمزية بالتأكيد ميراث قديم منذ عصر بداية تطور الكلام ، ولو أننا قد نحاول أن نجد لها تفسيراً آخر . فلربما جاز لنا أن نقول أن الرمزية عبارة عن روابط فكرية تربط الأفكار ببعضها البعض ، هذه الأفكار التى تكونت خلال مرحلة التطور التاريخى للكلام ، والتى تتكرر بالضرورة فى كل مرة يمر الفرد بمثل هذا التطور . وإذن تكون الرمزية عبارة عن حالة يرث فيها الفرد اتجاها فكريا مثلما يرث فى حالة أخرى الاتجاه الغريزى . ولكن هذا البحث لن يسهم للمرة الثانية بإضافة شىء جديد للمشكلة التى نعالجها .

ومع ذلك فقد دفع البحث التحليلى بأشياء أخرى إلى دائرة الضوء ، وهى تزيد فى معناها عن أى شىء ناقشناه حتى الآن . ونحن عندما ندرس ردود الفعل التى تحدث نتيجة للصدمات المبكرة فإننا كثيراً ما نجد لدهشتنا أنها لاتقتصر بشكل تام على ماجربه الفرد ، ولكنها تنحرف عن تجربته بطريقة تتعقد أكثر مع كونها ردود فعل لأحداث وراثية ولا يمكن تفسيرها بشكل عام إلا عن طريق مثل هذا التأثير . ويحفل سلوك الطفل العصابى أزاء أبويه عندما يكون تحت تأثير عقدة أوديب وعقدة الخصاء بردود الفعل هذه ، وهو مايبدو غير معقول فى الفرد ولا يمكن فهمه إلا باعتبار ردود

بالفعل هذه مسائل خاصة بالنشأة النوعية للإنسان ، بالنسبة لتجارب الأجيال الأولى . وقد يستحق الأمر جداً أن أجمع وأنشر المادة التى أسست ملاحظاتى عليها . والواقع أنها تبدو لى مقنعة جدا حتى لأغامر أكثر وأؤكد من جديد أن الميراث البائد للبشرية لا يتضمن فقط الميول والاتجاهات ، ولكنه يتضمن كذلك محتويات افكارية وآثار محفورة فى الذاكرة لتجارب أجيال سابقة . وبهذه الطريقة يزيد مدى ومعنى الميراث البائد للبشرية زيادة ملحوظة .

ولكنى بمراجعة ما وصلت إليه من أفكار أجد أنى ينبغى أن أعترف أنى قد ناقشت المسألة كما لو كان لا مجال هناك لوجود ميراث من الذكريات — آثار لما جربه آباؤنا وصلتنا عن طريق لايمت بصلة لطريق الاتصال المباشر ولتأثير التعليم بواسطة المثل . وعندما أتحدث عن تراث قديم مايزال يعيش فى شعب من الشعوب ، وعن تشكيل الشخصية القومية ، فإنما أقصد هذا الضرب من التراث لموروث ، وليس التراث الذى ينتقل إلينا شفوياً . هذا النوع من التراث هو الذى أقصده . أو أنى على الأقل لم أميز بين الاثنين ، ولم أكن قد فهمت تماماً أهمية الخطوة الجريئة التى خطوتها بإهمالى لهذا الاختلاف . ويشتد فعلا تعقد هـذا الوضع للأمور بالموقف الحالى لعلم البيولوجيا الذى يرفض فكرة انتقال الصفات المكتسبة

إلى التخلف . وإنى لأعترف بكل تواضع أنى رغم ذلك لا أتصور استمرار التطور البيولوجى دون أن أدخل هذا العنصر فى الحسبان . .

والواقع أن الحالتين ليستا متشابهتين تماماً ، فالمسألة التى يصعب فهمها فى الحالة الأولى هى مسألة الصفات المكتسبة ، وهى فى الحالة الثانية الآثار المتخلفة فى الذاكرة للتعبيرات الخارجية ، وهى شىء يكاد يكون مادياً ملموساً . وربما لم يكن فى استطاعتنا مع ذلك أن نتخيل أساساً إحداهما بدون الأخرى ، فإذا كنا نقبل الوجود المستمر لمثل هذه الآثار المتخلفة فى ميراثنا البائد ، فإننا حينئذ نكون قد رتقنا الهوة بين علم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى ، وبوسعنا أن نعامل الشعوب كما نعامل الفرد العصابى . ومع أننا قد نعترف بأننا لا نملك حتى الآن أى دليل على وجود آثار متخلفة فى الذاكرة لميراثنا البائد أقوى من هذه البقايا فى الذاكرة التى يستدعيها التحليل النفسى ، وهى بقايا تثير احتمال أنها مستمدة من أصول ترجع إلى تنشوء النوع ، فإن هذا الدليل يبدو لى مقنعاً بدرجة تكفى لافتراض مثل هذا الذى افترضناه . فإذا كانت الأوضاع على غير ذلك فإننا سنكون عندئذ غير قادرين على التقدم خطوة أخرى فى طريقنا ، سواء فى مجال التحليل النفسى أو فى مجال علم النفس الجماعى . وإذن فوجهة نظرنا شىء يتسم بالجرأة ، ولكنه شىء لا سبيل إلى تجنبه .

ونحن فى افتراضنا هذا الذي افترضناه نفعل شيئاً آخر وهو تقليل اتساع هوة الكبرياء التى قامت فى الأزمان السابقة بين الإنسان والحيوان . فاذا كان مايسمى بغرائز الحيوانات — التى تتيح لها منذ البدايات الأولى أن تسلك فى ظروفها المعيشية الجديدة كما لو كانت غرائز قديمة قد ثبتت منذ أمد طويل — إذا كانت هذه الحياة الغريزية للحيوانات تسهم إطلاقاً بأى تفسير ، فلا يمكن أن يكون هذا التفسير سوى : أنها تحمل فى وجودها الجديد تجربة النوع الذى تنتمى إليه ، أى أنها استبقت فى عقولها ذكريات لما عاناه أسلافها . ولا يمكن أن تكون الأمور فى الحيوان الإنسانى مختلفة فى جوهرها عن ذلك ، فميراثه القديم ، مع أنه مختلف فى المدى والصفات ، يشبه غرائز الحيوانات .

وبعد هذه الاعتبارات لا أحس بأى تأنيب عندما أقول أن البشر عرفوا دائماً — بهذه الطريقة الخاصة — أنه كان لهم فى يوم من الأيام أب أول وأنهم قتلوه .

وينبغى هنا أن نجيب على سؤالين آخرين ، الأول تحت أية ظروف تدخل مثل هذه الذاكرة إلى الميراث القديم ، والثانى فى أية ظروف يمكن أن تنشط — بمعنى أن تنفذ من حالتها اللاشعورية فى الهو إلى الشعور ، ولو فى شكل مغاير ومشوه ؟ والجواب على السؤال الأول سهل تكوينه : إنها تحدث عندما تكون التجربة

مهمة بقدر كاف ، أو عندما تتكرر بكثرة كافية ، أو فى الحالتين معاً . ومع قتل الأب تتحقق الحالتان . وإنى لأشير من ناحية السؤال الثانى : أنه قد يوجد عدد من المؤثرات التى لا حاجة أبداً إلى معرفتها ؛ والمسلك الذاتى محتمل كذلك تشبها بما يحدث فى بعض الأمراض العصابية . ومع ذلك فاستيقاظ أثر الذاكرة من خلال تكرار حقيقى حديث للحادثة له بالتأكيد أهمية حاسمة . ولقد كان قتل موسى تكراراً له أهميته ، وفيما بعد قتل المسيح قتلا يفترض فيه أنه قانونى[1] ، حتى أن هاتين الحادثتين تتحركان إلى المقدمة كعوامل علية ويبدو أن تكوين التوحيد ما كان من الممكن أن يكون دون هذه الأحداث .

●

(١) بتاريخ ٩ يونيو نظرت أمام المحاكم الاسرائيلية قضية حاول فيها أحد المحامين اليهود إعادة محاكمة المسيح وقال إن الذى حاكمه من قبل كان السنهدرين وهى محكمة يهودية ، ولكن القاضى ذكر أن قضاة المسيح كانوا من الرومان ، وأصر المحامى على أن السنهدرين هى التى حاكمته ، وهى أقدم محكمة يهودية ، ولا يمكن أن يكون أعضاؤها إلا من اليهود . وفرويد ليس أكثر من يهودى يعتقد بأن قتل المسيح كان بناء على محاكمة عادلة ، وإيمانه هنا ليس أكثر من إيمان بالأفكار الشائعة بين اليهود ، أفكار عامية اعتقد بها دون تمحيص ومناقشة .. فرويد هنا أفكاره عامية خالصة . (الحفنى) .

القسم الثانى

١ — موجز

لا يمكن دفع الجزء التالى من هذا البحث إلى العالم دون شروح مطولة واعتذارات ، لأنه ليس إلا تكراراً أميناً وحرفيا فى الكثير منه للجزء الأول فيما عدا أن بعض الفحوص النقدية قد كشفت ، وهناك إضافات تشير إلى مشكلة كيف ولماذا تطورت شخصية الشعب اليهودى بالشكل الذى تطورت به . وأعرف أن هذه الطريقة فى تقديم موضوعى ليست بذات أثر كما أنها ليست فنية ، ولا أوافق أنا نفسى عليها من كل قلبى ، فلماذا لم اتنكبها ؟ والجواب على هذا السؤال يسهل على أن أعثر عليه ، ولكنه صعب بالأحرى أن أعلنه ، وأنا لم أستطع أن أمحو آثار الطريقة غير العادية التى حدث أن كتب بها هذا الكتاب .

والحقيقة أنه قد أعيدت كتابته مرتين ، وكانت المرة الأولى منذ سنوات قليلة فى فيينا ولم أكن هناك أعتقد فى إمكان نشره ، وقررت أن أنحيه ، ولكنه ظل يطاردنى كشبح لا يهمد ، واتخذت

لنفسي طريقاً وسطا بأن نشرت جزءين من الكتاب ، كل جزء على حدة ، في المجلة الدورية « إيماجو » ، وكان الجزءان هما نقطتي البداية في التحليل النفسي لكل الكتاب : « موسى مصرى » ، والبحث التاريخي المبنى عليه « إذا كان موسى مصريا » . أما الباقى والذى ربما يكون أذى ، وكان خطراً — وهو تطبيق نظريتى على أصل نشأة التوحيد وتفسيرى لظاهرة الدين — فاحتفظت به إلى الأبد كما ارتأيت . ثم جاء الغزو الألمانى غير المتوقع فى مارس سنة ١٩٣٨ ، واضطرنى إلى مغادرة بيتى ، ولكنه كذلك حررنى من الخوف خشية أن يتسبب نشرى لكتاب فى تحريم التحليل النفسى فى بلد مايزال يسمح بممارسته . ولم أكد أصل إلى انجلترا حتى وجدت إغراء إطلاع العالم على معلوماتى التى حبستها عنه شيئاً لايقاوم ، وهكذا بدأت فى إعادة كتابة الجزء الثالث من بحثى ، ليتبع الجزءين اللذين سبق نشرهما . وقد تطلب ذلك بالطبع أن أعيد تجميع المادة ، حتى ولو جزء منها ، ولم أنجح مع ذلك فى تضمين المادة كلها فى هذه المحاولة الثانية الجديدة لإعادة كتابته . ومن ناحية أخرى لم أستطع أن أستقر على رأى من جهة استبعاد الجزءين اللذين سبق أن أسهمت بهما استبعاداً تاماً ، وهكذا كان الطريق الوسط الذى آليت فيه على نفسى أن أضيف بدون تغيير النسخة الأولى من البحث كاملة

إلى النسخة الثانية ، وهى طريقة يعيبها التكرار الواسع .

وقد أجد عن حق راحة فى أن أعتقد أن المادة التى عالجتها كانت جديدة كل الجدة ولها دلالاتها — بصرف النظر عما إذا كان تقديمى لها قد تم بطريقة صحيحة أو مغلوطة — فإذا كان الناس سيضطرون إلى قراءتها مرتين ، مرة فى الجزء الأول الأصلى ، ومرة فى الجزء الثانى المكرر ، فإن ذلك لن يكون إلا سوء حظ بسيط ، فهناك أشياء ينبغى أن تقال أكثر من مرة ، ولا يمكن تكرارها بالكثرة الواجبة . ومع ذلك فالأمر متروك للإرادة الحرة للقارىء ، ما إذا كان يحب أن يتوقف مع الموضوع أو يعود إليه . ولا ينبغى أن نستخلص نتيجة نهائية ونبرزها بالحيلة الماكرة التى تقضى بعرض نفس الموضوع مرتين على القارىء فى كتاب واحد ، ولو فعلنا ذلك لدللنا على أنى كاتب غير قدير واستحق أن ألام على ذلك ، ومع ذلك فقوة الكاتب الإبداعية لاتطاوع دائماً للأسف نيته الطيبة ، والعمل ينمو كما يريد ، وأحيانا يواجه مؤلفه كعمل مستقل وحتى كخلق غريب عليه .

* * *

٢ — شعب إسرائيل

إذا كان واضحاً فى عقولنا كل الوضوح أن طريقا كالطريق الحالى — وهو القائم على أخذ ما يبدو مفيداً ونبذ ما يبدو غير مناسب من المادة المأثورة التقليدية ، ثم وضع النتف القائمة بذاتها إلى جوار بعضها البعض طبقا لما فيها من احتمال نفسى — لا يقدم أى شىء يمكن أن يضمن العثور على الحقيقة ، فإن الذى يسأل عن السبب الذى بذلت من أجله مثل هـذه المحاولة له الحق كل الحق . وللإجابة على هذا يجب علىّ أن أسرد النتيجة . فإذا كنا نقلل بشكل ضخم المطالب الحادة التى تشترط عادة لعمل بحث تاريخى ونفسى ، فإنه قد يكون من الممكن أن نوضح المشاكل التى كانت دائماً تبدو جديرة بالاهتمام ، والتى تفرض نفسها مرة أخرى على ملاحظتنا نظراً للأحداث الحالية . ونحن نعرف أنه من بين كل الشعوب التى عاشت فى الزمن القديم فى حوض البحر الأبيض ربما كان الشعب اليهودى هو الشعب الوحيد الذى مايزال يوجد اسما ، وربما كذلك طبيعة ؟ فلقد تحدى سوء الطالع وسوء المعاملة بقوة لا مثيل لها فى المقاومة ، واكتسب صفات خاصة ، وكسب بشكل عارض الكراهية القلبية لكل الشعوب ، وإن الإنسان ليحب أن يفهم فهماً أكثر وعياً من أين جاءت هـذه المقاومة التى يتحلى بها اليهودى ، وكيف يرتبط تكوينه الخلقى بمصيره .

وقد نبدأ من صفة خلقية لليهود تحكم علاقتهم بالشعوب الأخرى، ولاشك أن اليهود يحتفظون بفكرة عالية من أنفسهم، ويعتقدون أنهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى، وأكثر تقدماً من الآخرين الذين تفصلهم عنهم عادات كثيرة لهم[1]. وبالإضافة إلى ذلك فإن ثقة خاصة بالحياة تملأهم، كالتى يضفيها الامتلاك الغامض لموهبة، وهى نوع من التفاؤل، يطلق عليه المتدينون الثقة فى الله[2].

ونحن نعرف سبب مدافعتهم ذاك، وماهو كنزهم الثمين، فهم يصدقون فى الواقع، مايقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار، ويؤمنون بأن الله قد قربهم منه بصفة خاصة، وهذا هو ما يملأهم فخراً وثقة، وتقول كتب التاريخ الموثوق بها أن اليهود كانوا يتصرفون فى أيام اليونان والرومان مثلما يتصرفون الآن، فالطابع اليهودى لذلك كان حتى فى ذلك الوقت مثلما هو الآن، ولقد قابل الإغريق الذين عاش اليهود بينهم ومعهم الخصائص اليهودية بنفس الطريقة التى يقابلها بها « مضيفوهم » اليوم، ولقد يظن المرء أنهم

---

(١) وينبغى قراءة الإهانة التى كانوا يتقدمون بها كثيراً فى العصور القديمة بأنهم مجذومون (مانيثو) باعتبارها إسقاطا معناه . «إنهم يبتعدون عنا كما لو كنا مجذومين» . (فرويد) .

(٢) لأكثر من مرة نلاحظ المباهاة العنصرية التى تملأ فرويد مع أنه من المفروض أنه محلل نفسى وكان أحرى به أن يكون موضوعيا . (الحفنى) .

تصرفوا كما لو كانوا هم أيضاً يعتقدون فى الأفضلية التى يدعيها الإسرائيليون لأنفسهم ، فعندما يقال أن أحد الناس هو الابن المفضل للأب المرهوب الجانب فلا حاجة إلى إبداء الدهشة من غيرة إخوته الآخرين وأخواته . ويتضح بشكل رائع مايمكن أن تؤدى إليه هذه الغيرة فى الأسطورة اليهودية عن يوسف وإخوته . ويبدو أن المجرى التالى الذى اتخذه تاريخ العالم يبرر هذا الغرور اليهودى ، لأن الله عندما وافق فيما بعد على أن يرسل مسيحا ومخلصاً إلى البشرية ، اختاره مرة أخرى من بين الشعب اليهودى ، وكان يحق للشعوب الأخرى حينئذ أن تقول : إنهم على حق فعلا ؛ إنهم شعب الله المختار[1] . وحدث بدلا من ذلك أن الخلاص عن طريق يسوع المسيح لم يجلب على اليهود إلا كراهية أقوى ، بينما لم يستفد اليهود أنفسهم من هذا البرهان الثانى على إيثار الله لهم ، لأنهم لم يعترفوا بالمخلص .

وقد نقول بناء على قوة ملحوظاتنا السابقة أن الإنسان موسى هو الذى وسم الشعب اليهودى بهذه السمة ، وهى السمة التى صارت ذات أهمية بالغة بالنسبة لهم لكل زمن ، ولقد زاد موسى من ثقتهم

---

(١) لاحظ الطريقة الدعائية المكشوفة التى يحاول بها فرويد أن يقول مايؤمن به على لسان الاغريق . (الحفنى) .

بنفسهم بأن أكد لهم أنهم شعب مختار ، وأعلنهم شعباً مقدساً وألقى عليهم بواجب اعتزال الشعوب الأخرى[1] ، ولا يعنى ذلك أن الشعوب الأخرى من ناحيتها كانت تعوزها الثقة بالنفس ، فلقد كان كل شعب فى ذلك الوقت كما هو الآن يظن نفسه أسمى من كل الشعوب الأخرى . وعلى كل فلقد رست الثقة بالنفس لدى اليهود عن طريق موسى فى الدين ، وصارت جزءاً من اعتقادهم الدينى . وبالعلاقة اللصيقة لصوقا خاصاً بإلههم اكتسبوا جزءاً من عظمته . وحيث أننا نعرف أنه خلف الإله الذى اختار اليهود وخلصهم من مصر كان يقف الإنسان موسى ، الذى حقق هذا العمل ، بأمر الله كما يبدو ، فإنه ليمكننى القول : إنه كان إنساناً واحدا ، هو الإنسان موسى ، هو الذى خلق اليهود ، وله يدين هذا الشعب بصلابته على تحمل الحياة ، وله كذلك يدين بكثير من العدل الذى التقى به والذى ما يزال يلتقى به .

* * *

(١) لم يقل موسى عليه السلام ذلك ، ولكن هذا كان يفعل أحبار إسرائيل ، والقرآن يصف ذلك فى بلاغة فيقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ، (الآية ٧٨ سورة البقرة) .. (الحفنى) .

٣ — الإنسان العظيم

كيف أمكن لإنسان واحد بمفرده أن ينمى مثل هذا التأثير غير العادى ، لدرجة أنه يستطيع أن يخلق من أفراد وأسر مختلفة شعباً «واحداً» وأن يستطيع أن يطبع هذا الشعب بشخصية محددة ، وأن يحدد مصيره لألف سنة قادمة ؟ أليس تصوراً كهذا نكوصاً إلى طريقة التفكير التى أنتجت أساطير الخلق وعبادة البطل ، وإلى الأزمنة التى استنفدت فيها الكتابة التاريخية نفسها فى سرد تواريخ الحياة لأفراد معينين — ملوك أو فاتحين ؟ ولكن الأزمنة الحديثة تميل أكثر إلى إرجاع أحداث التاريخ الإنسانى إلى عوامل أكثر إضماراً وعمومية ولا شخصية الأثر القوى الذى يفرض نفسه للظروف الاقتصادية والتغيرات فى الموارد الغذائية ، والتقدم فى استخدام المواد والأدوات ، والهجرات التى تسببها الزيادة فى السكان والتغير فى المناخ. وفى تلك العوامل لا يلعب الأفراد أى دور آخر بخلاف دور العارضين أو الممثلين للميول الجماعية التى لا بد أن تصل إلى التعبير ، والتى وجدت ذلك التعبير كما هو بالصدفة فى أمثال هؤلاء الأشخاص .

هذه وجهات نظر صحيحة جداً ، ولكنها تذكرنا بالبون الحافل بين طبيعة جهازنا الفكرى وبين تنظيم العالم الذى نحاول أن ندركه . وتشبع حاجتنا الملحة للعلة والمعلول عندما يكون لكل عملية علة

واحدة ظاهرة . وفى الواقع خارجياً تسير الأمور هكذا بصعوبة ، فكل حادثة تبدو مقدرة بشكل مغالى فيه ويتضح أنها المعلول لعدد من العلل المتقاربة . ويتولى البحث دور سلسلة من سلاسل الحوادث ضد سلسلة أخرى عندما تفزعه التعقيدات التى لا عد لها للحوادث ، ويشترط تناقضات لا وجود لها ، وتتلخص فقط من خلال تمزيق علاقات أكثر شمولا[1] .

فإذا كان التحقق لذلك من حالة واحدة خاصة يظهر الأثر البارز لشخصية إنسانية واحدة ، فإن ضميرنا لا يحتاج إلى القاء اللوم علينا لأننا من خلال قبول هذه الخاتمة قد وجهنا ضربة إلى المذهب الذى يقول بأهمية تلك العوامل اللاشخصية العامة . ومن وجهة نظر الواقع لاشك أنه يوجد مكان للاثنين ، فى أصل قيام التوحيد لا يسعنا ، وهذا حق ، أن نشير إلى أى عامل خارجى آخر إلا تلك العوامل التى سبق ذكرها : وهى أن هذا التطور له علاقة بإقامة علاقات أوثق بين الأمم المختلفة ووجود أمبراطورية كبرى .

---

(١) إنى لأحاذر مع ذلك من سوء فهم محتمل ، فانا لا أعنى أن أقول أن العالم من التعقيد لدرجة أن كل حكم ينبغى أن يصيب الحقيقة فى مكان ما . أبداً ، فإن تفكيرنا قد حفظ حرية اختراع علاقات وروابط لامثيل لها فى الواقع ، ومن الواضح أنه يعلى من شأن هذه الموهبة فيه ، أى أنه يستخدمها على نطاق واسع — داخل وكذلك خارج العالم . (فرويد) .

ولذلك سنستبقى مكانا « للانسان العظيم » فى السلسلة ، أو بالأحرى فى شبكة العلل الموحدة . وقد لا يكون بلا جدوى إطلاقا مع ذلك أن نسأل عن الظرف الذى نضفى فيه هذا اللقب الشرفى ، وقد ندهش أن نجد أن الإجابة على هـذا السؤال ليست سهلة . ومن الواضح أن أول تعريف بعظمة الإنسان الذى وهب بشـكل خاص صفات نقدرها بشـكل عال هو تعريف غير مناسب من كل النواحى ، فالجمال مثلا والقوة العقلية ، رغم أنهما مطلوبان فإنهما لا يمكن أن يزعما لنفسيهما حقاً فى « العظمة » . وربما كان ينبغى أن توجد صفات عقلية تظهر تفوقاً نفسيا وفـكريا . وتـكتنفنا الريب عند الناحية الأخيرة : فالإنسان الذى له معرفة بارزة فى ميدان واحد معين لا يسمى إنساناً عظيما بدون أى سبب آخر . ولا ينبغى لنا بالتأكيد أن نطبق اصطلاح العظمة على إنسان يجيد لعبة الشطرنج أو على لاعب يجيد العزف على آلة موسـيقية . وليس بالضرورة كذلك أن تنطبق على فنان موهوب أو رجل علم .

وفى حالة كهذه ينبغى أن نرضى بأن نقول إنه كاتب أو مصور أو رياضى أو عالم طبيعة عظيم ، وأنه رائد فى هذا المجال أو ذاك ، ولـكننا ينبغى أن نتريث قبل أن نعلنه إنساناً عظيما . وعندما نعلن

مثلا أن جوته وليوناردو دافينشى[1] وبيتهوفن[2] رجال عظام فإن شيئاً آخر يجب أن يحركنا لنقول عنهم ذلك ، شيئا أبعد من الإعجاب بالأعمال الرائعة التى أبدعوها . ولو لم يمكن من أجل أمثال كهذه لحق لنا أن نتصور فكرة أن لقب « الإنسان العظيم » محفوظ ، بحكم الأفضلية ، لرجال العمل — أى للفاتحين والجنرالات والحكام — وأن المقصود به الاعتراف بعظمة ما حققوه وبقوة الأثر الذى انبعث منهم . ومع ذلك فإن هذا أيضا غير مرض ، ويتعارض تماما بإدانتنا لكثير من الناس التافهين الذى لا يسعنا أن ننكر أنهم تركوا أثراً عظيما على أزمانهم وما تلاها ، ولا يمكن أيضا أن يختار النجاح كسمة بارزة للعظمة ، إذا فكرنا فى العدد الشاسع من الرجال العظام الذين بدلا من أن يكونوا ناجحين ، ماتوا بعد أن لازمهم سوء الطالع .

---

(١) ليوناردو دافينشى الفنان الإيطالى المشهور من مدرسة فلورنسا الفنية ، ولد فى فينشى بالقرب من فلورنسا ، وعاش بين سنتى ١٤٥٢ ، ١٥٢٩ م واشتهر بلوحاته وأشهرها الجوكنده وهو المنافس الوحيد لميكل أنجلو ، ويقترب فى فنه من فن المصور رافاييل ، وكان بالإضافة إلى الرسم مثالا وكاتبا ومخترعا وموسيقاراً وبرز فى كل مجالات العلم وهو ماتشهد به مذكراته . (الحفنى) .

(٢) بيتهوفن : لودفيج فان المؤلف الموسيقى الأشهر (١٧٧ — ١٨٢٧) ، ولد فى بون بألمانيا وألف ٣٢ سوناتا للبيانو و١٧ رباعية وتسع سيمفونيات وأوبرا فيديليو ، وأصيب بالصمم وكانت حياته صعبة ولكن موهبته لم يكن لها مثيل أبداً . (الحفنى) .

ولذلك وجب أن نميل من باب التجربة إلى استنتاج أن الأمر لا يستحق كثيراً أن نبحث عن تعريف واضح لمفهوم « الإنسان العظيم » . ويبدو أن الاصطلاح مستهلك وغير محدد المعالم نوعاً ما ، وأن العظمة صفة تضفى على صاحبها دون إعمال فكر ، وأنها تعطى للتطور فوق العادى لصفات إنسانية معينة ، ونحن إذ ندرك ذلك نظل لصيقين بالمعنى الحرفى الأصلى لكلمة « عظمة » ، وقد نتذكر أنه ليست هى طبيعة الرجل العظيم التى تثير اهتمامنا بقدر السؤال عن الصفات التى بفضلها يؤثر على معاصريه . واقترح لذلك أن أقصر هذا البحث طالما أنه يهدد بدفعنا بعيداً عن هدفنا .

ومن ثم فلنتفق على أن الرجل العظيم يؤثر على معاصريه عن طريقين : من خلال شخصية ، ومن خلال الفكرة التى يوقف نفسه عليها . وهذه الفكرة قد تبرز مجموعة قديمة من الرغبات فى الجماهير ، أو تشير إلى غاية جديدة لرغباتهم ، أو أنها مرة أخرى تقوى الجماهير بوسائل أخرى . وأحيانا — وهذا بالتأكيد هو المفهوم الأكثر بدائية — ما تفرض الشخصية وحدها نفوذها ، وتلعب الفكرة دوراً ثانويا بشكل حاسم . ولا نشك إطلاقا فى السبب الذى من أجله يرقى الرجل العظيم إلى المكانة الهامة التى يتبوأها ، ونعرف أن الغالبية العظمى من الناس بحاجة قوية إلى السلطة التى

بوسعهم أن يعجبوا بها ، وأن يخضعوا لها والتى تسيطر عليهم ، وأحيانا ما تسىء معاملتهم . ولقد تعلمنا من علم نفس الفرد من أين تأتى حاجة الجماهير هذه . إنها الحنين إلى الأب الذى يعيش فى كل منا فى أيام طفولته ، لنفس الأب الذى يفخر ، بكل الأسطورة ، بأنه قد غلبه . والآن يبدو علينا أن كل الصفات التى تزود بها الرجل العظيم هى صفات الأب ، وأنه فى هذا التشابه يكمن الجوهر ، الذى أفلت منا حتى الآن ، والذى يتحلى به الرجل العظيم . وإن الحسم فى الفكر والقوة فى الإرادة والقسرية فى أعماله ، كلها صفات تتحلى بها صورة الأب ، ثم فوق كل الأشياء الأخرى ، اعتماد الرجل العظيم على نفسه واستقلاله ، واعتقاده الإلهى بأنه يفعل الشىء الصواب ، وهى صفات قد تضفى على أعماله صفة القسوة . ولا بد أن يعجب به الناس ، وقد يثقون به ، ولكنهم يخشونه . وكان يجب أن نتنبه إلى معنى الكلمة نفسها ، فمن فى حياة الطفل ينبغى أن يكون إنساناً عظيما سوى الأب ؟

ولا شك أن صورة الأب المثالية التى تمثلت فى شخص موسى لتقول للعمال اليهود الفقراء أنهم كانوا أبناءه الأعزاء : لا بد أنها كانت صورة هائلة ، وأن صورة الإله المفرد الأبدى القدير ما كانت أقل تسلطاً عليهم . ولقد وعدهم ، الذى فكر أنهم يستحقون أن يعقد

معهم عهداً ، بأن يُعنى بهم ، إذا فقط ظلوا مخلصين لعبادته . ومن المحتمل أنهم لم يجدوا الأمر سهلا ، أن يفصلوا صورة الإنسان موسى عن صورة الإله ، وكانت غريزتهم على صواب فى هذا ، طالما أن موسى من الجائز جداً أنه قد أدمج فى شخصية إلهه بعضاً من سماته هو ، مثل غضبه وقسوته . وعندما قتلوا هذا الإنسان العظيم لم يفعلوا إلا أنهم كرروا فعلا شريراً كان فى الأزمان البدائية قانونا موجهاً ضد الملك الإلهى ، وهو قانون مستمد كما نعلم من طراز من القوانين أقدم[1] .

وعندما ، من ناحية أخرى ، تنمو صورة الإنسان العظيم وتصبح صورة إلهية ، فإن الوقت يحين لنذكر أن الأب كذلك كان طفلا فى يوم من الأيام . وكما قررت فإن الفكرة الدينية العظيمة التى وهب لها نفسه لم تكن فكرته ، فلقد نقلها عن مليكه أخناتون ، وربما كان الأخير — الذى تقوم عظمته بلا شك كمؤسس لديانة — قد تبع إشارات وصلته عن أمه ، أو عن طرق أخرى من الشرق الأدنى أو الأقصى .

وليس باستطاعتنا تعقب الخيوط أكثر من ذلك ، فإذا كانت الحجة الحالية صحيحة حتى الآن فإن فكرة التوحيد لابد قد ارتدت

(١) Frazer P. 192 (فرويد) .

إلى البلد الذى خرجت منـه أصلا . ويبدو من غير المجدى محاولة التيقن من الجدارة التى تلصق بشخص ما لفكرة جديدة . ومن الواضح أن كثيرين قد شاركوا فى تطويرها وأضافوا إليهـا . ومن الخطأ من ناحية أخرى قطع سلسلة العلية عند موسى ، وإهمال ما حققه خلفاؤه من أبناء اليهود . إن التوحيد لم يضرب بجدوره فى مصر . وكان من الممكن أن يقع نفس الفشل فى إسرائيل بعد أن نبذ الشعب الديانة المتعبة والتى تدعى لنفسها حقوقا شرعية والتى فرضت عليه . ومن جماهير الشعب اليهودى قام المرة تلو المرة رجال أضفوا لونا جديداً على التراث الذابل ، وجـددوا تحذيرات وأوامر موسى ، ولم يستريحوا حتى استعيدت مرة أخرى القضية المفقودة . وفى المحاولة الدائبة التى استمرت عبر القرون ، وأخيراً وليس آخرا ، من خلال حركتين إصلاحيتين عظيمتين — واحدة قبل النفى إلى بابل ، والأخرى بعده — وقع تغيير الإله الشعبى يهوا إلى الإله الذى فرض موسى عبادته على اليهود . وإنه لدليل على استعداد نفسى خاص فى الجماهير ناسب الشعب اليهودى ، حتى أنه أظهر عددا كبيراً جداً من الأشخاص ، كانوا مستعدين أن يأخذوا على عاتقهم عبء الديانة الموسوية ، لقاء الاعتقاد بأن شعبهم كان شعباً مختارا ، وربما لقاء مكاسب أخرى من نفس المستوى .

* * *

٤ — التقدم فى الروحانية

لتحقيق نتائج نفسية أبدية لدى شعب من الشعوب من الواضح أنه لا يكفى تأكيدهم أن الله قد اختارهم خصيصاً . وهـذا التأكيد ينبغى إثباته إذا كان عليهم أن يربطوه بالإيمان وأن يستمدوا نتائجهم النهائية من ذلك الإيمان . وفى ديانة موسى كان الخروج هو بمثابة ذلك الإثبات . إن الله ، أو موسى باسمه ، لم يمل ترديد هذا الإثبات لتفضيل الله لهم . ولقد قام عيد العبور ليبقى هذا الحدث فى البال ، أو بالأحرى ليبقى عيداً قديماً قد أضفيت عليه هذه الذكرى ، ومع ذلك كانت مجرد ذكرى ، فالخروج نفسه ينتمى إلى ماض معتم . وكانت دلائل تفضيل الله لهم فى الوقت نفسه هزيلة للغاية ، وإن مصير شعب إسرائيل ليدل بالأحرى على ازدرائه لهم . وكانت الشعوب البدائية معتادة على عزل إلهتهم أو حتى إنزال العقاب بهم إذا لم يقوموا بواجبهم فى إعطائهم النصر والحظ والراحة . وكان الملوك كثيراً ما يُعاملون مثل الآلهة فى كل عصر ، وهكذا يتضح التماثل القديم بين الملك والإله — أى خروجهما من أصل مشترك . وتمارس الشعوب الحديثة كذلك عادة التخلص هكذا من ملوكهم إذا انطفأت روعة حكمهم بهزائم صاحبها فقدان أرض ومال . فلماذا ازداد مع ذلك التصاق شعب إسرائيل بإلهه كلما ازداد سوء معاملة إلهه له ؟ إن هذا سؤال ينبغى أن نتركه مفتوحاً حالياً .

وقد يثير نا أن نبحث عما إذا كانت ديانة موسى لم تعط الشعب شيئاً إلا زيادة فى الثقة بالنفس من خلال الإدراك بأنه شعب «مختار» . والعنصر الثانى يمكن العثور عليه حقيقة بسهولة ، فإن ديانة اليهود قد أعطتهم أيضاً فكرة أكثر عظمة عن إلههم ، أو بتعبير أو صف ، فكرة عن إله أكثر جلالة . وكل من اعتقد فى هذا الإله شارك فى عظمته ، أى ربما يحس هو نفسه أنه قد تسامى . وقد لا يكون هذا واضحاً تماما لغير المؤمنين ، ولكن من الجائز تشبيهه بالثقة العالية التى يحسها البريطانى فوق أرض أجنبية قد حولها التمرد إلى أرض غير آمنة ، وهى ثقة تعوز كلية أحد رعايا أية دولة قارية صغيرة ، فالبريطانى يعتمد على حكومته لترسل سفينة حربية إذا لمست شعرة من رأسه ، ويعتمد أيضاً على معرفة المتمردين معرفة تامة بأن هذا هو ماسيؤول إليه الأمر ، بينما الدولة الصغيرة لا تملك حتى سفناً حربية . ولذلك فإن الاعتزاز بعظمة الامبراطورية البريطانية يمتد أحد جذوره فى الوعى بالأمان الأكبر والحماية اللذين يتمتع بهما الرعية البريطانية . وقد يصدق نفس الشىء على فكرة الإله العظيم . والاعتزاز بعظمة الإله تسير مع الاعتزاز بوقوع « اختيار » الإله عليه — طالما أن الانسان لايمكن أن يتصور أنه يمكن أن يساعد الإله فى تصريفه لشئون العالم .

ويوجد على رأس شرائع الديانة الموسوية قانون له دلالة أكبر مما يبدو واضحاً لأول وهلة ، وهو القانون الذى يمنع عمل صورة

للإله ، وهو مايعنى فرص عبادة إله خفى . وأنا أتصور أن موسى فى هذه النقطة فاق ديانة أتون فى الصرامة ، وربما كان يعنى أن يكون رصينا ، وكان على إلهه ألا يكون له اسم أوسحنة ، وربما كان النهى تحوطا جديداً ضد إساءة الاستخدام عن طريق السحر ، وإذا كان هذا النهى مقبولا فإن من شأنه أن يفرض سيطرة عميقة ، لأنه كان يعنى ثانوية الإدراك الحسى بالمقارنة بالفكرة المطلقة . وكان انتصاراً للروحانية على الحواس ، وبتعبير أدق نبذاً للغريزة تصاحبه نتائجه النفسية الضرورية .

ولكى نجعل مايبدو لأول نظرة غير مقنع شيئاً أكثر تصديقاً ، ينبغى أن نتذكر العمليات الأخرى ذات السمات المشابهة فى تطور الثقافة الإنسانية . ولا نستطيع أن ندرك فى ظلام العصور البدائية إلا معالم معتمة لأكثر هذه العمليات تبكيراً وربما أهمها . وتجعل نتائجها المدهشة من الضرورى أن نستنتج أنها قد حدثت . ونحن نجد فى أطفالنا وفى البالغين العصابيين ، وكذلك فى الناس البدائيين ، ظاهرة عقلية أسميها « سلطان الأفكار » . ونحن نحكم عليها بأنها تقدير مبالغ فيه للسيطرة التى يمكن فى هذه الحالة أن تمارسها القدرات الفكرية على العالم الخارجى بتغييره . وكل السحر وهو سلف العلم ، يقوم أساساً على هذه المقدمات . وكل سحر للكلمات يصب هنا ، وكذلك الاعتقاد فى القوة المرتبطة بالمعرفة وبنطق اسم من الأسماء .

ونحن نتصور أن سلطان « الأفكار » كان التعبير عن الاعتزاز الذى اتخذته الإنسانية بتطوير اللغة ، الذى جلب ضمن ماجرّه مثل هذه الزيادة غير العادية فى القدرات الفكرية . وحينئذ تفتحت المملكة الجديدة للروحانية حيث صارت للمدركات وللذكريات وللاستدلالات أهميتها الحاسمة ، بعكس النشاط النفسى الأدنى الذى قصر نفسه على المدركات المباشرة لأعضاء الحس . وكانت هذه المرحلة يقينا إحدى أهم المراحل على طريق الصيرورة الإنسانية .

وتواجهنا بشكل ملموس أكثر عملية أخرى لزمن لاحق ، فلقد حدث تحت تأثير ظروف خارجية — لاحاجة بنا أن نتتبعها هنا ، وهى كذلك فى جزء منها غير معروفة بدرجة كافية — أن البناء الأموى (الخاص بالأم) للمجتمع حل محله البناء الأبوى . وجلب ذلك معه بطبيعة الحال ثورة فى الوضع القائم للقانون ، ومايزال صدى هذه الثورة مسموعا على ما أرى فى أورستية إسخيلوس[1] . وهذا التحول من الأم إلى الأب يعنى فوق مايعنى انتصاراً للروحانية على

---

(١) أوورستية إسخيلوس : ثلاثية كتبها المسرحى الاغريقى إسخيلوس ومثلت فى أثينا سنة ٤٥٨ ق . م . وتشتمل على ثلاث مسرحيات هى بالترتيب أجاممنون ، وحاملات القرابين ، والايومبيدات . وأسخيلوس شاعر بل من أكبر شعراء الدنيا القديمة ، وكان قد اشترك فى الحروب ضد الفرس ، ثم انصرف إلى الكتابة المسرحية فابتكر فى المأساة حتى أصبح بحق أبا الفن التمثيلى بقوة خياله وعمق عاطفته الدينية والإنسانية ومتانة إخراجه . (الحفنى) .

الحواس ، أى يعنى خطوة للأمام فى الثقافة ، طالما أن الأمومة تثبت الحواس وجودها ، بينما الأبوة افتراض يقوم على استدلال ومقدمة منطقية . وثبت أن هذا الإعلان فى وصف عملية الفكر ومن ثم رفعها فوق الإدراك الحسى ، كان خطوة مشحونة بالنتائج الخطيرة .

وفى وقت ما بين الحالتين اللتين ذكرتهما ، وقعت حادثة أخرى تفصح عن علاقة أوثق بالحالات التى بحثنا أمرها فى تاريخ الدين . ووجد الإنسان أنه مواجه بقبول قوى « روحية » — أى قوى من النوع الذى لا يمكن إدراكه بواسطة الحواس ، وخاصة بواسطة حاسة البصر ، ومع ذلك كان لها آثار لا تنكر بل وقوية للغاية . وإذا جاز لنا أن نركن إلى اللغة ، فإن حركة الهواء هى التى أوحت بصورة الروحانية حيث أن كلمة الروح تستمد اسمها من تنفس الريح[1] . وهكذا ولدت فكرة الروح بوصفها المبدأ الروحى الفرد ، وعثرت الملاحظة على تنفس الهواء مرة أخرى فى التنفس الإنسانى الذى يتوقف مع الموت ، وحتى اليوم نتحدث عن الميت الذى يلفظ آخر أنفاسه . والآن انفتحت مملكة الأرواح للإنسان ، وكان مستعداً لأن يضفى على كل شىء فى الطبيعة من الروح التى اكتشفها فى نفسه

(١) نسمة الريح بمعنى Animus أو Spiritus وفى العربة هى Ruech بمعنى دخان . (فرويد) .

وصار كل العالم منتعشاً ، وجاء العلم متأخراً جداً ، وكان أمامه ما يكفيه من العمل لهدم ما كانت عليه من الأمور من قبل ، ولم ينته من عمله بعد .

ومن خلال النواهى الموسوية ، ارتفع الإله إلى مستوى من الروحية أرقى ، وانفتح الباب على مزيد من التغييرات فى فكرة الإله ، وهى الفكرة التى سأتحدث عنها فيما بعد . وستشغلنا حالياً آثار لها أخرى . وكل مثل هذا التقدم فى الروحية ينتج عن زيادة فى الثقة بالنفس ، وفى جعل الناس فخورين حتى أنهم يحسون الاستعلاء على هؤلاء الذين ظلوا فى أسر الحواس . ونعرف أن موسى قد أعطى اليهود الإحساس المستعلى لكونهم شعب الله المختار . وبتجريد الله من الماديات أضفى شيئا جديداً قيّما إلى كنز الشعب السرى . واستبقى اليهود ميلهم نحو الاهتمامات الروحية . وعلمتهم المصيبة السياسية التى حلت بالأمة أن يستسيغوا الشيء الوحيد الذى استبقوه مما كانوا يملكون ، وهو سجلاتهم المكتوبة ، وأن يقدروها حق قدرها . وبعد هدم تيتوس[1] للمعبد فى القدس مباشرة ، طلب الحاخام يوحنان بن ساكّاى الإذن بفتح أول مدرسة لدراسة

---

(١) تيتوس : إمبراطور روما من ٧٩ إلى ٨١ ، وهو ابن الأمبراطور فسبازيان ، وأثناء حكم أبيه استولى على أورشليم سنة ٧٠ وضمها للامبراطورية . (الحفنى) .

التوراة فى يابنيه Jabnsh . ومنذ ذلك الحين كان التوراة ودراسته هما اللذان أبقيا الشعب المبعثر مع بعضه البعض .

والكثير جداً معروف ومقبول بشكل عام ، ولم آمل إلا أن أضيف أن كل هذا التطور الذى يدل على اليهود بشكل خاص ، أدخله نهى موسى عن عبادة الإله فى شكله المرئى .

وكان للأفضلية التى أولاها اليهود خلال ألفى عام للسعى الروحى آثارها بالطبع ، وساعدت على بناء سد ضد القسوة والميل إلى العنف اللذين يوجدان عادة حيث يصبح التطور الرياضى المثل الأعلى للشعب .

ولقد حرم على اليهود التطور المنسق للنشاط الروحى والجسمى كما تحقق لدى الاغريق . وكانوا قد اتخذوا قرارهم على الأقل ضد هذا الصراع تأييداً لما كان أكثر أهمية ثقافيا .

* * *

٥ — النبذ عكس الإشباع

لا يبدو من الواضح أبدا السبب الذى من أجله تزيد الروحية وثانوية الحواس من ثقة الفرد وكذلك الأمة . ويبدو أن هذا يفترض مسبقا مستوى محددا للقيم ، وشخصا آخر أو شريعة

تستخدمه . ونعود لشرح ذلك إلى حالة مشابهة فى علم نفس الفرد تعلمنا أن نفهمه .

فعندما يلح «الهو» على إنسان لتحقيق مطلب غريزى له طبيعة جنسية أو عدوانية ، فإن أبسط استجابة وأكثرها طبيعية للأنا الذى يحكم جهازى التفكير والأعصاب ، هو إشباع هذا المطلب بإتيان فعل من الأفعال ، وهذا الفعل الغريزى يحس به الأنا كمتعة ، مثلما أن عدم إشباع هذه الغريزة يصبح بلا شك مصدرا للإزعاج . والآن قد يحدث أن الأنا تحيد عن إشباع الغريزة بسبب عوائق خارجية — أى عندما يتبين « الأنا » أن إتيان هذا الفعل يجلب فى ركابه خطرا مؤكدا على « الأنا » . ومثل هذا الانصراف عن الاشباع ، وهو نبذ الغرائز بسبب العوائق الخارجية كما نقول ، إطاعة لمبدأ الواقع ، لا يمكن أن يكون مصدرا لمتعة . ويسبب النبذ الغريزى توترا مؤلما مستمرا إذا لم ننجح فى تقليل قوة الدافع الغريزى من خلال عملية تحول للطاقة . وقد يفرض علينا كذلك هذا النبذ الغريزى بواسطة دوافع أخرى نسميها عن حق دوافع داخلية . وخلال عملية تطور الفرد يتحول جزء من القوى الحاجزة فى العالم الخارجى إلى داخل الفرد وتصبح قوى حاجزة داخل الفرد ، ويتكون معيار فى الأنا يعارض القدرات الأخرى بواسطة الملاحظة

والنقد والنهى . ونحن نسمى هذا المعيار الجديد « الأنا الأعلى » .
ومن الآن فصاعداً فإن الأنا قبل أن يتولى إشباع الغرائز ، عليه أن يعنى ليس فقط بأخطار العالم الخارجى ، بل وباعتراضات الأنا الأعلى ، وله فرصة لذلك أكبر للامتناع عن إشباع الغريزة . وبينما نجد النبذ الغريزى لأسباب خارجية مؤلم فقط ، فإن النبذ لأسباب داخلية ، وإطاعة لمطالب الأنا الأعلى ، له أثر اقتصادى آخر ، فهو بالإضافة إلى الألم الذى لاسبيل إلى تجنبه يحدث تسامياً فى اللذة التى يعطيها للأنا — وهو ما يسمى بالإشباع التعويضى . إن الأنا يحس أنه تسامى ، وهو يفخر بعملية النبذ كأنها انتصار له قيمته . ونظن أن بوسعنا أن نتتبع آلية هذا التسامى فى المتعة ، فالأنا الأعلى هو خليفة وممثل الآباء (والمعلمين) الذين يشرفون على تصرفات الفرد فى سنوات حياته الأولى .

إنه يستمر فى وظائفهم بلا تغيير تقريباً ، وهو يبقى الأنا فى حالة تبعية دائمة ويمارس ضغطا منتظما . ويعنى الأنا ، كما كان فى الطفولة ، بالإحتفاظ بحب سيده ، وهو يحس برضاه كما لو كان غوثا وإشباعا ، وبتأنيبه كوخز فى الضمير . وعندما يكون الأنا قد ضحى من أجل الأنا الأعلى بنبذ إشباع غريزى ، فإنه يتوقع أن يكافأ على عمله بأن يُحب أكثر . والوعى باستحقاق هذا الحب يُحس كفخر .

وفى وقت أن كانت السلطة لم تدمج بعد وتصبح أنا أعلى ، كانت العلاقة بين الحب المهدد بالفقد وبين المطلب الغريزى هى نفسها . وينتج إحساس بالأمن والإشباع إذا حقق الفرد لنفسه نبذاً غريزيا من باب الحب لأبويه . وهذا الإحساس الطيب لا يستطيع أن يحرز صفة الافتخار النرجسية الخاصة إلا بعد أن تصير السلطة ذاتها جزءاً من الأنا .

كيف يساعدنا هذا التفسير لتحصيل الإشباع عن طريق النبذ الغريزى فى تفهم العملية التى نرغب فى دراستها — وهى زيادة الثقة بالنفس التى ترافق التقدم فى الروحية ؟ ومن الواضح أنه يقدم القليل جداً من المساعدة ، لأن الظروف هنا مختلفة جداً . ولا يوجد نبذ غريزى ولا يوجد شخص ثانى أو مقياس أعلى من أجل صالحه تؤدى التضحية . والجملة الثانية ستبدو تقريباً مشكوكا فيها . وقد يجوز أن نقول أن الإنسان العظيم هو السلطة التى من أجلها يبذل الجهد ، وحيث أن الإنسان العظيم يحقق ذلك لأنه بديل عن الأب ، فلا حاجة بنا إلى الاندهاش إذا قسم عليه دور الأنا الأعلى فى علم النفس الجماهيرى . ويصدق هذا لذلك ، بالنسبة للإنسان موسى فى علاقته بالشعب اليهودى . وفى نقاط أخرى ، مع ذلك ، لا يوجد تشابه صحيح فيما يبدو . ويتكون الترقى فى الروحية من الحكم ضد الإدراك الحسى

لصالح مابسمى بالعمليات الفكرية الأعلى — أى لصالح الذكريات والتأمل والاستقراء . وقد يكون المثل لذلك هو الحكم الذى يقضى بأن الإبوة أهم من الأمومة ، مع أن الابوة لا يمكن إثباتها بالحواس كالأمومة . وهذا هو السبب الذى من أجله ينبغى أن يكون للطفل اسم أبيه وأن يرثه . ومثل آخر : إن إلهنا هو أعظم الآلهة وأقواها ، ولو أنه غير مرىء ، مثل العاصفة والروح . ويبدو رفض المطلب الجنسى أو الغريزى العدوانى شيئاً مختلفاً جداً عن هذا . وفى أمثلة كثيرة على التقدم فى مدارج الروحية — لا نستطيع أن نشير إلى السلطة التى تسن المعيار الذى به يقاس ما يمكن أن يعد ذا قيمة أعلى . وفى هذه الحالة لا يمكن أن يكون الأب نفسه ، طالما أن هذا التقدم وحده هو الذى يرفعه إلى أن يكون فى مرتبة السلطة . ولذلك فإننا نتواجه مع هذه الظاهرة وهى أنه خلال تطور البشرية يخضع عالم الحسيات للروحية ، ويحس الإنسان الفخر والتسامى لكل خطوة من هذه الخطوات التى تسير به فى طريق التقدم فى الروحية . ولا نعرف السبب فى ذلك . إلا أنه فيما بعد يحدث أن الروحية نفسها تغلبها على أمرها ظاهرة الإيمان العاطفية والغامضة كل الغموض . وهذا هو المثل المشهور الذى يقول إنى لأومن بما هو لا معقول Credo quia absurdum . وأى إنسان كان يحقق لنفسه هذا يعتبره أسمى المنجزات .

وربما كان الشيء المشترك بين كل تلك المواقف النفسية شيئاً مختلفاً . وربما يعلن الإنسان ببساطة أن المنجز الأعلى هو الأكثر صعوبة على التحقق ، وأن فخره به ليس إلا نرجسية ، يذكيها وعيه بأنه تغلب على الصعوبة .

ومن المؤكد أن هذه الاعتبارات غير مجدية كثيراً ، وقد نظن ألا علاقة بينها وبين بحثنا فيما حدد أخلاق الشعب اليهودى ، ولكان ذلك فى صالحنا ، ولكن مايثبت أن هذا التسلسل الفكرى مرتبط بمشكلتنا واقعة ستشغل بالنا فيما بعد بشكل أوسع ؛ فالديانة التى بدأت بتحريم صنع صورة لإلهها تطورت أكثر فأكثر على مر القرون وصارت ديانة نبذ غريزى — ولا يعنى ذلك أنها تأمر بالزهد الجنسى ، ولكنها تقنع بتقييد الحرية الجنسية تقييداً كبيرا ؛ وتسحب تماماً صورة الإله فيها من المستوى الجنسى وترفعه إلى مستوى مثالى من الكمال الأخلاقى . والأخلاق تعنى مع ذلك تقييد الإشباع الغريزى . ولم يمل الأنبياء ترديد أن الإله لا يطلب شيئاً آخر من شعبه سوى حياة عادلة وفاضلة — أى الامتناع عن إشباع كل السورات التى تدينها بالإثم طبقاً للمعايير الأدبية المعاصرة . وحتى الحض على الإيمان بالله يبدو وقد تراجع أمام خطورة هذه المطالب الأخلاقية . ومن ثم يظهر أن النبذ الغريزى يلعب دوراً بارزا فى الدين ، مع أنه لم يكن موجودا فيه من أول الأمر .

وهنا مكان أن نقول شيئاً من شأنه أن يمنع قيام سوء تفاهم . ومع أنه قد يبدو أن عملية نبذ الغرائز ، والأخلاقيات التى تنهض عليها ، لا تمت إلى جوهر الدين ، إلا أنهما عموماً وثيقة الارتباط بالدين رغم ذلك . وتحتوى الطوطمية وهى أول شكل نعرفه للدين ، كجزء لايتجزأ من نظامها ، على عدد من القوانين والنواهى التى ببساطة لاتعنى شيئاً سوى أنها نبذ للغرائز ، فهناك عبادة الطوطم التى تحتوى على تحريم قتله وخطر تعريضه للأذى ؛ وهناك الزواج من غير الأهل (وهو يعنى نبذ الزواج من أمهات وأخوات القبيلة : وهن مرغوبات بشكل حاد) ، وهناك منح كل أعضاء قبيلة الأخ حقوقاً متساوية (وهو مايعنى تقييد الميل إلى تسوية كل منازعاتهم بالقوة المجردة) . وفى هذه القواعد نتلمس البدايات الأولى للنظام الأدبى والاجتماعى . ولايخفى على ملاحظتنا أن دافعين مختلفين يظهران على المسرح هنا . فالخطران الأولان يعملان فى الاتجاه الذى كان من الممكن أن يرغب فيه الأب المقتول ، وهما كما نرى يخلدان إرادته . والقانون الثالث ، وهو القانون الذى يعطى حقوقاً متساوية إلى الأخوة ، يتجاهل رغبات الأب . وينهض معناه على الحاجة إلى الحفاظ بشكل دائم على النظام الجديد الذى قام بعد موت الأب ، وإلا فالانتكاس إلى الحالة السابقة ما كانت أمرا حتميا . وهنا صارت

القوانين الاجتماعية منفصلة عن غيرها من القوانين التى من الجائز أن نقول عنها أنها نشأت مباشرة من مغزى دينى .

وفى التطور المقتضب للفرد الإنسان تتكرر أهم أحداث تلك العملية ؛ وهنا أيضاً فإن سلطة الآباء — وأساساً سلطة الأب صاحب القوة الذى لامنازع له ، الذى يستخدم سلطة العقاب - هى التى تطلب نبذ الغرائز من جانب الطفل وتحدد ماهو مسموح به وماهو ممنوع . وما يسميه الطفل « حلوا » أو « خبيثاً » يصبح فيما بعد ، وعندما يحل المجتمع والأنا الأعلى مكان الآباء ، « خيرا » أو « شريرا » بالمعنى الأخلاقى ، فاضلا أو خبيثا . ولكنه مع ذلك نفس الشىء : نبذ للغرائز من خلال حضور السلطة التى حلت محل وواصلت سلطة الأب .

وتعمق نظرتنا داخل هذه المشاكل أكثر عندما نبحث المفهوم الغريب للقداسة . ما هو فى الواقع ذلك الذى يظهر « مقدسا » بالمقارنة بالأشياء الأخرى التى نحترمها جدا ونوافق على أنها شىء هام له أثره ؟ فمن ناحية فإن الارتباط بين المقدس والدين شىء صحيح وبارز جداً حتى ليبدو واضحا ، فكل شىء مرتبط بالدين مقدس ، وهنا هو صميم جوهر القداسة . ومن ناحية أخرى فإن الاضطراب يحوم حول حكمنا من جراء المحاولات العديدة التى تريد أن تنسب

القداسة إلى أشياء أخرى كثيرة — أشخاص ونظم وتشريعات لا تمت إلا بالقليل إلى الدين . وهذه المحاولات كثيراً ما تكون مفرضة بشكل واضح . ولنبدأ من سمة التحريم التى تلتصق التصاقاً وثيقاً بالدين . ومن الواضح أن المقدس شيء لا يجب أن يلمس ، وللتحريم المقدس نغمة مؤثرة شديدة القوة ، ولكنه فى الواقع لا ينبع من دافع عقلى ، إذ ما الذى يجعل ارتكاب الفحشاء بوجه خاص مع الابنة أو الأخت جريمة نكراء أكثر جرما من أى علاقات جنسية أخرى . وعندما نسأل عن تفسير سيقال لنا بالتأكيد أن أحاسيسنا تنفر من جريمة كهذه ، ومع ذلك فإن كل هذه المعانى لا تفيد إلا أن التحريم شيء يعد واضحاً بنفسه ، وأننا لا نعرف كيف نفسره .

ومن السهل إثبات أن تفسيراً كهذا زائف ، والشيء المعروف عنه أنه يؤذى أحاسيسنا كان مألوفاً كعادة عامة — وقد نقول أنه كان تقليداً مقدساً — فى الأسر الحاكمة لقدماء المصريين والشعوب الأخرى . ولا جدال أن كل فرعون وجد أول زوجة له فى أخته ، ولم يتردد خلفاء الفراعنة وهم البطالسة الإغريق فى إتباع هذا المثل . ويبدو أننا نستنتج من ذلك أن الزنا بالمحارم — وهو فى هذه الحالة بين الأخ وأخته — كان امتيازا ممنوعا على العاديين من الناس ، ومقصورا على الملوك الذين يمثلون الآلهة على الأرض . ولم يكن عالم

أساطير الإغريق والألمان استثناء من حيث تحريم هذه العلاقات بين المحارم من الأقارب ، وربما جاز لنا أن نتصور أن الاهتمام البالغ بما يسمى « أسرة » بين الطبقة النبيلة العليا من مجتمعاتنا من مخلفات هـــذا الامتياز القديم ، ونلاحظ أنه نتيجة للتزاوج الداخلي الذى استمر خلال أجيال كثيرة فى الدوائر الاجتماعية العليا أن الرءوس المتوجة اليوم فى أوروبا هى فى الواقع أسره واحدة .

وتساعد الإشارة إلى قيام الزواج بين المحارم من الأقارب بين الآلهة والملوك والأبطال ، على قيام محاولة أخرى لتفسير عدم ضرر التزاوج الداخلي ، وهى تلك التى تحاول أن تفسر هول الاتصال الجنسى بين الأقارب المحرمين ، من الناحية البيولوجية ، والإقلال من شأنها حتى لتصبح معرفة غريزية . ولا ننكر كذلك وجود خطر من نوع ما من التزاوج الداخلي ، ناهيك عن أن الأجناس البدائية عرفته واتقته . وعدم التيقن فى [illegible] لاقات المسموح بها والمحرمة هو حجة أخرى ضد افتراض وجود « إحساس طبيعى » مسبق لدى الإنسان كدافع أصلى للفزع من الاتصال الجنسى بالمحارم .

وتفرض علينا نظريتنا لصياغة ما قبل التاريخ تفسيرا آخر ، وهو أن قانون الزواج من غير الأقارب ، وهو التعبير السلبي الذى ينبع منه الخوف من الاتصال الجنسى بالأقارب ، كان إرادة الأب ،

وأنه استمر بعـد مقتله . ومن ثم كانت قوة أثره واستحالة وجود دافع عقلي له — وبالاختصار قداسـته . وإني لأتوقع عن ثقة أن يؤدي البحث في كل الحالات الأخرى للمحرمات المقدسة إلى نفس نتيجـة الفزع من الاتصال الجنسي بالأقارب — وهو أن ما هو مقدس ليس في الأصل شيئا سوى الإرادة الخالدة للأب البدائي .

ويوضح ذلك أيضا تفسير المعنيين المتعارضين للـكلمة ، والذين ظلا بلا تفسـير حتى الآن ، واللذين يعبران عن مفهوم القداسة . وهما المعنيان اللذان يحكمان العلاقة بالأب ، فـكلمة مقدس « Sacer » لا تعني فقط « مقدسا » أو « مباركا » ، ولـكنها تعني كذلك شيئا يمـكننا أن نترجمه «بملعون» أو « يستحق الازدراء » (Anri Sacer fames) ، ولم تكن إرادة الأب مجرد شيء لاينبغي أن يلمس ، وينبغي أن يوضع موضع الشرف العالي ، ولـكنها كذلك شيء تجعل الإنسان يرتجف لأنها تتطلب بالضرورة النبذ المؤلم للغرائز . وعندما نسمع أن موسى جعل شعبه مقدسا بأن أدخل عادة الختان ، فإننا نفهم الآن المعنى العميق لهذا الزعم ، فالختان هو البديل الرمزي للإخصاء ، وهو عقاب كان يفرضه الأب البدائي على أبنائه منذ زمن بعيد من باب الممارسة الـكاملة لسلطته ، وكل من كان يقبل هذا الرمز كان يظهر بعمله ذاك استعداده للرضوخ لإراده الأب ، رغم أنه كان على حساب تضحية مؤلمة .

وبالعودة إلى الأخلاق : قد نقول ختاما أن جزءا من شرائعها تفسره عقليا ضرورة تحديد الحقوق التى يسقطها المجتمع على الفرد ، والحقوق التى يتنازل عنها الفرد للمجتمع . والحقوق التى يعترف بها الأفراد تجاه بعضهم البعض . وإن ما يظهر غامضا ومهيبا وواضح بنفسه باطنيا ليدين بصفاته إلى ارتباطه بالدين ، وبانبعاث أصله من إرادة الأب .

* * *

٦ — الحقيقة فى الدين

كيف نحسد نحن أصحاب الإيمان القليل هؤلاء الذين يقتنعون بوجود قوة عليا لا يشكل العالم بالنسبة لها أية مشاكل لأن هذه القوة نفسها هى التى خلقت كل نواميسه ! وكيف أن مذاهب المؤمنين شاملة ومستوعبة ونهائية بالنسبة لمحاولات التفسير المصطنعة الفقيرة المرقعة وهى أحسن مايمكننا تقديمه . إن الروح الإلهية ، وهى فى ذاتها المثل الأعلى للكمال الأخلاقى ، قد زرعت داخل روح البشر المعرفة بهذا المثل الأعلى والدافع إلى السعى نحوه فى نفس الوقت . والبشر يحسون فوراً بما هو سام ونبيل وبما هو محط وحقير . وتقاس حياتهم العاطفية بالبعد بينهم وبين مثلهم الأعلى . وإنه ليمنحهم إشباعاً عظيما عندما يقتربون منه — قياساً إلى أقرب نقطة منهم إليه — أكثر

وهم يحسون كعقاب لهم بالشقاء الشديد عندما — قياساً إلى أبعد نقطة منهم إليه ، يسيرون مبتعدين عنه . كل هـذا معروف ببساطة وباستقرار جداً . وليس بوسعنا إلا الأسف له ، إذا جعلت تجارب معينة من الحياة وملحوظات مستوحاة من الطبيعة ، من المستحيل تقبل الافتراض بوجود مثل هذا الكائن الأعلى . وكما لو كان العالم ليس لديه ما يكفى من المشاكل ، فاننا نتواجه بمهمة الكشف عن الكيفية التي استطاع بها المؤمنون بالكائن الإلهى أن يكون لهم هذا الإيمان ، ومن أين يستمد هذا الإيمان القوة الضخمة التي تمكنه من التغلب على العقل والعلم[1]

ولنعد إلى المشكلة الأكثر تواضعاً التي شغلتنا حتى الآن ، فلقد بدأنا فى شرح من أين جاءت هذه الخاصية العجيبة للشعب اليهودى التي بكل الاحتمالات ساعدت هذا الشعب على الاستمرار فى الحياة حتى الوقت الحالى . ووجدنا أن الإنسان موسى خلق أخلاقه بإعطائه دينار زاد من ثقته بنفسه لدرجة أنه اعتقد فى نفسه أنه أسمى من كل الشعوب الأخرى . وعاش بأن انعزل عن الشعوب الأخرى . وخلق اختلاط الدم اختلافاً بسيطاً ، طالما أن ما أبقاه متلاصقا كان شيئاً

---

(١) إشارة إلى الفقرة التي تقول فى رواية فاوست « Verachte Schaft nur Vernunft and Wissen » . (المترجم) .

مثاليًا — امتلاكه امتلاكا مشتركا لقيم فكرية وعاطفية معينة .
وكان للديانة الموسوية هذا الأثر .

١ — لأنها سمحت للشعب بالمشاركة فى جلال مفهومها الجديد عن الله .

٢ — ولأنها تمسكت بأن الشعب قد « اختاره » هذا الإله العظيم ، وأنه كان من قدره أن يستمتع بدلائل إيثاره الخاص .

٣ — ولأنها فرضت على الشعب تقدماً فى الروحية — له دلالته الكافية فى حد ذاته — فتح طريق الاحترام ، لأبعد من ذلك ، للعمل الفكرى ولمزيد من أوجه النبذ للغرائز .

وهذه هى إذن الخاتمة التى توصلنا إليها ، ولكنى رغم أنى لا أرجو أن أسحب أى شىء قلته من قبل ، فإنى لا يسعنى إلا الشعور بأنها بشكل ما نتيجة غير مرضية كلية . ولا يتفق السبب على ما أرى مع النتيجة .

وتبدو الحقيقة التى نحاول شرحها شيئا غير متناسب مع كل ما نقدمه من دلائل بهدف التفسير . فهل من الممكن أن كل بحوثنا حتى الآن لم تكشف الدافع كله ؟ بل طبقة سطحية منه فقط ، وأنه خلف هذه الطبقة يكمن مختفيا جزء مركب آخر له دلالته الكبرى ؟ وبالنظر إلى التعقيد غير العادى الذى توجد عليه كل علة فى الحياة

والتاريخ فإن من الواجب علينا أن نكون على استعداد لشيء من هذا القبيل .

والمرور إلى هذا الدافع الأعمق يبدأ عند فقرة معينة فى المناقشة السابقة . ولم تحقق ديانة موسى آثارها فوراً ، ولكن بطريقة غريبة غير مباشرة . ولا يعنى هذا أنها هى نفسها أولدت الأثر ، ولكنها استغرقت وقتا طويلا وقرونا كثيرة ، لتفعل ذلك ، وهو مايلزم بلا منازع تطور أخلاق شعب من الشعوب . ومع ذلك فإن تعديلنا يشير إلى واقعة أخذناها من تاريخ الديانة اليهودية ، أو بالأحرى أدخلت عليه ، فلقد قلت إن الشعب اليهودى تخلى عن ديانة موسى بعد وقت معين ، ولا نستطيع أن نقول ما إذا كان قد فعل ذلك كلية أو أنه استبقى بعضا من أفكارها .

وفى تقبل الافتراض الذى يقول بأنه خلال الفترة الطويلة من القتال من أجل أرض كنعان والنضالات مع الشعوب المستقرة هناك ، لم تختلف ديانة يهوه كثيراً عن عبادة البعليم الآخر ، نقف على أرض تاريخية ، برغم كل المحاولات المغرضة اللاحقة لإخفاء هذا الوضع الزائف للأمور ، فديانة موسى رغم ذلك لم تفن ، وعاش نوع من ذكراها ، مخفيا ومشوها ، ولكنه عاش ربما بتأييد أفراد من طبقة الكهنة من خلال النصوص القديمة . وكانت هذه الرواية للماضى

للعظيم هى التى استمرت فى ممارسة تأثيرها من وزاء الستار ، وببطء اكتسبت المزيد والمزيد من القوة على عقول الشعب وأفلحت آخر الأمر فى تغيير الإله يهوه إلى إله موسى ، وفى بعث الديانة المهملة من جديد التى أسسها موسى من قرون مضت

وفى الأجزاء المبكرة من هذا الكتاب ناقشت الافتراض الذى يبدو ألاّ مناص منه إذا كان علينا أن نجد مثل هذا العمل الفذ مفهوما من جانب الرواية المنقولة .

* * *

٧ — عودة المكبوت

هناك عدد من العمليات المشابهة على رأس تلك العمليات التى ميزنا بها البحث التحليلى للحياة العقلية . وبعضها يسمى باثولوجى (مرضى) ، ويعد بعضها الآخر من بين الأوجه التى يتشكل عليها الشخص العادى ، ومع ذلك فالأمر قليل الأهمية ، لأن الحدود بين الإثنتين غير محددة تحديداً قاطعا ، والطرق الآلية التى تسير عليها متشابهة إلى حد معين . وإنما الذى يهم جدا هو ما إذا كانت التغيرات موضوع البحث تتم فى الأنا نفسه أو أنها تواجهه كعوامل غريبة عليه ، وفى هذه الحالة الأخيرة تسمى أعراضا . ومن اكتمال المادة التى تحت تصرفى سأختار حالات تهم تشكيل الشخصية .

لقد تطورت فتاة شابة إلى أقصى التناقض من أمها ، وتعهدت في نفسها كل الخصال التى افتقدتها فى أمها ، وتجنبت كل تلك الصفات التى تذكرها بأمها. وقد أضيف أنه فى السنين السابقة كانت تجد نفسها فى أمها — كأى طفلة أخرى — ولكنها الآن بلغ بها الأمر أن تناقض هذا التماثل بحماس . وعندما تزوجت هذه الفتاة وصارت زوجة وأماً بدورها ، فإننا ندهش عندما نجد أنها صارت أكثر وأكثر مشابهة للأم التى كانت تحس بالعداوة البالغه لها ، حتى كللت أخيرا هذه المشابهة بالأم بالنصر القاطع . ونفس الشىء يحدث مع الأولاد . وحتى جوته العظيم ، فى مرحلة Sturm and Drang ، لم يكن يحترم بالتأكيد ، الاحترام الواجب ، أباه المتعالم الفظ ، وتكونت له فى شيخوخته صفات كانت لأبيه . وتبرز هذه النتيجة أكثر حيث يكون التناقض بين الشخصيتين أوضح وأبرز . وإن الشاب الذى كتب عليه قدره أن يكبر مع أب لا يصلح لشىء ، ليتجه فى نموه فى أول الأمر — ورغما عن أبيه — إلى أن يكون رجلا قادراً موثوقا به شريفا . ولكن فى مقتبل العمر تتغير شخصيته ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً يتصرف كما لو كان قد اتخذ هذا الأب نفسه نموذجا له . ولكى لا ننفصل عن موضوعنا يجب أن نضع فى بالنا أنه عند بداية مثل هذه العملية فإنه يوجد دائما تماثل بين الابن والأب

منذ الأيام المبكرة للطفولة ، وإن التماثل ينبذ بل ويغالى فى الصفات المعارضة له ، وفى النهاية يأتى إلى الضوء مرة أخرى .

وصار من الشائع منذ زمن بعيد أن تجربة السنوات الخمسة الأولى من حياة الطفل لها سلطانها الحاسم على حياتنا ، وهو سلطان تعارضه الأحداث اللاحقة عبثا . ويمكن أن يقال الكثير عن كيفية مقاومة هذه التجارب المبكرة لكل جهوذ السنين الأنضج لتعديلها ، ولكن ما سيقال لن يكون له علاقة بالموضوع ، وقد لا يكون معروفا بشكل قوى أن أقوى تأثير ملح يستمد من تلك التجارب التى يدخلها الطفل ، يكون فى وقت نحسب أن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن جهازه النفسى يكون غير مستعد تماما لتقبلها . ولا يمكن الشك فى الواقعة نفسها ، ولكن يبدو مستغربا أن من الجائز أن نحاول ، أن نسهل أكثر ، عملية الفهم بواسطة التشبيه ؛ ويمكن أن نقارن العملية بالصورة الفوتوغرافية التى يمكن تكبيرها لتصبح صورة أكبر بعد فترة تقصر أو تطول . وهنا قد أشير مع ذلك إلى أن كاتبا خياليا ، له الجرأة التى تفتقر لأمثاله من الكتاب ، قيض له هذا الاكتشاف الخير قبلى ، وأعتاد ى . ت . ا . هوفمان[1] أن يشرح ثراء الأرقام الخيالية التى كانت تكشف له عن مكنونها لينسج منها

(١) E.T.A Hoffman : كاتب قصصى . (الحفنى) .

قصصه عن طريق الصور التى تتغير بسرعة ، والأحاسيس التى كان قد تلقاها خلال رحلة فى عربة بريد استمرت لعدة أسابيع عندما كان مايزال طفلا يرضع ثدى أمه . وما كان قد جربه طفل ، ولم يكن قد فهمه عندما وصل إلى سن الثانية ، كان من الممكن ألا يذكره مرة أخرى أبدا ، إلا فى أحلامه . ولن يعى تلك الأحداث إلا أثناء العلاج التحليلى النفسى فقط . وقد تقتحم حياته فى أى وقت من سنيه باندفاع ملح ، وتوجه أعماله وتجبره على حب أو كراهية الناس ، ولها القرار فى كثير من الأحوال فى عملية اختيار موضوع حبه ، مفضلة هذا أو ذاك ، بما لا يمكن الدفاع عنه عقليا فى كثير من الأحيان . والنقطتان اللتان تمسان مشكلتنا لا يرقى إليهما الخطأ ، وهما أولا بعد الزمن[1] الذى يعتبر هنا كما لو كان العنصر الحاسم . واقعيا مثلما يحدث فى حالة الذاكرة الخاصة التى تتعلق بتجارب الطفولة تلك ، والتى ندرجها تحت اسم «اللاشعور» ونتوقع أن نجد فى هذه السمة شبها بالحالة العقلية التى ننسبها إلى التراث عندما ينشط فى الحياة

---

(١) وهنا كذلك قد يتحدث عنا شاعر . ولكى يشرح ارتباطه يتخيل :

لأنه فى حيوات سابقة قد مررنا
من خلالك ، أيها الحب ، سواء كنت
الرابطة التى ربطتنى بأختى أم بزوجتى .

جوته ، المجلد الرابع من طبعة فيار ، ص ٩٧ . (فرويد) .

العقلية العاطفية لشعب من الشعوب . ولم يكن من السهل ، حقيقة ، إدخال مفهوم اللاشعور فى علم النفس الجماعى .

وتقدم البناءات الآلية التى تؤدى إلى تكوين العصاب إضافات منتظمة للظواهر التى نبحث عنها ، وهنا كذلك يكون للتجارب الحاسمة التى جرت فى الطفولة المبكرة تأثيرها الباقى ، ومع ذلك ففى هذه الحالة لا ينصب التركيز على الزمن ، بل على العملية التى تناقض ذلك الحادث ، ورد الفعل ضده . وبتعبير أصح نقول الآتى : كنتيجة لتجربة معينة يقوم مطلب غريزى يسعى إلى الإشباع . ولكن الأنا يطرح عنه هذا الإشباع ، إما لأن الشلل يصيبه نتيجة المغالاة فى الطلب ، وإما لأنه يرى فى تحقيقه خطراً متمثلا . والسبب الأول فى هذين السببين هو السبب الأصلى ، وكلا السببان ينتهيان إلى تجنب أحد المواقف الخطيرة . ويحذر الأنا من هذا الخطر بواسطة الكبت ، ويمنع التهيج بطريقة أو بأخرى ؛ وينسى الاستفزاز بماله من ملحوظات ومدركات . ولا يؤدى هذا ، مع ذلك ، بالعملية إلى النهاية ، فإما أن الغريزة قد احتفظت بقوتها ، أو أنها ستستعيد قوتها ، أو أنها ستثار من جديد بموقف جديد . إنها تجد مطلبها — حيث أن الطريق إلى الإشباع الطبيعى يعوقه ما يمكن أن نسميه نسيج ندبة الكبت — وتصل عندى إحدى النقاط الضعيفة إلى مكان جديد يقربها مما يسمى

بالإشباع البديل الذى يظهر الآن كعرض بدون موافقة الأنا وبدون إدراكه كذلك . وكل الظواهر التى تتخذ شكل العرض يمكن وصفها عن حق بأنها « عودة المكبوت » . وتكمن الصفة البارزة لهذه الظواهر فى التشوه الواسع المدى الذى مرت به العناصر العائدة ، بالمقارنة إلى شكلها الأصلى . وربما يثار اعتراض هنا من أنه فى هذه المجموعة الأخيرة من الوقائع انحرفت كثيراً عن التشابه مع التراث . ولن أحس مع ذلك بأى أسف إذا كان ذلك قد قربنا أكثر من مشاكل نبذ الغرائز .

* * *

٨ — الحقيقة التاريخية

لقد صنعت كل هذه الانحرافات السيكولوجية كى أجعل من المصدق أكثر أن ديانة موسى لم تؤثر على الشعب اليهودى إلا عندما صار تراثاً . ولم نحرز بالكاد أكثر من احتمال ، ومع ذلك فلنفترض أننا قد نجحنا فى إثبات ذلك بشكل قاطع ، ولكن الانطباع سيظل أننا قد أرضينا فقط العامل الكيفى لمهمتنا ، وليس العامل الكمى كذلك . ويعزى لكل المسائل التى تخص خلق ديانة من الديانات — وتخص بالتأكيد الديانة اليهودية — شىء مهيب ، لم تغطه حتى الآن أى من تفسيراتنا . ولابد أن أحد العناصر الأخرى له ضلع فى ذلك :

عنصر ليس له إلا أشباه قليلة ولا يوجد مايشبهه شبهاً تاماً . إنه شيء فريد ومتلائم مع ذلك بالذى نما منه ، شيء يشبه الدين نفسه .

ولنر ما إذا كنا نستطيع أن نقترب من موضوعنا من الجانب المقابل ، فنحن نفهم أن الإنسان البدائى فى حاجة إلى إله بوصفه خالق العالم ، ورئيس قبيلته ، ومن يعنى به . ويحتل هذا الإله مكانه خلف الأباء الموتى الذين مايزال التراث لديه شيء يقصه عنهم . والإنسان فى العصور اللاحقة — فى عصرنا مثلا — يتصرف تصرفا مشابها . وهو يظل كذلك طفلياً ويحتاج إلى الحماية ، حتى عندما يكبر حتى تمام نموه . وهو يحس أنه لايستطيع أن يستغنى عن مساعدة إلهه . وهناك مسائل كثيرة لاتقبل النقاش ، ولكن ليس من السهل الميسور أن نفهم لماذا كان من الضرورى أن يوجد إله واحد ، ولماذا يكون للتقدم من تعدد الآلهة إلى التوحيد كل هذا المعنى الطاغى . والحقيقة كما ذكرت من قبل أن المؤمن يشترك فى عظمة إلهه ، وكلما زادت قوة الإله ، كلما كانت الحماية التى بوسعه أن يضفيها عليه شيئا مضمونا . ولا تفترض قوة الإله مع ذلك افتراضا مسبقا أنه إله واحد : فكثير من الشعوب لم تمجد إلهها الأكبر أكثر إلا عندما كان يسيطر على مجموعة من الآلهة الأقل شأنا ، ولم يكن يقلل من عظمته أن آلهة أخرى كانت توجد إلى جواره . وكان ذلك يعنى أيضاً التضحية

ببعض من العلاقة الحميمة إذا صار الإله عالميا وكانت عنايته شاملة لكل البلاد والشعوب بالتساوى . وربما كان لنا أن نقول أن ضرورة اقتسام الإله مع الأغراب كان يستتبعها تعويض المؤمنين الأصليين بالإله عن ذلك باعتقاد أن هذا الإله يؤثرهم برضاه عن غيرهم ، وربما كان معنى ذلك أن تصور الإله بوصفه واحداً هو خطوة للأمام فى طريق الروحية ، ومع ذلك فلا ضرورة إلى المبالغة فى تقدير هذه النقطة .

والمؤمن يعرف طريقة يتدارك بها ملأ هذا الفراغ الواضح فى التعاليل ، وهو يقول أن فكرة الإله الواحد لها هذا التأثير الطاغى على البشرية لأنها جزء من الحقيقة الأبدية ، التى ظلت مخبوءة كل هذا الوقت الطويل ، وكان عليها أن ترى النور آخر الأمر ، وجرفت كل شىء أمامها . وعلينا أن نقر أن لدينا عنصراً من عناصر التنظيم يتناسب مع عظمة الموضوع ، ويتناسب كذلك مع نجاح تأثيره .

وأحب كذلك أن أقبل هذا الحل . ومع ذلك فلدى شكوكى . وتقوم الحجة الدينية على مقدمات متفائلة ومثالية . ولم تظهر البصيرة الإنسانية نفسها فى مكان آخر أنها قد وهبت حاسة شم عالية جداً للحقيقة ، لا ولم يظهر العقل الإنسانى أى استعداد خاص لتقبل الحقيقة . إن العكس هو الصحيح ، فالتجربة التى يعرفها الجميع أن البصيرة

الإنسانية تخطىء بسهولة جداً دون أن تشتبه أدنى اشتباه فى أنها قد أخطأت ، وأنه لا شىء يدعو إلى التصديق الفورى أكثر مما يلتقى مع رغباتنا وأوهامنا فى منتصف الطريق — بصرف النظر عن الحقيقة ، وهذا هو السبب الذى من أجله تحتاج موافقتنا إلى تعديل . وأنا كذلك أميل إلى أن أقول أن الحل الذى يقدمه المؤمن يحتوى على الحقيقة ، وهى ليست مع ذلك الحقيقة المادية ، ولكنها الحقيقة التاريخية . وإنى لأدعى لنفسى الحق فى تصحيح التشويه المعين الذى أصاب هذه الحقيقة عند معاودة ظهورها ؛ بمعنى أنى لا أعتقد أنه فى العصور البدائية كان يوجد شخص واحد كان من الضرورى أن يبدو عملاقا ، وعندما ارتفع إلى مستوى الآلهة ، عاد إلى ذاكرة البشر .

ولقد افترضنا أن ديانة موسى قد طرحت ونسيت جزئياً ، وأنها فيما بعد فرضت نفسها على ملاحظة الشعب اليهودى بوصفها تراثا . وإنى لأتصور أن هذه العملية كانت التكرار لعملية أسبق عليها . وعندما أعطى موسى شعبه فكرة الإله الواحد لم تكن الفكرة جديدة كلية ، لأنها كانت تعنى بعث الحياة فى تجربة بدائية جرت فى الأسرة الإنسانية وكانت قد ذوت من الذاكرة الواعية للبشرية . وكانت للتجربة أهمية خاصة وأثمرت تغييرات بعيدة المدى فى حياة الإنسان ، أو أنها على الأقل مهدت الطريق لها ، حتى لا يسعنى إلا أن

اعتقد أنها قد تركت أثراً دائماً فى الروح الإنسانية — شيئاً يمكن مقارنته بالتراث .

ولقد علمنا التحليل النفسى للأفراد أن مشاعرهم المبكرة التى تكونت لديهم فى وقت لم يكونوا فيه قادرين بعد على شىء ، تفصح عن نفسها فيما بعد بشكل مزعج ، مع أن هذه المشاعر نفسها لا يذكرها صاحبها بشكل واع . ونرى أن نفس الشىء يسرى على التجارب المبكرة للبشرية . ونتيجة واحدة لذلك هى ظهور فكرة إله عظيم واحد . وينبغى أن نعترف بها كذكرى — ذكرى محرفة حقيقة ، ولكنها رغم ذلك ذكرى . وهى ذكرى لها صفة مزعجة ؛ وببساطة ينبغى الاعتقاد فيها . وبمقدار ما يبلغه التحريف الذى أصابها قد تسمى وهما ؛ وبمقدار ما تدفع من الماضى إلى دائرة الضوء ينبغى أن تسمى حقيقة . ويتضمن الوهم المرضى النفسى كذلك جزءا من الحقيقة ؛ وينبع اقتناع المريض من هذا ، ويمتد إلى كل البناء المزيف الوهمى الذى يحيط بالوهم .

وتحتوى الصفحات التالية على صورة مكررة ، يكاد يذكر التغيير الذى تناولها ، لما قلته فى القسم الأول . وفى سنة ١٩١٢ حاولت فى كتابى « الطوطم والحرم » أن أعيد بناء الموقف القديم الذى خرجت منه كل هذه النتائج . وفى ذلك الكتاب استخدمت بعض الأفكار

النظرية التى قال بها شارلز دارون ، و ج . أتكنسون ، وبخاصة روبرت سميث ، وربطتها بالاكتشافات ، والأفكار المستخلصة من ممارسة التحليل النفسى . ومن دارون أخذت فكرة أن البشر عاشوا فى أول الأمر فى عشائر صغيرة ، وكانت كل عشيرة تحت حكم ذكر أكبر سنا ، وكان يحكم بالقوة الغاشمة ويستحوذ على كل الإناث ، ويستعبد أو يقتل كل صغار الذكور ، بما فيهم أبناؤه هو نفسه . ومن اتكنسون أخذت فكرة أن هذا النظام الأبوى وصل إلى نهايته بتمرد الأبناء الذين اتحدوا ضد الأب وتكاثروا عليه وأكلوا جميعا جسمه . وقلت متابعا نظرية روبرتسون سميث فى الطوطم أن هذه العشيرة التى كان يحكمها الأب سابقا أعقبتها عشيرة أخوية طوطمية . ونبذ الإخوة المنتصرون ، لكى يكون بوسعهم أن يعيشوا معا فى سلام ، النساء اللاتى من أجلهن قتلوا الأب ، ووافقو على أن يتزوجوا من خارج عشيرتهم ، وهكذا تبددت سلطة الأب ، ودخل التنظيم الأسرى عن طريق النظام الأموى . وظل هناك إحساسان لدى الأبناء ، يعارض كل منهما الآخر تجاه الأب ، ويسيطران على الأبناء على مدى التطور اللاحق . وبدلا من الأب أعلن عن قيام طوطم من حيوان معين ، حل محل جدهم والروح الحامية لهم ، وما كان مسموحا لأحد أن يؤذيه أو يقتله . وكانت العشيرة تجتمع مرة كل عام تحتفل بطوطمها . وفى الاحتفال يقطع الطوطم المقدس قطعا ويؤكل ، وما كان من

المسموح لأحد أن يمتنع عن المشاركة فى هـذا الاحتفال ، وكان تكرارا مقدسا لاغتيال الأب ، هذا الاغتيال الذى بدأ به التنظيم الاجتماعى والقوانين الأخلاقية والدين . وخطرت فكرة التشابه بين عيد الطوطم (طبقا لوصف روبرتسون سميث) ، وبين المناولة المسيحية لكثير من المؤلفين قبلى .

وما أزال حتى الآن أعتقد فى هذه النتيجة الفكرية ، وكثيراً ماوجه لى بحماس اللوم لعدم تغييرى أفكارى فيما تلا ذلك من طبعات لكتابى ، طالما أن المزيد من علماء علم الأجيال المحدثين قد طرحوا بلا استثناء نظريات روبرتسون سميث ، وأحلوا محل جزء منها نظريات أخرى تختلف عنها اختلافا واسعا . وإنى لأجيب على هذا العقاب بأنى أعرف جيداً هذا التقدم المزعوم فى العلوم ، ولكنى لم أقتنع بصوابه ولا بتخطئته لروبرتسون ، وليس معنى التناقض دائما الرفض ، ولا يعنى قيام نظرية جديدة أنها بالضرورة علامة على التقدم ، ثم أنى مع ذلك لست من علماء علم الأجيال ، ولكنى محلل نفسى ، ومن حقى الكامل أن أختار من المواد التى يقدمها علم الأجيال مايخدم بحثى التحليلى ، ولقد زودتنى كتابات روبرتسون سميث صاحب الموهبة الكبيرة بنقاط قيمة تتصل بالمادة السيكولوجية للتحليل ، وبأفكار تنفعها ، ولا أستطيع أن أقول نفس الشىء عن نظريات خصومه .

* * *

ولا يمكننى هنا أن أعيد عرض محتويات كتاب « الطوطم والمحرم » ، ولكنى يجب أن أحاول بيان الذى حدث فى الفترة الطويلة التى وقعت بين الأحداث التى اقترحت أنها حدثت فى العصور البدائية ، وبين انتصار التوحيد فى العصور التاريخية . وبعد أن قام الترابط بين عشيرة الأخ والقبيلة الأموية والزواج من غير الأقارب والطوطمية ، بدأ هناك تطور يمكن أن يوصف أنه « عودة بطيئة للمكبوت » . ولا يستخدم هنا اصطلاح « مكبوت » بمعناه التكنيكى . إننى أعنى هنا أنه شىء ماض ، قد اختفى ، وأمكن التغلب عليه فى حياة الشعب ، وهو ما أتجرأ على أن أعامله كمساو للمادة المكبوتة فى الحياة العقلية للفرد . وليس بوسعنا الآن أن نصف الشكل السيكولوجى الذى وجد فيه الماضى خلال فترة الظلام التى عاش فيها . وليس من السهل ترجمة مفاهيم علم النفس الفردى إلى مفاهيم لعلم نفس جماعى ، ولا أظن أننا نستفيد شيئاً كثيراً بإدخال مفهوم اللاشعور « الجماعى » — فمحتوى اللاشعور على أى حال جماعى ، وهو ملكية عامة للبشرية . ولذلك فإن استخدام التشبيهات أثناء ذلك يجب أن يساعدنا على الفهم . والعمليات التى ندرسها هنا فى حياة شعب من الشعوب تشبه كثيراً تلك العمليات التى نعرفها

من علم الطب النفسى ، ومع ذلك فهى ليست نفسها تماما ، وينبغى أن نخلص من ذلك إلى أن المتخلف العقلى من تلك العصور البدائية صار ميراثا لا يحتاج مع كل جيل جديد لمعاودة تحصيله بل لإيقاظه. وقد نفكر هنا فى مثل رمزية الكلام ، وتبدو تأكيداً كما لو كانت شيئاً نولد به . ومع ذلك فهى تنشأ أصلا فى وقت تطور الكلام ، وهى شىء يألفه كل الأطفال دون الحاجة إلى أن يتلقوا تعليمات به . وهو نفس الشىء لدى كل الشعوب برغم الاختلافات فى اللغة . وما يمكن أن ينقصنا مع ذلك من الناحية اليقينية قد نحصل عليه من النتائج الأخرى لبحوث التحليل النفسى . ونتعلم أن أطفالنا فى عدد من العلاقات ذات الأهمية لا ينفعلون تجاهها كما تؤدى بنا تجاربهم الخاصة أن نتوقع ، ولكنهم ينفعلون تجاهها غريزيا كالحيوانات ، وهذا لا يفسره إلا ما ينتقل بالميراث من صفات تتكون مع النشوء النوعى للأحياء .

وتسير عملية عودة المكبوت ببطء ، وهى لا تحدث بالتأكيد تلقائيا ، ولكن تحت تأثير كل التغيرات فى ظروف الحياة التى تكثر خلال تاريخ الحضارة . ولا أستطيع هنا أن أقدم مسحا للشروط التى تعتمد عليها ، ولا أستطيع إلا أن أعطى إحصاءاً يسيراً للمراحل التى تسير فيها عملية العودة . لقد صار الأب مرة أخرى زعيم الأسرة ،

ولكنه لم يعد صاحب السلطان المطلق مثلما كان الأب فى العشيرة البدائية . وفى المراحل الانتقالية الواضحة والمسلم بها طرد الإله الحيوان الطوطمى وحل محله ، ولكن الإله وقد تشكل فى شكل إنسانى كان ما يزال يحمل فى أول الأمر رأس حيوان ، ثم من بعد ذلك دأب على أن يتشكل فى هيئة نفس الحيوان ، ثم صار الحيوان من بعد مقدساً بالنسبة له ورفيقه الأثير ، أو أنه استهر بذبحه للحيوان عندما أضاف اسم الحيوان إلى اسمه . وبين الحيوان الطوطم والإله ظهر البطل ، وكثيراً ما كان ذلك فى مرحلة مبكرة من مراحل تقديس الآلهة . ويبدو أن فكرة الكائن الأعلى ظهرت مبكرة ، وكانت فى أول الأمر فكرة ضبابية وخالية من أى ارتباط مع اهتمامات البشر اليومية . وأثناء عملية انضمام القبائل والشعوب معاً فى وحدات أكبر ، نظمت الآلهة كذلك فى أسر ومراتب كهنوتية . وكثيراً ما كان يرفع أحدها ليكون كبيراً للآلهة والبشر [1] . ثم اتخذت البشرية فى تردد الخطوة الثانية لعبادة إله واحد ، وأخيراً تقرر التنازل عن كل سلطة لإله واحد فقط ، وعدم قبول أى إله آخر إلى جواره . وحينئذ فقط أعيد مجد الأب البدائى ، وكان من الممكن أن تتكرر العواطف التى تدور حوله .

---

(١) أخذ فرويد هذه الفكرة من تصوير القرآن الرائع لموقف إبراهيم .

وكان الأثر الأول للاتحاد من جديد بما افتقده البشر وتمنوه من زمن طويل قويا لدرجة كبيرة ، وكان صورة طبق الأصل لما يصوره تراث نزول الشريعة على جبل سيناء . وكان هناك إعجاب ورهبة وامتنان من أن الشعب نال الاستحسان فى عين الرب . ولا تعرف ديانة موسى إلا هذه المشاعر الإيجابية تجاه الإله الأب .

وكان اقتناع الابن العاجز المرعوب من سلطة الأب التى لاراد لها فى القبيلة ، وبالخضوع لإرادته كاملا ، ولكن ما كان من الممكن أن يكون هذا الاقتناع وذاك الخضوع بشكل أكثر اكتمالا عما كان عليه هنا مع الشعب اليهودى ؛ ولم يصبحا شيئا يمكن إدراكه بشكل تام إلا بالتحول داخل الوسط البدئى الطفلى ، فالمشاعر الطفلية أكثر عنفا وأبعد عمقا لا ينضب ، من مشاعر البالغين ، ولاسبيل إلى استعادة هذا العنف فى المشاعر إلا بالحماس الدينى ، ومن ثم كان تحول الولاء إلى استجابة للعودة إلى الأب العظيم .

وهكذا تحدد اتجاه هذه الديانة الأبوية للأبد ، ولكن تطورها لم ينته عند ذلك ، فتكافؤ الضدين ينتمى إلى جوهر علاقة الأب بالابن ، فقد كان يحدث أن تثار عبر الزمن العداوة التى دفعت الأبناء أن يذبحوا أباهم الذى يكنون له فى أنفسهم الإعجاب به والخشية منه ، وفى أيامهم فى ديانة موسى نفسها ، لم يكن هناك مجال التعبير المباشر

عن الكراهية القاتلة للأب . وما كان من الممكن أن يظهر فيها إلا رد فعل قوى لهذه الكراهية : الشعور بالذنب بسبب تلك الكراهية ، وتأنيب الضمير لأن صاحبه قد أثم فى حق الإله واستمر فى إتيان الإثم . وهذا الشعور بالذنب الذى أبقاه الأنبياء حيا باستمرار ، والذى سرعان ماصار جزءا لا يتجزأ من النظام الدينى نفسه ، كان له دافع آخر سطحى أخفى بذكاء الأصل الحقيقى للشعور ، فقد صادف الشعب أوقاتا عصيبة ؛ وكان تحقق الآمال المقصورة على استحسان الإله لهم تحققا بطيئا ، وصار من غير السهل الاستمرار فى الاعتقاد فى الوهم الذى كانوا يحبونه فوق كل شىء آخر ، بأنهم شعب الإله المختار . وإذا كانوا راغبين فى البقاء سعداء فإن الشعور بالذنب حينئذ ، لأنهم هم أنفسهم كانوا خطاة على قدر كبير ، يقدم عذراً مقبولا لقسوة الإله . ولم يستحقوا شيئا أفضل من أن يكون الإله هو الذى يقوم بمعاقبتهم ، لأنهم لم يراعوا شرائعه . ودفعتهم الحاجة إلى إرضاء هذا الإحساس بالذنب ، الذى ينبع من مصدر أشد عمقا ولا يمكن إشباعه ، إلى جعل شرائعهم الدينية أصلب فأصلب دائما ، وأكثر دقة ، ولكنها أقل شأنا ؛ وفرض اليهود دوما على أنفسهم شعوراً متجدداً بمتعة الزهد ، طرحا للغرائز ؛ وبذلك وصلوا — على الأقل من ناحية المذهب والشرائع — إلى سوامق أخلاقية ظلت

بمنأى عن تناول الشعوب القديمة[1]. ويعتبر الكثير من اليهود هذه التطلعات السمة الثانية الكبرى، والمنجز الثانى، لديانتهم. ويهدف بحثنا إلى بيان كيفية ارتباطها بالسمة الأولى، وهى فكرة الإله الواحد الأحد. ولا يمكن مع ذلك إنكار خروج هذه الأخلاقيات من المشاعر بالذنب الراجعة إلى العداء المكبوت للإله. وهو عداء من صفة نألفها فى تشكيلات الفعل للعصاب الحصرى[2].

والتطور اللاحق يتجاوز اليهودية. والعناصر الأخرى التى تعاود الظهور من الدراما التى تدور حول شخص الأب البدائى لم يكن هناك سبيل إلى التوفيق بينها وبين الديانة الموسوية. ولم يعد الشعور بالذنب فى ذلك العصر مقصوراً على اليهود، فكان قد تملك كل شعوب البحر الأبيض، كشعور غامض يقلقهم، ونذير سوء طالع يتوقعونه، ولا أحد يدرى له سببا. ويصف التاريخ الحديث الثقافة

---

(١) النغمة العنصرية واضحة من جديد، رغم الحقيقة التاريخية التى تحدث عنها فرويد نفسه، والتى تدفع دنيوية اليهود «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون». (الآية ٧٥ سورة البقرة)، «أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون» (الآيات ٨٧ و٨٨ سورة البقرة) وشبيه به كلام كثير تحفل به التوراة نفسها ويناقض فرويد. (الحفنى).

(٢) العصاب الحصرى Obsessional Ueorosis : عصاب نفسى يتصف بالأفكار والدوافع الحصرية أو التسلطية. (الحفنى).

القديمة بأنها قد شاخت ، وإنى لأستنتج أنها ثقافة لم تدرك إلا بعض الأسباب العارضة الثانوية وراء المزاج الهابط الذى سار وقتذاك بين الشعوب . وجاء تخفيف ذلك الضيق ابتداء من اليهود . ورغم أن تلك الفكرة نفذت على إشارات موحية كثيرة من مصادر مختلفة ، فإن إدراكها لم يبزغ كالفجر إلا لعقل يهودى يدعى شاول الطرسوسى الذى تسمى فيما بعد ببولس ، عندما صار مواطنا رومانيا ، حيث قال : « لأننا قتلنا الله الأب فإننا فى غاية التعاسة » . ويتضح الآن لنا تماما سبب أنه لم يستطع أن يدرك هذه الحقيقة فى أى شكل آخر سوى هذا الشكل الوهمى المقنع ، الذى يحمل فى طياته أخباراً سارة ، حيث يقول : « لقد تخلصنا من كل ذنب منذ أن وهب واحد منا حياته ليكفر عن ذنبنا » . وفى هذه الصيغة لم يذكر طبعا مقتل الإله ، ولكن الجريمة التى يقتضى التكفير عنها بالموت الكفارى ، لا يمكن إلا أن تكون جريمة قتل . وعلاوة على ذلك ، فإن الارتباط بين هذا التصور وبين الحقيقة التاريخية قد تم عقده بتأكيد أن الأضحية الكفارية هى ابن الإله . ومكنت القوة التى استمدها هذا الايمان من التغلب على كل العوائق ، وفى مكان الشعور الفياض بالنشوة بأنهم هم الشعب المختار ، حل الآن انعتاق بواسطة الخلاص . وكان على جريمة اغتيال الأب عند معاودة ظهورها فى ذاكرة البشرية أن

تتغلب على عوائق أعظم من العائق الذى شكل جوهر التوحيد ، فقد كان عليها أن تمر بتحريف أوسع . وحلت عقيدة تقوم على إدراك غامض نوعا للخطيئة الأصلية محل الجريمة التى ما كان أحد يجرؤ على ذكرها .

وصارت الخطيئة الأصلية ، والخلاص بالموت الكفارى أساس الديانة الجديدة التى أرسى بولس قواعدها . والسؤال عما إذا كان هناك زعيم ومحرض على الجريمة بين عشيرة الأخوة الذين تمردوا على الأب البدائى ، أو ما إذا كانت تلك الشخصية قد أبدعها من بعد الشعراء الذين تمثلوا أنفسهم فى البطل ، ومن ثم اندمجوا فى التراث ، ينبغى أن يظل بلا جواب ، فبعد أن فجر المذهب المسيحى أسوار اليهودية ، امتصت مكونات أخرى من مصادر أخرى كثيرة ، من سمات التوحيد الخالص ، وانتهجت فى تفاصيل كثيرة الطقوس الدينية لشعوب البحر الأبيض الأخرى . وكان كما لو أن مصر قد توصلت إلى أن تنزل انتقامها بورثة أخناتون . وإن الطريقة التى توصلت بها الديانة الجديدة إلى التوافق بين الصفتين المتعارضتين والمتكافئتين القديمتين اللتين تتصف بهما علاقة الأب — الابن لجديرة بالملاحظة ، وكان المبدأ الأساسى الذى تبشر به هذه الديانة هو التأكيد على مصالحة الإله الأب ، والتكفير عن الجريمة التى ارتكبت فى حقه ،

ولكن الجانب الآخر من العلاقة أظهرت نفسها فى الابن الذى حمل الذنب على كتفيه فصار إلها هو نفسه إلى جانب الأب ، وفى الحقيقة فى مكان الأب . وتحولت المسيحية — وهى أصلا ديانة أب — إلى ديانة ابن ، ولم يكن فى وسعها أن تفلت من قدرها فى الإحلال محل الأب .

ولم يقبل المذهب الجديد إلا جزء من الشعب اليهودى . والذين رفضوا قبوله لايزال أغلبهم يهودا . ومن خلال هذا القرار لايزالون معزولين عن بقية العالم بشكل أكثر عن ذى قبل . وكان عليهم أن يحتملوا نقد الجالية الدينية الجديدة — التى بالإضافة إلى اليهود كانت تضم مصريين ويونانيين وسوريين ورومانيين — بأنهم قتلوا الإله . ويعنى هذا النقد فى صيغته الكاملة : « أنهم لن يعترفوا بأنهم قتلوا الإله ، بينما نحن نعترف بذلك وأننا بريئون من ذنبه[1] » . ومن ثم فمن السهل فهم أى نوع من الحقيقة يكمن خلف هذا النقد . وقد يكون سبب عجز اليهود عن المشاركة فى التقدم الذى يشير إليه هذا الاعتراف بقتل الإله (برغم كل التحريف الذى اعتراه) موضوعا لبحث خاص . ومن خلال ذلك العجز احتمل اليهود ، إذا

(١) لاحظ كيف يقلب فرويد التهمة من اليهود على غير اليهود مستخدماً أساليبه فى التحليل النفسى ، ولاحظ كيف يسوق الكلام سوقا ويصوغه صياغة ، وهو نفس ما يتبعه علم الدعاية اليوم . (الحفنى) .

جاز التعبير التعبير ، ذنبا مضجعاً ، وكتب عليهم أن يقاسوا بسببه بشدة .

* * *

وربما كان بحثنا قد ألقى بعض الضوء على المسألة التى يثيرها الكتاب ، وهى الصفات التى تميز صفات اليهود . وأما مشكلة استطاعتهم الاستمرار فى الحياة حتى اليوم كمجموعة لها وجودها المستقل ، فقد ثبت صعوبة حلها[1] . ولا نحسب أن فى الوسع المطالبة بإجابات مستفيضة لمثل هذه الألغاز أو توقعها ، وكل ما يمكن أن أقدمه هو مساهمة بسيطة ينبغى الثناء عليها مع الاعتبار الواجب للحدود النقدية التى سبق أن ذكرتها .

[تم الكتاب]

●

(١) هنا نعثر على السلبيات التى تميز بها اليهود ، ولذلك يرفض فرويد أن يساق إلى الخوض فيها ، وخاصة أنها لن تعده بدفوع يدفع بها عن اليهود ويتهم بها غير اليهود ، ولأنه يرفض دخول ميدان سيتخذ فيه موقف المدافع فقط ، وليس موقف المهاجم . (الحفنى)

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٥٢٣ لسنة ١٩٧٣

فهرس

صفحة

كتب المترجم

مؤلفات :

١ ـ فن التأليف والإخراج والتمثيل للتليفزيون ـ دار الكتاب العربي

٢ ـ جان بول سارتر : حياته وفنه وفلسفته ـ مؤسسة التأليف

٣ ـ ألبير كامي : حياته وفنه وفلسفته ـ مكتبة راديو

٤ ـ تيارات ومذاهب فنية وأدبية جديدة

مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

٥ ـ في النظرية الماركسية : المثالية والمادية ـ مكتبة راديو

٦ ـ معنى الوجودية ـ مكتبة راديو

مترجمات :

٧ ـ ما فوق مبدأ اللذة لفرويد ـ مكتبة راديو

٨ ـ معنى الوجودية لجان فال ـ مكتبة راديو

٩ ـ البوتقة لآرثر ميلار ـ مؤسسة التأليف

١٠ ـ رجال وفئران لجون شتاينبك ـ مؤسسة التأليف

١١ ـ الأفواه اللامجدية (مسرحية) لسيمون دى بوفوار

مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

١٢ ـ المتمرد لألبير كامى ـ مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

١٣ ـ أسطورة سيزيف ـ مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ ـ ثلاث مسرحيات لكامى ـ مكتبة راديو

١٥ ـ الوجودية مذهب إنسانى لسارتر

مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

١٦ ـ الماركسية والثورة لسارتر

مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع

١٧ ـ المادية الماركسية والثورة لسارتر ـ مكتبة راديو

١٨ ـ الماركسية والوجودية لسارتر ـ مكتبة راديو

١٩ ـ ثلاث مسرحيات لسارتر ـ مكتبة راديو

٢٠ ـ المومس المحترمة لسارتر ـ مكتبة راديو

٢١ ـ دور الأدب والفن فى الاشتراكية

لكارل ماركس ـ مكتبة الأنجلو

٢٢ ـ سجناء الطونا لسارتر ـ عالم الكتب

٢٣ ـ اليهودية فى ضوء التحليل النفسى ـ سيجموند فرويد

(موسى والتوحيد) ـ الدمياطى للطبع والنشر

يصـــدر قريبا

قاموس

علم النفس

انجليزى — عربى

اعداد وترجمة عبد المنعم الحفنى

به ثبت كامل لما يزيد عن
عشرة آلاف مصطلح من مصطلحات

علم النفس

نشر وتوزيع :

مطبعة الدار المصريه للطباعه والنشر والتوزيع

٢٢ شارع سامى — لاظوغلى ت ٢٠٨٣٨ / ٣٢٥٧٨ — القاهرة

مليم

الجنس والجسد ـ تأليف دكتور هنرى دارون
ترجمة محمد الدمياطى ١٥٠
تجارة الجنس فى أمريكا ـ تأليف جارى جوردون
ترجمة زينات الصباغ ٢٥٠
الحياة الجنسية فى الزواج ـ تأليف دكتور ج. ريتشارد
ترجمة شوقى رياض السنورسى — مراجعة محمد الدمياطى ١٥٠
الأحاسيس الجنسية ـ تأليف دكتور ج. لومبارد كيلى
ترجمة شوقى رياض السنورسى — مراجعة محمد الدمياطى ١٥٠
صارح طفلك عن الجنس ـ وضع واختيار جمعية دراسات الطفولة
بأمريكا ترجمة شوقى رياض السنورسى — مراجعة محمد الدمياطى ١٥٠
الجنس والأسرة ـ تأليف يوسف ميخائيل أسعد مراجعة محمد الدمياطى ١٥٠

تحت الطبع

سيكلوجية الجنس ـ تأليف دكتور صلاح عدس . .
جان دارك : عرض وتحليل وتعقيب ـ بقلم عبد اللطيف الدمياطى
من الأعماق DE PROFUNDIS لأوسكار وايلد
ترجمة عبد اللطيف الدمياطى . . . . .
مأساة الإنسان المعاصر فى شعر عبد الوهاب البياتى
إعداد واختيار محمد الدمياطى . . . . .
أنت أسود (قصص قصيرة) ترجمة مازن الحسينى ومحمد الدمياطى
فكر عبد الناصر — تأليف حسين الطنطاوى
فى رحاب شهر القرآن — تأليف حسين الطنطاوى
عودى يا شيبا الصغيرة — تأليف وليم انج
وفاة بائع متجول — لآرثر ميللر ترجمة محمد الدمياطى . .

	مليم
رجال وخنازير (قصص قصيرة) ـ للدكتور سعد الخادم	١٥٠
الأم شجاعة وأولادها (مسرحية) ـ تأليف برتولد بريخت ترجمة دكتور سعد الخادم	٢٠٠
الناس اللى تحت والناس اللى فوق (مسرحيتين فى مجلد واحد) تأليف نعمان عاشور	٢٥٠
البطل فى الزريبة (مسرحية كوميدية)ـ تأليف فريدريخ ديرنمات ترجمة دكتور سعد الخادم	١٥٠
الذباب (مسرحية) ـ تأليف جان بول سارتر ترجمة محمد الدمياطى	١٥٠
كلمة سلام (أشعار بالعامية المصرية ـ صلاح جاهين)	١٥٠
قصاقيص ورق (أشعار بالعامية المصرية ـ صلاح جاهين)	١٥٠
الأرض والعيال (أشعار بالعامية المصرية ـ عبدالرحمن الأبنودى)	١٥٠
صياد وجنية (أشعار بالعامية المصرية ـ سيد حجاب)	١٥٠
الغسق (أشعار كتبت فى المنفى) للشاعرة العراقية هند نورى العبدان . .	١٥
وتبقى الأرض للشعب (أشعار بالعامية الليبية) للشاعر الليبى عمر بالعيد المزوغى	٢٥٠
ليبيات (أشعار بالعامية الليبية) للشاعر الليبى بشير الخباش	٣٥٠
الضحك وفن الاضحاك ـ تأليف الحسينى على فرعون . .	١٥٠

آخر ما كتب سيجموند فرويد . . .

والكتاب بهذا والظروف التي كُتب فيها ، يعد وثيقة هامة لفهم فرويد ، وتزيد من معرفتنا باللاشعور الذي طالما تحدث عنه . . .

ومنه نعرف حقيقة هذا المفكر ، ونرى كيف تعمل الدعاية الصهيونية من أجل دعمه وإعلاء شأنه ، ليظل الفكر الصهيوني هو الفكر الذي يتزعم كل فكر آخر . . في العالم كله . . ! !

